حكايات المافيا

ليوناردو شاشّا

لكُلٍّ مالَهُ

مكتبة

ترجمها عن الإيطالية: عرفان رشيد

المتوسط

#944

لكُلِّ مالَهُ

مكتبة | سُر مَن قرأ

#944

حقوق الترجمة العربية والنسخ © 2021 منشورات المتوسط - إيطاليا.

مكتبة
t.me/t_pdf
٣٠_٣١ ٨ ٢٠٢٢

A ciascuno il suo *by* " leo ma do Sc asc a 1966"
Copyright © Leonardo Sciascia Estate
Published by arrangement with The Italian Literary Agency
Arabic Copyright © 2021 by A lmutawassit books

المؤلف: ليوناردو شاشّا / المترجم: عرفان رشيد / عنوان الكتاب: لكُلٍّ ما لَهُ
الطبعة الأولى: 2021.
الغلاف والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 979-12-80738-05-9

منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:
Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia
العراق / بغداد / شارع المتنبي / قيصرية المصرف - طابق أول / ص.ب 55204.
www.almutawassit.it / info@almutawassit.org

ليوناردو شاشّا

لكلٍّ ماله

ترجمها عن الإيطالية: **عرفان رشيد**

مكتبة | سُر مَن قرأ

#944

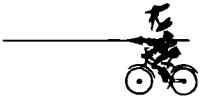

المتوسط

عنوان الرواية:

تعبيرٌ باللغة اللاتينية، ويعني أنّ كل كائنٍ سينال ما يستحقّ، أو أنّ لكلٍّ قَدَرُهْ .. لكنها تتظلّل، في هذه القصّة، بقَدْرٍ من السخرية، عندما تُقاس بالعلاقة مع المصائر التي يواجهها الأبرياء.

مكتبة
t.me/t_pdf

1

وصلت الرسالة في نوبة توزيع ما بعد الظهر، وكعادته في كلّ مرّة، وضع موزّع البريد رُزمة إعلانات الدعاية الملوّنة على "كاونتر" الصّيدليّة، وبحذر شديد أراح عليه الرسالة كما لو أن فيها ما سينفجر في الحال. مظروف أصفر أُلصق عليه العنوان المطبوع على قُصاصة مُستطيلة.

- هذه الرسالة لا تُعجبني. قال موزّع البريد.

رفع الصّيدليّ عينَيْه عن الجريدة التي كان يُطالعها، وخلع نظّارَتَيْه.

- ماذا هناك؟ سألَ الموزِّعَ ضجراً ومستثار الفضول في آنٍ.

- أقول بأنَّ هذه الرسالة لا تُعجبني - دفعها برفق صوب الصّيدليّ على مرمر الكاونتر بسبّابته. أحنى الصّيدليّ رأسه، لينظر إلى الرسالة دون أن يمسّها، ثمّ استقام، ولبس نظّارَتَيْه، وعاد لينظر إليها.

- ولماذا لا تُعجبكَ؟

- لقد رُميت في صندوق البريد هنا في البلدة، ليلة البارحة أو صباح هذا اليوم باكراً، والعنوان الذي تحمله مقصوصٌ من إحدى أوراق الصّيدليّة المطبوعة التي تستخدمها أنتَ.

- صحيح - استنتج الصّيدليّ، وراح يرمق موزِّع البريد، محتاراً ومضطرباً كَمَنْ يترقّب تفسيراً أو قراراً ما.

- إنّها رسالة مجهولة المُرسِل(*)- قال موزِّع البريد.

- مجهولة المُرسِل! - ردّد الصّيدليّ. لم يكن قد لمس الرسالة بعد. لكنّها ابتدأت بتدمير حياته العائليّة. صاعقةٌ حارقةٌ ومدمِّرة ضربت في تلك اللحظة امرأة متواضعة الجمال، ذابلة ومُهملة، كانت في تلك الغضون أمام موقد دارها تُعدّ لحم الماعز، وتضعه في الفرن للعشاء.

- الرسائلُ مجهولة المُرسِل عادة شائعة في هذه الأرجاء - قال موزِّع البريد، وكان قد وضع حقيبته على أحد الكراسي واستند على الكاونتر بانتظار أن يفضّ الصّيدليّ المظروف. وكما هو واضح، فقد توخّى موزّع البريد كل المحاذير، و حمل الرسالة إلى الصيدلي دون أن يمسّها أو يفتحها. كان واثقاً من الحميمية والسذاجة التي يتّسم بهما الصّيدليّ، فكّر في سرّه "إذا ما فتحها ووجد فيها ما يدلُّ على الخيانة الزّوجيّة، فإنّه لن يُفصِح لي عن شيء، أمّا إذا كانت تهديداً أو أيّ أمر آخر، فسيُريني إيّاها". وعلى أيّة حال، فقد كان موزِّع البريد قد قرّر بأنه لم يكنْ ليُغادر المكان دون أن يكون قد تعرّف على محتويات الرسالة، فلديه مُتّسعٌ من الوقت.

.إليّ أنا تصل رسالة مجهولة المُرسِل؟! - قال الصّيدليّ بعد صمتٍ طويل. كان منذهلاً ومطعوناً في نبرة صوته. مرتعب الصوت ومُشتّت

---

*) رسائل لا تحمل أسماء مُرسليها شاعت في صقليّة إمّا للشكوى أو الوشاية والإيقاع بأحدٍ ما أو الإبلاغ عن خيانات زوجيّة دون أيّة طائلة قانونية على عاتق منْ يُرسلها، وكثيراً ما استُخدمت هذه الطريقة من قبل المافيا أو ممّنْ يعارضونها.

النظرات، والتمَعَتْ قطرات من العَرَق فوق شفته العليا. وبعيداً عن الفضول المُستثار الذي كان يطفح منه، فقد تقاسم موزِّع البريد الذهول والطعنة مع الصّيدليّ. رجلٌ طيّب القلب وفؤاده على راحة كفّه، يبيع الأدوية بالدَّيْن للمحتاجين ولمن لا يملكون المال الكافي لحظة الحاجة إلى الدواء، وفي الأرض التي امتلكها كصداقٍ لقرانه مع زوجته كان يُتيح للفلاحين أن يفعلوا ما يشاؤون. ولم يكن موزِّع البريد قد سمع قطُّ إلى ما يُسيءُ إلى سمعة زوجته.

وعلى حين غِرَّة، قرّر الصّيدليّ فأخذ المظروف وفَتَحَهُ وفضّ طيّات الورقة. وشاهد موزّع البريد بعينَيْه ما كان يترقّب. كان نصّ الرسالة متشكِّلاً من كلمات قُصَّت من ورق الجرائد.

ذاق الصّيدليّ المرارة كلّها دُفعة واحدة. سطران فحسب، قرأهما، وثُمَّ.

-اسمع، اسمع - قال، بانشراح كبير وبادٍ للعيان، وبقَدْرٍ من المتعة. فكّر موزّع البريد. "وإذاً، لا خيانة هناك"، وسأل - ماذا هناك، أهو تهديد؟

- نعم، إنّه تهديد. أجاب الصّيدليّ، ومَدّ إليه الرسالة. استلم الموزّع الرسالة بعُجالة، وقرأ محتوياتها بنهمٍ وبصوتٍ عالٍ - هذه الرسالة هي الحكم عليكَ بالموت، ستموت بسبب ما اقترفتْ يداك -، أغلقَهَا ووضَعَهَا على الكاونتر - إنّها مَزْحَة دون شكّ - قال، وكان صادقاً فيما يعتقده.

- هل تعتقد حقّاً بأنّها مَزْحَة؟، سأل الصّيدليّ وهو في غاية القلق.

- وما الذي يُمكن أن تكون؟ مَزْحَة. هناك أُناس تَحُكّهم قرونهم(*) فيخترعون مزحات من هذا النوع، وهذه ليست المرّة الأولى، إنّهم يفعلون ذلك عبر الهاتف أيضاً.

- آه، نعم - قال الصّيدليّ - لقد حدث معي أيضاً. ففي مرّة رنّ جرس الهاتف ليلاً. ذهبتُ لأردّ على المكالمة، فسمعتُ صوت امرأة تسألني ما إذا كنتُ قد أضعتُ كلباً، وأخبرتْني بأنّها عثرت على كلب نصفه بلونٍ أزرق ونصفه الآخر أحمر اللون، وبأنّ البعض أخبرها بأنّني أنا مالكُ ذلك الكلب. نعم! تلك كانت مَزْحَة واضحة، لكنّ هذه رسالة تهديد بالموت!.

- إنها الشيءُ ذاتُهُ. شدّد موزِّع البريد بنبرة المختصّ في هذه الأمور. حمل حقيبته، وتوجّه نحو باب الصّيدليّة، وقال فيما يستأذن بالذهاب. لا تقلقْ، ولا تشغلْ ذهنك بذلك -

- لا أُشغلُ ذهني! - قال الصّيدليّ مع نفسه. كان موزِّع البريد قد غادر المكان وهو يفكّر في سرّه. "كمَزْحَة، هي ثقيلة الظّلّ دونما أدنى شكّ". هي مَزْحَةٌ دون أدنى شك، هي كذلك بالتأكيد. لم تكن لدى الصّيدليّ عداوات أو مشاكل مع أحد، فهو لا يتعاطى في السياسة، وينأى بنفسه عن النقاش فيها، وحتّى تصويتُه في الانتخابات كان أمراً شخصيّاً بحتاً وسرّاً بينه وبين نفسه. كان يُدلي بصوته في الانتخابات النّيابيّة لصالح الحزب الاشتراكي، كتقليد عائلي، أمّا في الانتخابات البلديّة، فقد كان يُدلي بالصوت لصالح الحزب الدّيموقراطيّ المسيحي، حبّاً بالبلدة، لأنّها عندما تُدار من قبَل هذا الحزب،

*) القرون، وفي العُرْف الشّعبيّ الصّقليّ، إشارة إلى رجال تعرّضوا إلى خيانة زوجية.

يكون بمقدورها أن تقتلع شيئاً ما إضافيّاً من الحكومة، ثمّ لأنّ الحزب الدّيموقراطيّ المسيحي كان يسعى لإبقاء نسبة الضريبة المُضافة على حالها، فيما كانت أحزاب اليسار تُلمِّح إلى احتمال زيادتها. لم يتدخّل الصّيدليّ في أيّ نقاش على الإطلاق. كان اليمينيّون يُعدّونَه واحداً منهم، ويحسبه اليساريون أحد المتعاطفين معهم. أن تجري وراء السياسة، بعد هذا وذاك، فإنّكَ إنّما تُضيّعُ وقتكَ. ربّما لم يعثر في السياسة على ما يُثير اهتمامه، وكان يجد بأنّ مصلحته تقتضي موقفاً مثل هذا، أو ربّما وُلد كما العميان الذين لا يرون شيئاً. وعلى أيّة حال، فقد كان الصّيدليّ يُسيِّر حياته بهدوءٍ مُطلق. وربّما كان هذا بالذات ما أثار ضغينة كاتب الرسالة مجهولة المُرسِل. شخصٌ اعتيادي بهذه الدرجة من الهدوء يُمكن أن يُثير لدى شخص آخر الرغبة في إقلاقه، وربّما كان ذلك الشخص يعيش في كسلٍ وضجر باندفاعات شرّيرة، ويسعى إلى إثارة الفزع في داخل هذا الرجل الهادئ. لكنْ، ربّما كان من الضّروريّ البحث عن سبب آخر، بالذات في الهواية الوحيدة التي يمارسها الصّيدليّ، أي هواية الصيد، فكما هو معلوم بأنّ لدى الصّيّادين حسدٌ كبير تجاه بعضهم البعض، إذْ يكفي أن تملك كلبَ صيدٍ رائعاً، حتّى تحاصرك ضغائن صيّادي البلدة جميعهم، بمَنْ فيهم أصدقائكَ المقرّبين الذين يتشاركون وإيّاكَ رحلات الصيد، أو من بين مَنْ يتسامرون معكَ كلّ يوم أمام مدخل الصّيدليّة.

وكانت أجداث الكلاب المُسمّمة والنافقة من المشاهد المعتادة في البلدة. فأفضل أنواع الكلاب، إذا ما تغافل عنه مالكه مساءً أو تركه يسرح في ساحة البلدة، فقد يُغامر أن يجده في اليوم التالي مطروحاً على الأرض ميتاً بسُمٍّ "ستراكينينا". هذا ظُلم، وظلمٌ واضح؛

لأنّ الكلبَ، بالنسبة إلى الصّيدليّ "مانّو"، ليس مجرّد حيوان للرفْقةِ، بل كان يعدّه شيئاً مُقدّساً مثل إله، وبالذات ذلك النوع من الكلاب التي ترافقكَ في رحلات الصيد، وكانت تحتلّ مقدّمة اهتماماته أو اهتمامات أصدقائه. كانت كلاب الصّيدليّ في مأمن من السموم. كان لديه أحد عشر كلباً، أكثرهم من فصيلة "تشيرنيكا"، وكانت حسنَةَ التغذية، ومُعتنىً بها كما يُعتنى ببني البشر. وقد وُضِعَتْ حديقة المنزل تحت تصرّف الكلاب، تسرح فيها وتمرح، تتقافز وتقضي حاجاتها. وكان وجودها بالنسبة إلى الصّيدليّ، عندما يراها، مبعث إمتاع وبهجة كبيرة. وحتّى عواؤها المزعج للجيران والمُثير لاحتجاجاتهم، فقد كان يصل إلى أُذُنَيِ الصّيدليّ كما الموسيقى، وكان يُميِّز نباح كل كلبٍ من كلابه، ويعرف عبره حالته، وما إذا كان مُبتهجاً، مستاءً أو مريضاً.

أيْ نعم!، لا يُمكن أن يكون هناك أيُّ سببٍ آخر. ورغم أنّه ليس لتلك الرسالة ألّا أن تكون مَرْحَة، فإنّ أحداً ما رَغِبَ في إثارة الفزع في داخل الصّيدلي، إلى حدّ ما، أو ربّما توقّع بأنّ الرعب الذي سيُثيره لديه سيَبْلُغُ درجة ثَنْيِهِ عن الخروج في رحلة الصيد الأسبوعية المُعتادة يوم الأربعاء، يوم عطلة الصّيدليّة.

وبصرف النظر عن تواضعه المعتاد، فقد كانت أيّام الأربعاء بالنسبة إلى الصّيدليّ بمثابة مجزرة حقيقيّة للأرانب المُدجّنة والأرانب البرّيّة، وذلك بفضل كلابه المقتدرة ودقّة تصويبه بالبندقيّة. ولمعرفة الحصيلة تكفي المقارنة بين ما يصطاده هو وما يصطاده رفيق رحلته المُعتاد الدكتور "روشو"، والذي كان هو الآخرُ مصوّباً جيّداً، وله كلبان مُدرّبان،

أو ما شابه ذلك ... وإذاً فإنّ الرسالة كانت، بتحصيل الحاصل، تزيد الصّيدليّ زهواً، وتتحوّل إلى عنوان كبير يؤكّد سُمعته كصيّادٍ ماهر، بالذات في الأيّام التي كان ينوي خلالها بدء موسم الصيد، وعلى ما يبدو، فإنَّ هناك مَنْ يرغبون في استبعاده عن يوم الافتتاح الكبير، سيّما وأنّه اعتاد على أن يعيش ذلك اليوم ببهجة وسرور كبيرَيْن، سواء أحلّ في الأربعاء أم في أيّ يومٍ آخر من أيّام الأسبوع.

وبعد تفكير طويل وعميق حول هذا الأمر تأكّدت لدى الصّيدليّ القناعة حول هدف تلك الرسالة وحول هويّة كاتبها. انتقل من أريكة الخيزران، وجلس عند مدخل الصّيدليّة في الظّلّ الذي تُسقطه البيوتُ المقابلة للمكان. كان النّصب البرونزي للبروفيسور ميركورتسيو سپانو (أستاذ الحقوق ووكيل وزارة البريد لأكثر من مرّة) يرتفع قُبالته. كان ظلُّ التمثال يمتدّ ثقيلاً ومُعتماً في ضياء الشمس الحادّة، حدّق الصّيدليّ بتمثال البروفيسور، بشخصيَّتَيْه المزدوجَتَيْن، أستاذ حقوق ووكيل وزارة. لكن نظرته انسحبت من التمثال بسرعة، ليتركّز تفكيره على المرارة التي يشعر بها مَنْ أُهينَ وأُصيبَ بحيفٍ ما، ها هو يكتشف إنسانيته العالية أمام حِطّة وشرور الآخرين، ويؤنِّب نفسه لعجزه في أن يكون شرّيراً مثلهم.

وعندما استطال ظلّ تمثال ميركوتسيو سپانو ليَمَسّ قصر عائلة كيارومونتي على الطرف الآخر من الساحة، كان الصّيدليّ ما يزال غارقاً في تأمّلاته وتفكيره إلى درجة أنّ صديقه دون لويجي كورڤايا(*)، توقّعَ

---

*) الدون كلمة مُشتقّة من اللاتينية (dominus) وتعني الرجل المحترم، وتُستخدَم كلمة "دون" في مقدّمة أسماء القسس والرُهبان، لكنهّا تُستخدَم في الجنوب الإيطالي كلقب للأشخاص من البرجوازية المحلّيّة، كما هو في هذه الحالة.

أنّه غارق في النوم، فصاح به. أفِقْ، يا صاحبي. فما كان من الصّيدليّ إلّا أن اهتزّ على كرسيّه، وابتسم ونهض ليجلب كرسيّاً لدون لويجي.

- يا لهذا النهار! - تنشّق دون لويجي وهو يرمي بنفسه على الكرسي.

- لقد صعد الرَّبَق في المحرار إلى 44 درجة مئويّة - قال الصّيدليّ.

- لكنْ، يبدو أنّ الطقس آيلٌ إلى الاعتدال الآن. وسترى بأنّنا سنحتاج إلى الأغطية في الليل.

- لقد صار عسيراً فَهْم الطقس أيضاً - قال الصّيدليّ بمرارة، وقرّر إعلام دون لويجي في الحال بشأن موضوع الرسالة، وهكذا سيتولّى هو مهمّة إعلام أيّ صديق آخر سيصل إلى الصّيدليّة.

- لقد استملتُ اليوم رسالة مجهولة المُرسِل - قال لدون لويجي.

- رسالة مجهولة المُرسِل؟

- نعم، رسالة تهديد. ونهض لإحضارها.

كانت ردّة فعل دون لويجي الأولى لمجرّد قراءة السطرَيْن المُرعبَيْن - آهٍ، يا يسوع المسيح! - ومن ثمّ - إنّها مَزْحَة دونما شكّ - واتّفق الصّيدليّ مع دون لويجي على كونها مَزْحَة بالتأكيد.

- هي مَزْحَة بالتأكيد، لكّنها تهدف إلى أمرٍ ما؟

- أيّ هدفٍ تعني؟

- استبعادي من رحلة الصيد.

مكتبة
t.me/t_pdf

- أيْ نعم!، ربمّا، فأنتُم الصّيّادون لا تلوون عن أيّ شيء - قال دون لويجي الذي يعدّ الصيد سبباً للإنفاق غير الضّروريّ وللإنهاك الفائض، رغم إعجابه بتناول حساء طائر الحَجَل ولحم الأرانب الحامض والحلو المُنقَّع والمطبوخ بصلصة الخلّ والسّكّر.

- ليسَ الجميع.

- بالتأكيد، بالتأكيد، لكلّ قاعدة استثناءاتها، لكنْ، هل تعلم ما بمقدور بعض الأشخاص أن يفعلوا. قطعة لحم مُسمّمة، يرمونها لكلب الصديق، أو يوجّهون رصاصتهم إلى الكلب بدلاً من الأرنب الذي يُلاحقه. قوّادون، ما الذي اقترف ذلك الكلب من خطايا؟ طَيّعاً كان أم مسعوراً، فهو ليس إلّا مجرّد حيوان. وإذا كان لديكم ولو قسطٌ بسيط من الجرأة، فإن عليكم إبداء الغضب تجاه صاحب ذلك الكلب.

- لا ينطبق ما تقول على الجميع بالمطلق - قال الصّيدليّ، الذي كان قد سبق له أن شعر بالحسد تجاه آخرين، بسبب كلاب بعض أصدقائه. لكنْ، دون أن يكون ذلك الحسد، في أيّ حالٍ من الأحوال، سبباً للقبول برؤية تلك الحيوانات مطروحة على الأرض نافقةً.

- سيّان عندي كلتا الحالَتَيْن، فَمَنْ يُقْدِم، بدمٍ بارد، على قَتْل كلب، فهو قادر على الإقدام على جريمة قَتْل إنسان، كما قال أبانا الذي في السموات - ثمّ أضاف - ربمّا أقول هذا لأنّني لستُ صيّاداً.

وطوال الأُمسيّة تواصل الحديث حول نفسيّات الصّيّادين وسلوكيّاتهم، لأن المتسامرين كانوا يعاودونه كلّما انضمّ إليهم شخص آخر من المجموعة. كانوا يبتدئون بقراءة الرسالة، ثمّ ينتقلون إلى

نقاش الحسد والغَيْرة، مردّدين أنّ لا شيء أسوأ منهما، ويتحدّثون عمّنْ حافظوا ويحافظون على تقاليد هذه الرياضة القديمة والنبيلة، رياضة الصيد، دون أن ينطبق ما يقولونه، بالضرورة، على الحاضرين في الجلسة بالطبع. ورغم تشعّب الحوار ومواضيعه، بدأ دون لويجي بإطلاق العنان لتأمّلاته وشكوكه حول الحاضرين أيضاً، وفعّلَ رِيبَهُ حول تسميم كلاب الصيد وحول الرسالة مجهولة المُرسِل. و كان بالفعل يُحدِّق في الوجوه بنظرته الحادّة عبر جفنَيْه المُجعّدَيْن، الدكتور روشو، كاتب العدل، البروفيسور لاورانا، والصّيدليّ أيضاً (الذي يمكن أن يكون هو نفسه واحداً من مُسمِّمي الكلاب، بل ربمّا كانت الرسالة مجهولة المُرسِل تهدف إلى مَنْحه شارة الصّيّاد الماهر الذي ينبغي على الآخرين أن يهابوا جانبه)، ولذهنيته المجبولة على الريبة والشّرّ، كان دون لويجي قادراً على أن يُخصّص في سرّه قَدْراً من الشراسة لكلٍّ واحدٍ من مجالسيه.

اتّفق الجميع في نهاية المطاف بأن تلك الرسالة ليست إلّا مَزْحَة ، ولا يُمكن أن تُؤخَذ في الحسبان إلّا على أنّها كذلك. هي مَزْحَة شرّيرة، بل هي تهدف إلى استبعاد الصّيدليّ عن يوم الافتتاح المهيب.

وعندما مرّ العريف الأول في شرطة الدرك (الكارابينييري)(*)، كعادته في كلّ مساء، كان الصّيدليّ على استعداد على مواصلة روحية المُزاح الذي دار حول الرسالة، لذا أبدى له عن مشاعر الأسى والخوف معاً، وعاتب العسكريَّ في أمرِ أنْ يحدث شيءٌ من هذا القبيل في البلدة التي يحميها هو وأنّ يتسلّم رجلٌ شريفٌ ومواطن

---

*) Carabinieri, هم الشرطة العسكرية، وأقدم قطعات الجيش الإيطالي.

وأبٌ حنون وربّ أسرة مثله، رسالةً تُهدّده بالموت، وأنْ يحدث ذلك على مَرأى الناس ومَسمعهم.

- ما الذي حدث؟ - سألَ العريف الأول، وابتسامته تعلو وجهه فيما ينتظر تفسيراً أو اعترافاً هازلاً، لكنّه استعاد جدّيّته، عندما عرض عليه الصّيدليّ الرسالة. قد تكون مجرّد مَزْحَة، وهي بالتأكيد كذلك، لكن الجريمة قائمة وملموسة، وينبغي على الصّيدليّ رفع دعوى ضدّ مجهول.

- أيُّ دعوى؟! -، قال الصّيدليّ الذي كان بلغ قمّة المرح.

- لا بُدّ من رفع دعوى. إنّه القانون، ربمّا سأعفيكَ من الحضور إلى مركز الشرطة، وسنكتب الدعوى هنا، لكنْ، لا بُدّ منها، ولن يستغرق الأمر إلّا دقيقة واحدة.

دخل الاثنان إلى الصّيدليّة، أضاء صاحبها المصباح الذي كان على الكاونتر، وابتدأ بكتابة ما أملاه عليه العريف الأول. كان العسكري يُملي على الصّيدليّ وهو يُمسك الرسالة مفتوحة، وكانت الورقة مُضاءة بشكل جيّد بنور المصباح. كان لدى البروفيسور لاورانا فضولٌ للتّعرّف على طقس الدعاوى والشكاوى ولغتها، فرأى على ظهر الورقة معكوسة بوضوح بعض الكلمات المطبوعة بالأحرف الكبيرة، والتي تمكّن من قراءتها بفضل بروزها بنور المصباح المعكوس على الورقة. قرأ .

(UNICUINQUE)[*]، وإلى جانب تلك كلمات أخرى من

---

*) سُطّرت كلمات الرسالة بحروف مقصوصة من الجرائد، لذا كانت الكلمات على ظهر حروف الرسالة واضحة للعيان بفعل نور المصباح الذي أنار الرسالة. وكلمة UNICUINQUE، مفهومٌ باللغة اللاتينيّة، ويعني "لكُلٍّ ما له" أو "لكلّ وما يستحقّ".

قبيل "النظام الطّبيعيّ، ذهنيات، زمان ومكان". اقترب البروفيسور لاورانا، ليُدقِّق في الورقة بشكلٍ أفضل، فقرأ بصوتٍ عالٍ كلمة - إنساني - انزعج العريف الأول، ولكي يذود عمّا صار يُعدّه من الأسرار الوظيفيّة، ومن اختصاص دائرته، قال للبروفيسور - أرجوكَ، ألا ترى بأنّني أُملي عليه.

- كنتُ أقرأ ما يَبينُ من ظهر الورقة - اعتذر البروفيسور، أخفض ضابط الصّفّ يده، وأخفى الورقة.

- ربمّا كان من المناسب والمفيد، أنْ تقرأ أنتَ أيضاً الرسالة بهذه الطريقة - قال البروفيسور مُبدِياً انزعاجه إزاء سلوك العريف الأول.

- سنفعل كل ما يجبُ علينا فعله، كُنْ متأكّداً من ذلك - قال ضابط الصّفّ بزهو. وعاد إلى الإملاء على الصّيدليّ.

2

مكتبة
t.me/t_pdf

كان يوم الثالث والعشرين من أغسطس 1964 هو اليوم السعيد الأخير الذي عاشه الصّيدليّ مانّو على هذه الأرض. وحسب تقرير الطبيب الشّرعيّ، فإنّه عاش ذلك اليوم حتّى غروب الشمس؛ وخمّن علم التشريح الطّبّيّ في كونه قضى نهاراً طويلاً استناداً إلى العدد الكبير من الحيوانات المُصطادة في زوّادته وزوّادة الدكتور روشو. إحدى عشرة قُبّرة وثلاثة أرانب برّيّة. وحسب العارفين في شؤون الصيد، فإن تلك الحصيلة لم تكن ممكنةً إلّا بعد نهارٍ كامل من التجوال، مع الأخذ بالاعتبار أن المكان لم يكن مَحميّة، ولم يكن غنيّاً بالحيوانات البرّيّة. كان الصّيدليّ والطبيب يعشقان الصيد في ظروف عسيرة، وذلك لاستبيان خصال كلابهما ومقدراتها، ولتأكيد مقدرتهما هما أيضاً كصيّادَيْن. ولذا فقد كانا على اتّفاق تام فيما بينهما، ويقومان برحلات الصيد معاً، دون البحث عن رفاقٍ آخرين. وقد أغلقا يوم الصيد الجميل ذاك معاً، كانت جثّتاهما ترقدان وبينهماعشرة أمتار. الصّيدليّ مُصاباً في ظهره، والدكتور في صدره. وكان أحد الكلاب يرقد إلى جوارهما، ليرافقهما في الرحلة الأخيرة صوب العدم الخالد، أو في رحلة صيد إلهية(*). وكان ذلك أحد الكلاب العشرة التي أخذها

(*) Cacce Eliseie إشارة ميثولوجيّة عن (Campi Elisi)، ويُقارب بينها وبين "جزائر، أو جنائن المحظوظين"، وحسب الميثولوجيا الإغريقية والرّومانيّة، فهي المكان الذي ترقد فيه أرواح منْ أحبّتْهم الآلهة.

الصّيدليّ معه، لكونه أبقى واحداً منها في حظيرة المنزل لإصابته بالتهاب في عينَيْه. وربّما كان الكلب المقتول هو ذلك الذي هجم على القَتَلَة، أو ربّما أقدموا على قَتْله زيادة في العذاب والقسوة.

كانت كلاب الصّيدليّ التسعة الآخرى وكلبَي الدكتور في عداد المفقودين، إلّا أنّها عادت إلى البلدة بمفردها في حدود التاسعة مساءً، وحسب ما تروي أساطير البلدة، فإن الكلاب عادت إلى البلدة وهي تعدو على شكل كتيبة متراصّة، وكانت تنبح بالبكاء. وبما أنّ أهل البلدة شاهدوا الكلاب، واستمعوا إلى نُباحها، فقد انتابتْهم قشعريرةُ هاجسٍ مُخيف. وبالتّراصّ والنّواح ذاتَيْهما توجّهت الكلاب بسرعة الرصاصة إلى المخزن الذي كان الصّيدليّ حوّله إلى حظيرة لها، وتجمعّت أمام الباب المُغلق، وضاعفت من نُباحها النائح، كما لو أنّها تُعْلِمُ مَنْ بقي في البلدة عن المأساة التي وقعت.

عودة الكلاب بتلك الطريقة، أدخلت البلدة لأيّامٍ وأيّام في دوّامة سجال، وأثارت لدى الناس شكوكاً وتحفّظات حول منظومة الخَلْق بشكل عامّ، فبالنسبة إلى الكثير من أهل البلدة، لم يكن من المنطقي والمقبول أن تفتقد الكلاب القدرة على النُطق، (وسيكون هكذا في كلّ مرّة يجري فيها الحديث عن خصال الكلاب وقيمتها) إلّا أنّ داعمي هذا المنطقِ لم يأخذوا في اعتبارهم، بأنّ تلك الكلاب، حتّى وإنْ امتلكت قدرة النطق، فقد كانت ستخرس وتصمت عن إيرادِ أيّ دليل على هويّة القَتَلَة الذين أرْدَوا سيّدَيْهم، وكانت ستفقد فصاحتها دونما أدنى شكّ أمام العريف الأول، ضابط صفّ الشرطة الذي أُعلِمَ بالنبأ في حدود الثانية عشر ليلاً، وكان قد دخل فراشه للتّوّ. أبلغه

بذلك أفرادٌ من قوّته وعدد من المتسكّعين الذين لا شُغل لديهم غير التّجوّل في أرجاء البلدة.

أمضى العريف الأول وقتاً طويلاً في الساحة وهو يحاول إقناع الكلاب لتقوده إلى مكان الحادث، ولم تُجْدِ نفعاً قِطَع اللحم والأحشاء التي رُميَت أمام الكلاب، كما لم تنفع التربيتات وإيماءات الدلال التي مارسها هو وأفراد قوّته في ثَنيها عن الإصرار على الجمود في المكان، ولتقوده إلى حيث تركت فيه مالكَيْها. وبعد أن عرف العسكري من زوجة الصّيدليّ اسم المكان الذي كان زوجها معتاداً على الصيد فيه، انطلق برفقة عدد من أفراده في رحلة البحث مع بزوغ الشمس. وبعد نهار لافح الحرارة، وقُبيل الغروب بوقت قصير، تمّ العثور على الجُثّتَيْن. وكما كان العريف الأول قد توقّع مسار الأحداث منذ أنْ هبّ من فراشه ليلاً، فقد عدّ في الحال بأنّ ما كانت تراه عيناه في تلك اللحظة ليس إلّا تنفيذاً للتهديد الذي ورد في تلك الرسالة، والذي عَدّه الجميع، بمَنْ فيهم هو نفسه، مَزْحَة لا غير.

ووجد الدركي نفسه في الحال أمام مشكلة عويصة، أو بالأحرى المشكلة الأكبر على الإطلاق خلال السنوات الثلاث التي قضاها في الخدمة في هذه البلدة. جريمة قَتْلٍ مزدوجة، ضحيّتاها شخصان معروفان في البلدة، يحظيان باحترام الناس ومحبّتهم، ويحتلان موقعاً هامّاً للغاية، ناهيكَ عن قراباتهما، فقد كان الصّيدليّ ينتمي، من طرف زوجته، إلى عائلة سپانو الذي يرتفع نُصْبُهُ في منتصف ساحة البلدة؛ أمّا الدكتور روشو، فقد كان نجل طبيب العيون الشهير البروفيسور روشو، وتحمل زوجته لقب روزيلّو، وهي ابنة شقيق الراهب الأقدم روزيلّو وابنة عمّ المحامي روزيلّو.

وكما كان مُرتقّباً، فقد حضر من مركز المحافظة كولونيل الدرك والمفتّش العامّ للشرطة في المحافظة، و بمجرّد وصولهما، أكّدا على التعاون التّامّ ما بين القوّتَيْن. وكما هي العادة في مثل هذه الحالات، فقد أَوْقَفَتْ الشرطة عدداً من أرباب السوابق، مُستثنية من ذلك المفلسين ودائني الربا، وليس عددهم بقليل في البلدة. لكنّ جميع مَنْ أُوقِفوا عادوا إلى عوائلهم في غضون 48 ساعة فحسب. بدت الشرطة، ومعها مُخبروها وعَسَسُها جميعهم، وكأنّها تسير في طريق مظلم. في الغضون، كانت تُجرى الاستعدادات لإقامة جنازة الضّحيَّتَيْن بالأُبهة والإطار اللذَيْن يتناسبان والموقع الاجتماعي الذي كان القتيلان وعوائلهما يحتلّونه. وبسبب الضّجّة الإعلامية التي أثارها الحادث والأسى الكبير الذي أبداه سكّان البلدة، فقد قرّرت الشرطة تكريم الجنازة وتخليدها بشريط مصوّر، أعدّت له بسرّيّة تامّة، ولم يفلت أيٌّ من الذين حضروا الجنازة من عدسات الكاميرا، إلّا أنّ جميع الوجوه التي ظهرت في الشريط بدَتْ وكأنّها تقول للعدسة، للمصوّر وللمحقّقين. "أجل، أعلم بأنّكم هنا، لكنّكم تُضيّعون وقتكم هباءً، فوجهي وجه رجل شريف!".

وبالعودة إلى القتيلَيْن اللذَيْن حُملا على أكتاف الأقوى والأكثر متانة من بين زبائنهما، فقد كانا ثقيلَيْن للغاية، لأنّهما سُجّيا في تابوتَيْن من خشب الجوز الخالص المطعّم بنقوش برونزية. وفيما كانت الجنازة سائرة كان أصدقاء الصّيدليّ يتحاورن حول رسالة التهديد التي استلمها، مُتحرّين ونابشين في ماضي الصّيدليّ مانّو، مركّزين عزاءهم على الطبيب المسكين، الذي لم تكن له أيّة صلة بالموضوع، وقد دفع بالموت ثمن استسهاله مرافقة الصّيدليّ في رحلة الصيد، بالذات بعد استلام هذا الأخير لرسالة التهديد.

ومع شديد الاحترام للصّيدليّ، كانوا يفكّرون، الآن وقد نُفّذ التهديد، فلا بدّ أن يكون هناك سبب سلّح يد القاتل. ربمّا يكون سبباً غير معقول، أو أنّ التهديد انطلق من خطأ صغير وقديم، أو حتّى من خطأ غيرُ مُتعمّد اقترفتْهُ الضّحيّة في وقتٍ ما. كانت الرسالة واضحة وتقول. "ستموت بسبب ما اقترفتْ يداكَ .."، وإذاً فإنّ هناك خطيئةً ما، قد اقتُرِفَتْ، وهي بالتأكيد خطيئة قديمة، قديمةٌ جدّاً، اقترفها الصّيدليّ.

ثمّ، لا يُمكن الإقدام على قَتْل إنسان للاشيء (وفي هذه الحالة هما اثنان، الصّيدليّ والطبيب المسكين)، أيْ عندما تدفع العصبيّة المفاجِئة مثلاً شخصاً ما لقَتْل شخصٍ آخر، لأنّه، على سبيل المثال، تجاوزه بالسّيّارة، وكان واضحاً بأنّ هذه الجريمة أُعدّت ونُفّذت بدمٍ بارد وعلى رويّةٍ للانتقام من إهانة لا يُمكن أن تُنسى، واحدة من تلك الإهانات التي لا يُزيل مرور الزمن قروحها، أو بالأحرى يزيد مرور ذلك الوقت من إذكاء الغضب تجاهها. وما أكثر المجانين في يومنا هذا، أيْ نعم، أتّفق معكم. أولئك الذين يرتكز هوسهم على شخص واحد، ويتخيّلون بأنّه يُلاحقهم في الخفاء بشكلٍ متواصل، لكنْ، هل حقّاً بإمكاننا عَدّ هذه جريمة شخص مجنون؟ ناهيكَ عن أنّ طبيعة هذه الجريمة وتعقيداتها تفترض وجود مجنونَيْن على الأقلّ، وليس مجنوناً واحداً فحسب. ويعسُر حقّاً أن نتصوّر احتمال قيام أيّ اتّفاق ما بين مجنونَيْن اثنَيْن، ومن المؤكّد أنّ مَن أقدم على القَتْل كانا شخصَيْن، لا شخصاً واحداً. إذْ ليس من المعقول أن يواجه شخصٌ واحد بمفرده صيّادَيْن مسلّحَيْن، كانت بندُقيّتاهما مُعمّرَتَيْن بالرصاص في تلك اللحظة وسبّابتاهما على الزناد. كان القتيلان مصوِّبَيْن جيّدَيْن لا

يُخطئان الهدف. لكنّ ما يُمكن أن يَقْرُبَ إلى الجنون فعلاً هو رسالة التهديد. فلماذا قرّر القاتل توجيه التهديد؟ ماذا لو أن الصّيدليّ خشي التهديد، وقرّر الإقلاع عن القيام برحلة الصيد؟ بعد أن يكون قد أدرك الخطيئة التي كان قد اقترفها بالفعل، أوَلَمْ يكن لذلك أن يُخفِقَ خطّة القاتل؟

- رسالة التهديد - قال كاتب العدل بيكوريلا - هي رسالة تقليدية في حوادث جرائم الانتقام للغَيْرة أو الخيانة الزّوجيّة. وأيّاً تكُن المخاطر، فإن المُنتقم يرغب في جعل ضحيّته تشعر بالموت منذ لحظة استلام التهديد، وأن تعيش في ظلّ الشعور بالإثم.

- لكنّ الصّيدليّ لم يشعر بذلك الرعب إطلاقاً - قال البرفيسور لاورانا - ربّما كان يشعرُ بقلق ما في ليلة استلام الرسالة، لكنّه صار، فيما بعد ذلك، يهزأُ منها، ويُمازح الآخرين حولها، وكان هادئاً تماماً.

- وما الذي أدراكَ بما تُخفيه النفوس؟ - قال كاتب العدل.

- ولماذا كان عليه إخفاء ذلك؟ بل، والحالة هذه، ينبغي امتلاك بعض الريبة والشّكّ حول هويّة المُرسِل، هذا هو الشيء الأمثل الذي كان عليه أن يفعله ...

... ربّما كان عليه إعلام أصدقائه أو العريف الأول - أكمل كاتب العدل جملةَ البروفيسور بنبرة ساخرة.

ولِمَ لا؟

لكنْ، يا صديقي العزيز - قال كاتب العدل بنبرة مندهشة ومؤنّبة

بلطف، في آن - أبإمكانكَ أن تتخيّل، أنتَ، الصّيدليّ مانّو في لحظة انتشاء، لحظة غرام أو ضعف، أو حتّى في لحظة جنون. أوَلَسْنا جميعنا رجالاً؟ - نظر حواليْه كَمَنْ يبحث عن تأييد مُجالسيه لكلامه - صيدليّة، ترتادها النساء أكثر مما يرتادها الرجال، كثرٌ من الناس يعتبرون الصّيدليّ أحياناً بمثابة الطبيب ... ما أعنيه، بتحصيل الحاصل، فقد تُحَوِّلُ بعض الفُرص المُتاحة الإنسانَ العفيفَ إلى لصٍّ(*)، امرأة شابّة ... فتاة ما .. بطبيعة الحال لا أعني بأن المرحوم كان من هذا النوع من الرجال، لكنْ، هل بإمكانكم أن تؤدّوا القَسَمَ على ذلك؟

- لا أحد - قال دون لويجي كورڤايا -

- هذا بالضبط. واصل كاتب العدل: وربّما بإمكاني الجزم أيضاً ببعض مفردات الشّكّ ... فلنتصارح. أوَلَمْ يكن زواج المرحوم عبارة عن صفقة مصالح؟ يكفي أن نُلقي نظرة على زوجته المسكينة، امرأة طيّبة القلب للغاية، ذات مناقب رائعة، وذلك هو كلّ ما وهبها الرّبّ ...

- كان هو سليلَ أصولٍ فقيرة - قال دون لويجي - وكجميع مَنْ كانوا فقراء، فقد كان جَشِعاً وبخيلاً، بالذات في أيّام الشباب ... ومن ثمّ تغيّر، في الظاهر فحسب، ما بعد الزواج وعلى إثر تحقيق صيدليّته مدخولاً جيّداً.

- أجل، تماماً، في الظاهر، بينما كان، في الواقع، إنساناً منغلقاً

---

*) ما يذكره كاتب العدل هو مثلٌ شعبي، ويؤشّر لمقدار صعوبة بقاء الإنسان عفيفَ النّفْس إزاء المُغريات، لكنّه، أي ذلك المثل، يُظهر التّغيّر الحاصل في نبرة أصدقاء الصّيدليّ القتيل، والذين ابتدؤوا بالتلميح إلى بعض من الخطايا المتوقّعة لديه.

وقاسياً ... وحتّى لا نبتعد عن جوهر الموضوع، أوَتذكرون سلوكه عندما كانت أحاديثنا تدور حول المرأة؟

وحصل سؤال كاتب العدل على إجابة سريعة وعاجلة من دون لويجي - كان يظلّ صامتاً ولا يفوه بكلمة.

- هذا بالذات، فلنتصارح ولنعترف. نحن معتادون على تجاذب أطراف الحديث عن النساء... هل تتذكّرونه في بعض الحالات وهو يُطلق ابتسامةً تبدو وكأنها تقول "أنتُم تواصلون الثرثرة، أمّا أنا، فأفعل"، ثمّ ينبغي ألّا نتناسى أبداً بأنّه كان رجلاً وسيماً.

- ما تقوله، يا عزيزي كاتب العدل، لا يُثبِّت أيّ شيء - قال البروفيسور - وحتّى لو افترضنا جدلاً بأن الصّيدليّ راود فتاةً ما عن نفسها، أو أنّه تحرّش بزوجة أحدهم، وبافتراض أنّ للُغةِ النميمة والقصص الشّعبيّة قدرةً ما على الإقناع، أو أنّ ما تذهب إليه على قَدْرته على الإقناع، فإنّ السؤال يظلّ قائماً عن أسباب عدم إفصاح الصّيدليّ للعريف الأول عن شكوكه وريبِه حول الهويّة المحتملة لكاتب الرسالة.

- لأنّ البعض، في خيارهم ما بين فقدان السلام العائلي والعثور على السلام الخالد، يختارون السلام الخالد، ولننتهِ من هذا الحديث الآن - تدخّل الكومّينداتور(*) زيرّيلّو، بسحنة مَنْ يشعر بالأسى لعدم اتّخاذه قرار السلام الخالد، حتّى تلك اللحظة.

---

*) الكومّينداتور: بالإيطالية Commendatore وهو القائد. وهي رتبة عسكرية من رتب الفروسية وينحدر من المراتب العسكرية الدينية القديمة. ويكون الكومّينداتور في مقام بين الفارس، وفارس الصليب العظيم. الآن يُمنح هذا اللقب شرفياً لمنْ يحقّق إنجازات كبيرة سواء في الجيش أو الأمن.

- لكن العريف الأول، وبقَدْرٍ من اللياقة ... - بدأ البروفيسور لاورانا بالاعتراض.

- كفاكَ ترديداً للسذاجات. قطع كاتب العدل الطريق أمامه، وأضاف: اعذرني، سأشرح لكَ ذلك فيما بعد. وكان الموكب قد وصل إلى مدخل المحراب الكَنَسيّ المُقام في المقبرة، وحيث كان المُشيِّعون سيبدؤون بإلقاء كلماتهم في وداع الراحِلَيْن. وبالفعل فقد كُلّف كاتب العدل بإلقاء الكلمة الوداعية الخاصّة بالصّيدليّ.

ولم يحتج البروفيسور إلى شروح كاتب العدل، فقد تفوه بالكثير من السذاجات خلال تلك الكلمة.

كان المفتّش العامّ للشرطة قد دعا، منذ الليلة الفائتة، زوجة الصّيدليّ بلُطفٍ ولياقة بأن تتذكّر وتتأمّل في ما إذا كان قد لاح لديها ظلٌّ ما، ظلٌّ من الشّكّ، ليس حول ما إذا كان لزوجها علاقات خارج إطار الزّوجيّة أو أنّه كان يخونها بشكلٍ عابر، بل ما إذا كانت هناك امرأة ما كانت تُحاصر زوجها، تُراوِده عن نفسه أو أنّها كانت ترتاد الصّيدليّة لمرّات عديدة. كان مُفتّش الشرطة يبحث لدى زوجة الصّيدليّ عن بعض الانطباعات، وكانت كافية لإقناعه. إلّا أنّ ردّ السّيّدة في هذا الإطار جاء بالنّفْي القاطع. لم يستسلم المفتّش إلى ذلك الرّدّ، ولم يقتنع به، وطلب استدعاء خادمتها إلى مركز الشرطة، واستجوبها بشكلٍ أبويّ لما يزيد على ستّ ساعات، تمكّن بعدها من اقتناص تأكيد واهٍ، إذْ قالت نعم، في مرّة من المرّات حدثت مشكلة في العائلة حول فتاة، كانت السيّدة ترى أنّها ترتاد الصّيدليّة لمرّات عديدة (وكانت الصّيدليّة في الطابق الأرضي للمنزل، ومن السهل

للسّيّدة مراقبة الوضع في كلّ مرّة كانت تشعر بالرغبة إلى ذلك، وأن تعسّ على الداخلين إلى الصّيدليّة والخارجين منها).

سؤال: وماذا عن الصّيدليّ؟

جواب: كان ينفي ذلك كلّه.

سؤال: وأنتُم ما الذي ترون في هذه الحالة؟

جواب: أنا؟ وما دخلي أنا في هذا الأمر؟

سؤال: هل كانت لديكم شكوك السيّدة ذاتها؟

جواب: لم تكن لدى السّيّدة شكوك. كانت تعتقد بأن تلك الفتاة حيويّة للغاية، وبأن الرجل ليس إلّا ذَكَراً.

سؤال: كانت حيويّة للغاية، وجميلة للغاية، أليس كذلك؟

جواب: برأيي هي ليست جميلة للغاية، بل حيويّة للغاية.

سؤال: هل كانت حيويّة، أم متغنّجة، أو بالأحرى نزقة؟ هل تعنين هذا؟

جواب: نعم.

سؤال: وما اسم هذه الفتاة؟

جواب: لا أعرف. ثم وبنبرة مختلفة: لا أعرفها، لم أرهَا أبداً، رأيتُها مرّة واحدة فحسب، ولا أتذكّرها.

واستمرّ التحقيق مع الخادمة من الثانية والنصف ما بعد الظهر وحتّى السابعة والربع مساءً، أي إلى الساعة التي شهدت فيها ذاكرة

الخادمة حيويّة مُفاجِئة، مكّنتْها ليس من تذكُّر اسم الفتاة فحسب، بل أيضاً سنيّ عمرها واسم الشارع الذي تقطن فيه ورَقْم منزلها، ناهيكَ عن أقاربها حتّى خامس جد وعدداً آخر من الأخبار التي تخصّ الفتاة المَعنيّة.

ولذا، فقد كانت الفتاة تجلس في السابعة والنصف في مواجهة مفتّش الشرطة، جاءت برفقة والدها الذي أُجبر على الانتظار أمام باب المركز. وفي الساعة التاسعة مساءً كانت أُمّ خطيب الفتاة تلج بيتها برفقة اثنَتَيْن من صديقاتها، لتُعيد إلى عائلة الفتاة ساعة يدويّة وحلقة مفاتيح وربطة عنق واثنَتَي عشرة رسالة، وطالبت باستعادة خاتمٍ وسوارٍ وحجاب الوجه الذي يُستخدَم خلال إقامة القُدّاس في الكنيسة واثنَتَي عشرة رسالة. سارت الأمور بعُجالة ودون كلمات، وأنهت، دونما رجعة، الخطوبة بين الفتاة وابن العجوز التي أطلقت حكمها النّهائيّ قائلة لعائلة الفتاة - فلتبحثوا عن أحمق آخر - مُؤكّدة بذلك، بشكل غير مباشر، بأنّ ابنها ليس إلّا شاباً أحمقاً، استسهل وتسرّع بوضع شرفه بين يَدَي مَنْ كانت على علاقة آثمة مع الصّيدليّ. وتسبّبت تلك التلميحات لوالدة الفتاة والأقارب، الذين كانوا قد وصلوا إلى البيت، بالكثير من الألم والغضب وكذلك بالعار. غادرت العجوز برفقة صديقَتَيْها على عجل، قبل أن تستعيد عائلة الفتاة رشدها، وتنتفض لتردّ على تلك الشتائم. ولمجرّد بلوغها الشارع، صرخت المرأة بشكل يُتيح لجيران عائلة الفتاة الاستماع - رُبّ ضارّة نافعة! أوَلَمْ يكن بمقدورهم أن يقتلوه قبل أن يَلِجَ ابني باب هذا المنزل؟ - وكانت، بطبيعة الحال تُشير إلى الصّيدليّ.

وبذا حظي الراحل بخطاب الوداع الثاني في ذلك اليوم.

3

عبر كومة من الوصفات الطّبّيّة والشهادات التي كان الطبيب قد كتبها، أدرك مفتّش الشرطة بأن السبب الرئيس لارتياد الفتاة المتواصل للصّيدليّة كان نتيجة لمرض السحايا الذي أصاب شقيقها الأصغر والبالغ أحد عشر عاماً. وكانت علائم المرض ما تزال بادية على الصّبيّ. مظهرٌ متبلّد ومذعور، فراغٌ في الذاكرة، وعجز عن التعبير في الكلام. وبما أنّ والدها كان فلاحاً يقضي جُلّ نهاره في الحقل، ولم تكن الأُمّ تغادر المنزل أبداً، فقد وقع على عاتق الفتاة أن تحصل على الوصفات الطّبّيّة، وأن تستفسر من الطبيب المُعالج عن العلاجات لشقيقها. وكانت بالفعل الأكثر حيوية وتعليماً في عائلتها. وبطبيعة الحال، جرى أيضاً استجواب والد الفتاة وخطيبها السابق. لكنْ، بشكل سطحي، ولغرض إغلاق هذا الفرع من التحقيقات.

وبعد أن تمكّنت الفتاة المسكينة من إقناع الشرطة، بقيت أمامها المهمّة الأعسر، أي إقناع سكّان البلدة بكاملها والبالغ عددهم 7500 نسمة، بمَنْ فيهم أفراد عائلتها، والذين، كتحصيلٍ حاصل، انهالوا عليها، بصمت وعنف وحزم، بالضرب المُبرّح، مباشرة إِثْرَ إخلاء سبيلها من قِبَلِ مُفتّش الشرطة بعد التحقيق.

كانت السّيّدة تيريزا سپانو، أرملة مانّو، قد أخرجت صور

الصّيدليّ جميعها، لتختار من بينها واحدة، كي تُوضَع على شاهدة قبر زوجها، وكانت ترى في كلّ واحدة منها زوجها الوسيم والهادئ، بابتسامة لم تَخْلُ من قَدْرٍ من المكر منطبعة على شَفَتَيْه، كما لاحظت في عينَيْه ضياءً بارداً وهازئاً. وهكذا كانت شخصيّة الصّيدليّ تخضع إلى مسخٍ حقيقي تحت سقف الزّوجيّة الذي تقاسمتْهُ المرأة وإيّاه لخمس عشرة سنة كقرينٍ وَفيٍّ وأبٍ مثاليّ. كانت الشكوك تُعذِّب المرأة حتّى في أحلامها، حيث كان الزوج يتبدّى لها في المرآة عارياً مثل دودة، أو مثل دُمية خشبيّة مُفكّكة الأطراف والأجزاء، وليغيب بعد ذلك في اللاشيء بسرعة خارقة. كانت تفيق من نومها مفزوعة، لتدور في المنزل، ولتنظر إلى صورة زوجها مستجوبةً إيّاها. ويُخيّلُ لها في بعض الأحيان بأنّ الصورة تردّ على تساؤلاتها ممّا وراء حاجز الموت، وتُعلمها بأن كلّ شيءٍ قد مات وبأنّه، أي الصّيدليّ، ما عاد مَعنيّاً بأيّ شيء؛ وفي أحيانٍ أخرى كان يبدو وكأنّه يقول لها بأنّه لم يكن مَعنيّاً في شيءٍ بالذات من الحياة النزقة التي تتواصل.

وكان غضب أقاربها أكبر من غضب المرأة نفسها، فقد عادوا إلى تأنيبها بسبب اقترانها بالصّيدليّ، بعد أن حاولوا في البدء، بشتّى الوسائل، ثَنْيَها عن الزواج منه، لمعارضتهم ذلك القران.

أمّا أقارب الصّيدليّ، فقد وقفوا على هامش الجنازة الفخمة، بالضبط كما كانوا قد وقفوا بعيدين عن الحياة المرفّهة والهادئة التي عاشها قريبهم، وكانوا على استعداد للاقتناع بأنّ حادث القتل كان قَدَراً مكتوباً لا مهرب منه. فمهما تَغيّر وضعكَ الاجتماعي، واعتقدتَ

بأنّكَ امتلكتَ المال والسعادة، فها أنتَ تتواجه مع الألم والعار والموت الذي يُلاقيكَ على حين غِرَّة(*).

وبرغم غياب أيّ مُعطى مفيد للتحقيقات، باستثناء عُقْبِ سيغارٍ عُثر عليه في مكان الحادث، والذي افترض المحقّقون بأنّ أحد القَتَلَة دخّنه خلال ساعات الانتظار الطويلة قُبيل تنفيذ الجريمة، لم يكن هناك من أحدٍ بين سكّان البلدة، إلّا واقتنع بالعثور، بمفرده وفي سرّه، على حلٍّ لذلك اللُّغز؛ أو دون أن يكون هناك أحدٌ إلّا وقد عَدّ نفسه مالكاً لمفتاح قراءة ذلك اللغز وفكّ رموزه.

وكان لدى البروفيسور لاورانا أيضاً مفتاحه الخاصّ. وكان يراه ذا صلة بكلمة Unicuique التي تمكّن من قراءتها بلمح البصر، وبالصدفة البحتة على ظهر الرسالة التي استلمها الصّيدليّ. كانت تلك الكلمة تظهر واضحة في ضوء مصباح الصّيدليّة إلى جانب كلمات، أخرى نسيها الآن. لم يكن واثقاً ما إذا سمع ضابط صفّ الدرك نصيحته بالنظر إلى ظهر الورقة، أو ما إذا كانت الشرطة قد فحصت الرسالة بجميع أوجهها خلال التحقيقات والتّحرّيات والفَحْص التي أجرتْها في مختبراتها. وهي، برأيه، تحقيقات لم تكن لتَسْتَقيمَ دون أن تكون كلمة Unicuique في صُلب اهتمام الشرطة. وعلى أيّة حال، لم يكن على ثقةٍ مُطلقة في داخله من أنّ الشرطة أخذت بنصيحته على محملٍ من الجدّ، أو أنّهم وجدوا في الرسالة، بعد فَحْصها، على ما تحتويه من أهمّيّة كمُثبت جُرمي. وكان البروفيسور لاورانا، في هذه الحالة، على قَدْرٍ من المكابرة والزهو بالذات، إذْ اعتقدَ بأنّ جميع

*) هنا يُسجّل الكاتب المغزى الصّقليّ لمفردة القدر، فمَنْ يحاول، برأيهم، الهرب من ذلك القَدَر، فإنّه سيدفع الثمن بحياته.

مَنْ سيتعاملون مع هذا الملفّ سيعجزون عن التغلغل إلى مكنونات غموضٍ، يتسّم بالجلاء في الظاهر، أو أمرٍ جليٍّ وواضحٍ وضوح الشمس تلفّع بالغموض. ولكون ذلك السّرّ مُكتظّاً بالتناقضات، فإنّ إماطة اللثام عنه سيحتاج، بالتأكيد، إلى عقلٍ حرٍّ ويَقِظ كعقله.

وهكذا دفعة غروره إلى الإقدام على الخطوة الأولى. كان معتاداً أن يمرّ في كل مساء بكشك الصحف، ودون تخطيط مُسبّق لذلك، طلب من البائع نسخة من جريدة "أوسّيرڤاتوري رومانو"(*). وأدْهَشَ طلب البروفيسور بائعَ الصحف. لأن البروفيسور كان شهيراً، دونما سببٍ واضح، بكونه واحداً من أشدّ مناهضي سلطة الكهنوت، ودُهش بائع الصحف أيضاً، لأنّ ما من أحد طلب منه تلك الجريدة منذ ما يربو على عشرين سنة. وقد قالها، مُثيراً لدى البروفيسور خفقة حبور - لم أسمع منذ ما يربو على عشرين سنة أحداً يطلب منّي الـ أوسّيرڤاتوري . كان البعض يقرأ تلك الجريدة خلال الحرب، وكانت تصل إليّ خمس نسخٍ منها. لكنْ، حدث أن جاءني سكرتير "الفاشّو"(**) مرّة، وطلب منّي إلغاء اشتراكي بهذه الجريدة، وإلاّ فإنّه كان سيعمل على إلغاء تصريحي لبيع الصحف ... فَمَنْ يُمسك بمقاليد الحكم، يا عزيزي، هو مَنْ يضع القوانين. وأنتَ ما الذي كنتَ ستفعل لو كنتَ مكاني؟

- كنتُ سأفعل ما فعلتَ أنتَ بالضبط - قال البروفيسور.

(*) Osservatore Romano الجريدة المركزية الناطقة باسم حاضرة الفاتيكان.

(**) Il Fascio ، أي اللجنة المناطقيّة للحزب الفاشي الذي أسّسه الديكتاتور بينيتو موسّوليني في عام 1922 وحكم به إيطاليا، وأدخلها في دهليز الحرب العالمية الثانية. والفاشّو، بمعناها الحرْفيّ تعني الحُزمة، وكانت رمزاً للحزب الفاشي، ومكوّنة من مجموعة الأعواد المضمومة في حزمة، يبرز في وسطها عودٌ أكثر عتمة. كانت رمزاً رومانياً، فاستخدمها موسّوليني كرمز القوّة لحكمه وحكم حزبه.

"وإذاً، فلا أحد طلب من بائع الصحف جريدة أوسيرڤاتوري، ولربّما كان العريف الأول للدرك يعلم بعدم وجود تلك الجريدة في الكشك. لذا ينبغي إجراء المحاولة مع موظّف البريد أو مع موزّع الرسائل".

كان موظّف البريد شخصاً طليق اللسان ومهذاراً، وكان صديقاً للجميع. ولم يحتجْ البروفيسور إلّا إلى القليل من الوقت للحصول على المعلومة التي يبحث عنها - أشتغل الآن في مادّة عن مانزوني(*) وقد أخبرني أحدهم عن مقال هامّ نُشر في جريدة أوسّيرڤاتوري رومانو، قبل خمسة عشر أو عشرين يوماً. فهل هناك أحدٌ في البلدة تصله هذه الجريدة؟

كان معروفاً في البلدة بأن البروفيسور يكتب، بين الحين والآخر، مقالات نقدية وينشرها في المجلّات. لذا فقد أقدم موظّف البريد على إعطائه المعلومات التي طلبها دونما تردّد (وكان سيمتنع عن منحه تلك المعلومات، أو أنّه كان سيُقتّر فيها، لو أنّ الشرطة أيضاً طرحت عليه السؤال ذاته) - تصلنا نسختان. إحداها للراهب الأكبر، والأخرى لراهب كنيسة سانت آنّا.

- ولا تصل أيّة نسخة إلى الحزب الدّيموقراطيّ المسيحي؟

- كلّا.

- ولا حتّى إلى سكرتير الحزب؟

- نسختان فحسب، بإمكانكَ الاطمئنان إلى معلومتي- وفسّر بائع

(*) Alessandro Manzoni آليسّاندرو مانزوني، المولود في عام 1785 وهو أحد أبرز كتّاب الإيطالية، ومن بين أعماله "الموعودان بالزواج"، أو "المخطوبان".

الصحف إلحاح البروفيسور على معرفة ما إذا كان آخرون يستلمون تلك الجريدة كعجزٍ في قدرته على التعامل مع الرهبان، لذا فقد نصحه قائلاً - اذهبْ إلى راهب كنيسة سانت آنّا، وإذا ما كانت لديه نسخة الجريدة التي تبحث عنها، فسيُعطيكَ إيّاها بالتأكيد.

واتّبَعَ البرفيسور نصيحة موظّف البريد في الحال. كانت كنيسة سانت آنّا تقع على بُعد خطوَتَيْن من دائرة البريد، وكان منزل الراهب لصيقاً بأحد جوانبها. كانت علاقته مع الراهب ودّيّة. وكان رجلاً متحرّراً، يبغضه رؤساؤه، ومحبوباً من قبَل الناس (لكنّ رؤساءَه كانوا على حقّ).

استقبل الراهبُ البروفيسور بذراعَيْن مفتوحَتَيْن؛ وعندما أفصح لاورانا عن سبب الزيارة، عَلَتْ سحنته تعابير كَدَرٍ وأسى، وقال بأنّه يستلم الجريدة، بفعل الاعتياد والكسل، وبأنّه كان سيلغي اشتراكه، لولا خشيته من رأي الآخرين، سيّما وأن مَنْ سبقه في الموقع هو مَنْ سجّل ذلك الاشتراك؛ - لكنْ، بقَدْر ما يتعلّق الأمر بقراءة تلك الجريدة، فلنترك الأمر ... لم أقرأها أبداً، وحتّى إنّني لم أفتحها وأعتقد بأن خادم الكنيسة يأخذها دائماً. هل تعرفه؟ إنّه ذلك الراهب الشّابّ، النحيف الذي لا ينظر أبداً في عيون الآخرين. إنّه بليد، وهو جاسوسٌ أيضاً. وقد ألصقوه بي لهذا السبب بالذات. هو، نعم، يقرأ تلك الجريدة. ولربّما يحتفظ بها أيضاً. إذا كنتَ راغباً بإمكاني أن أتّصل به هاتفيّاً.

- أكون شاكراً لكم لو فعلتَ ..

- في الحال - قال الراهب، ورفع سمّاعة الهاتف، وطلب تحويله

على الرَّقْم. ولمجرّد ربطه بالرجل سأله بشكل عنيف - هل قدّمتَ تقريركَ اليومي إلى رئيس القساوسة؟ - وغمز بعينه للبروفيسور، وصار يُلاعب سمّاعة الهاتف التي يصدر منها صوت الآخر، والذي نفى بالقطع ما قاله مسؤوله. وثمّ - وعلى أيّة حال لا يعنيني ذلك، وليس هذا ما هاتفتُكَ من أجله. اسمعني جيّداً. ما الذي تفعله بنسخ جريدة أوسّيرڤاتوري رومانو، التي تسرقها منّي؟ - احتجاجات أُخرى، وأدها الراهب في الحال - كلّا، في هذه المرّة كنت أُمازحكَ .. هيّا، أخبرني، ما الذي تفعل بها؟ ... تحتفظ بالنسخ؟ ... برافو، برافو ... انتظر دقيقة واحدة، سأُخبركَ أيّ الأعداد التي أحتاج إليها، ليس لي بالطبع، بل لصديق، وهو بروفيسور ... ما هي الأعداد تحتاج إليها؟

- لا أعرف تاريخ العدد بالضبط. بإمكاني القول بأن المقالة التي أبحث عنها ربمّا نُشِرت ما بين الأوّل من شهر تمّوز والخامس عشر من آب.

- حسنٌ جدًّاً ... اسمعني. هل لديكَ جميع الأعداد من الأوّل من تمّوز وحتّى الخامس عشر من آب؟ ... عليكَ أن تتحقّق؟ تحقَّقْ إذاً، وحاول أن ترى ما إذا نُشِرت في أحد الأعداد مقالة عن مانزوني ... تحقَّقْ بشكلٍ جيّد، واتّصل بي لتُعلِمني - وضع السمّاعة في مكانها، وشرح للبروفيسور - سيقوم هو بعملية البحث. وإذا ما عثر على المقالة، سأطلب منه أن يحمل إليّ العدد يوم غد. وهكذا ستوفّر على نفسكَ قرف اللقاء به. إنّه كائن قذر.

- حقًّاً؟

- صدِّقني، تحتاج إلى أمعاء صلدة حين تجده أمامكَ. وبرأيي

فإنّه مشوَّه الأخلاق أيضاً. أتُدرك ما أعني ...؟ أنا أستمتع بمنظره حين أحشره ما بين الفتيات ... إنّه يُعاني، ذلك التعيس، يُعاني. وينتقم منهنّ. أنا، كما تعلم، أمضي في حياتي، في المسار الصحيح ... هل سمعتَ أبداً عن النكتة التي تتردّد عن الراهبة الشّابّة، وعن التحقيقات التي أمر بها الأسقف...؟ لا؟ سأرويها لكَ إذاً. وستكون هذه هي المرّة الوحيدة التي ستستمع فيها إلى نكتة عن الرهبان مَرويّة من قبَل راهب ... وإذاً، يذهب البعض ليُفشي إلى الأسقف سرّاً في أنّ لدى راهبٍ في إحدى البلدات مُدبّرةُ منزل أصغرُ سنّاً ممّا هو مسموحٌ به، وكما يقول مانزوني (والشيءُ بالشيءِ يُذكَر) "أدنى من السّنّ السينودالي"،(*) وبأنّها تنام إلى جواره في الفراش، في الفراش ذاته الذي ينام فيه هو. وبطبيعة الحال، يهرع الأسقف إلى البلدة، ويتوجّه في الحال إلى دار الراهب، ويرى أمامه راهبةً شابّة على قَدْرٍ لا بأس به من الجمال، ويجد في غرفة النوم سريراً واسعاً لشخصَيْن، ونصف. يواجه الأسقفُ الراهبَ بالاتّهامات، فلا ينفي الأخير ما يُتّهم به. "صحيح"، يقول للأسقف "نعم، وهي تنام على هذا الجانب، بينما أنا أنام على الجانب الآخر قرب الجدار، كما ترى فإنّ ما بين المكانَيْن عددٌ من المساند. وإلى هذه المساند أربط كلّ مساء، قبل الخلود إلى النوم، لوحاً خشبياً سميكاً مثل الحائط"، ويُري الأسقف اللوح الخشبي بالفعل. تزداد سماحته، ويندهش من نزاهة وصفاء نيّة الراهب. ويتذكّر بعض القدّيسين الذين كانوا ينامون إلى جوار نساء واضعينَ الصليب أو سيفاً فيما بينهم والمرأة، ويقول للراهب بعذوبة

(*) Sinodale ، أو ما سمح به سينودوس الكنيسة الذي عُقد في مدينة ترينتو الشّماليّة الإيطاليّة للفترة 1545 - 1563 والذي قرّر بأنّ الراهبة التي تخدم في منازل القسس ينبغي أن تكون أعمارهنّ قد تجاوزت الأربعين. وهو ما اصطُلح عليه فيما بعد بـ "العمر السينودالي".

أبويّة "يا بُني، نعم، لوح الخشب موجودٌ، وهو دون شكّ وقايةٌ، لكنْ، ماذا عن الشهوة، إذا ما اجتاحتْكَ عارمةً، غاضبة وجحيمية كما هي؟ فماذا أنتَ فاعلٌ في تلك الحالة، عندما تجتاحكَ الشهوة؟"، "أوه، يا صاحب النيافة"، يُجيب الراهب "لن يحتاج الأمر إلى جهد كبير. إذّاك أُزيل الحاجز الخشبي".

واستغلّ الراهب صبر لاورانا، فروى نكاتاً أخرى عن الرهبان قبل وصول المكالمة الهاتفيّة من زميله الأكثر شباباً. كان قد تأكّد من وجود أعداد الجريدة. كانت جميع الأعداد من الأوّل تمّوز وحتّى الخامس عشر من آب موجودة لديه؛ لكنّه لم يعثر على المقالة الخاصّة بآليسّاندرو مانزوني.

- أنا آسف لذلك - قال الراهب - لكنْ، ربمّا أخفق في البحث عنها، إنه أحمق بليد، ربمّا من الأفضل أن تذهب بنفسكَ للاطّلاع على الجرائد، لتتأكّد من الأمر. أم أنّكَ ترغب في أن أطلب منه إحضارها إليّ هنا؟

- لا. شكراً، ربمّا يتسبّب ذلك في إزعاج. ثمّ ليست هذه المقالة أمراً لا غنى عنه بالنسبة إليّ.

- بالتأكيد. لقد مرّت علينا قرون ونحن عاجزون عن قول ما لا غنى عنه ... وعن مانزوني بالذات، هل بإمكانكَ أن تتصوّر ما الذي يمكن أن يقوله كاتبٌ كاثوليكي عن مانزوني، ثمّة حاجة إلى كاتبٍ مُتحرّر من القيود، ولكي يتمكّن كاتبٌ ما من استيعاب فكر مانزوني، وأن يُحبّه، ينبغي أن يكون مُتحرّراً بحقّ، وبكل المعنى الحقيقي والمعاصر للكلمة.

- ومع ذلك فصفحات بعض الكاثوليكيّيْن عن مانزوني مستنيرة للغاية.

- أعرف تلك الصفحات ... أو بالأحرى أقول لكَ بأن كلّ ما كُتب عن مانزوني من نقد كان بقلم كتّاب كاثوليكيّيْن. مع بعض الاستثناءات. وإذا ما توخّينا الدّقّة، فهي ليست كتابات على قدرٍ عالٍ من الذكاء والفطنة ... هل تعلم متى يتمّ الاقتراب من صُلب الموضوع وإلى مركز انطلاق حِمم البركان؟ عندما يمسّ موضوع الحديث صمتَ الحبّ ... لكنْ، لنترك ذلك ... أرغب في أنْ أُريكَ شيئاً، لأنّني أعلم بأنّكَ ستعرف قيمته - وتوجّه إلى أحد الدواليب في الجدار، وفتحه، وأخرج تمثالاً صغيرا للقدّيس روكّو بطول كفٍّ واحد - انظرْ إلى هذا التمثال. راقب الحركة والرشاقة التي نُحِت بها ... هل تعلم كيف حصلتُ عليه؟ عثر عليه زميل لي في بلدة قريبة من هنا في دولاب قديم رُمي في الشارع كقمامة، لقد اشتريتُ له تمثالاً جديداً للقدّيس روكّو صُنع بالورق المُصَمّغ. عَدَّني مهووساً، أو شخصاً يسعى وراء التّحفيّات القديمة. وكان يشعر بقَدْرٍ من الحيف في أن يربح الكثير في عملية المقايضة هذه.

كان الراهب مشهوراً في البلدة بكونه عارفاً دقيقاً وجشعاً للقِطَع الفنّيَّة والتُّحف القديمة، وكان معروفاً أيضاً أنّه كان على علاقة تجاريّة مُربحة ونشيطة مع تاجر لهذه التحف في پاليرمو. وبالفعل عرض على لاورانا تمثال القدّيس روكّو من الجوانب جميعها - لقد شاهده مَعنيّون كُثُر، وهم يعرضون عليّ الآن مبلغ ثلاثمائة ألف ليرة. لكنّي قرّرتُ الاستمتاع به حالياً وحدي، إذْ ما يزال الوقت مُبكّراً لأن ينتهي

كتُحفةٍ في منزل واحدٍ من سُرّاق المال العامّ ... ما رأيكَ؟ إنّه تمثال يعود إلى النصف الأوّل من القرن السادس عشر، أليس كذلك؟

- أعتقد أنّكَ على حقّ.

- وهذا هو أيضاً رأي البروفيسور دي رينزيس. وهو مرجِعٌ حقيقي لكلّ ما يتعلّق بالنحت الصّقليّ في القرنَيْن الخامس والسادس عشر ... لكنّ رأيه - وهنا اندفع الراهب بضحكة مُدوّية - يتطابق دائماً مع رأيي أنا. بما أنّني أدفع له أجراً.

- أنتَ لا تؤمن بأيّ شيء - قال البروفيسور.

- أوه، نعم، بالتأكيد، أؤمن بشيءٍ ما. وربمّا بأشياء كثيرة، إذا أخذنا في الاعتبار الزمن الذي نجتازه.

وكان أهل البلدة على معرفةٍ بنادرة من نوادر هذا الراهب، وربمّا كانت حقيقيّة أيضاً، ويقولون بأنّه كان يُقيم القُدّاس في مرّة من المرّات، وفي محاولته فَتْح بيت القربان، عَصيَ المفتاح في خُرم القفل؛ ولدى محاولته المخفقة في فتح الصندوق خرجت من فمه جملة "أيّ شيطان يسكن فيه؟"، وكان يعني في خُرم القفل، لكنّه أمرٌ مُثير للدهشة والاستغراب أن تُنطق تلك الجملة داخل كنيسة. وخلاصة القول فإنّ الراهب كان كثير الاستسهال في الأمور الخاصّة بالكنيسة، وكان دائم التجوال للمتاجرة وعقد الصفقات السّرّيّة الغامضة.

- لكنْ، عذراً، ثمّة شيءٌ أعجز عن إدراكه ... - بدأ البروفيسور.

- تريد أن تسألني لماذا أواصل ارتداء هذه الجُبّة؟ ... بإمكاني

أن أُخبركَ بأنّني لم أرتَدِيها بمحض إرادتي. لكنْ، ربمّا أنتَ تعرف القصّة، أحد أعمامي، وكان راهباً لهذه الكنيسة بالذات، وكان مُقرضاً بالرِّبا وثريّاً، وقد أورثني كل ما كان يملك، شريطة أن أكون راهباً. كان عمري ثلاث سنوات عندما مات هو، وفي عمر العاشرة عندما دخلتُ السيمينار الكاثوليكي، كنتُ أشعر بنفسي كما لو كنتُ القدّيس لويجي(*)، لكنّي عندما خرجتُ من السيمينار في الثانية والعشرين من العمر وقد أصبحت التجسيد الحَيّ لإبليس. وددتُ، لو كان بمقدوري، أن أهجر كلّ شيء. لكنْ، كان هناك الميراث، وكانت هناك أُمّي. أمّا اليوم، فلستُ مَعنيّاً حقّاً بما ورثتُ، وقد توفّيت أُمّي؛ بمقدوري الرحيل أيضاً ...

- لكنْ، هناك اتّفاق الكونكورداتو(**).

- في حالتي، وبرفقة وصيّة عمّي، لن تنال منّي مفردات ذلك الاتّفاق. فقد أصبحتُ راهباً بالإجبار، وليس عن قناعة، لذا فإنّهم سيُخلون سبيلي دون المساس بحقوقي المدنيّة ... لكنْ، إنْ أردتَ الحقيقة، فأنا أشعر بالارتياح داخل هذه الجُبّة؛ وما بين الارتياح والمناكفة تمكّنتُ من العثور على توازنٍ ما، عثرتُ على الانسجام، وعلى حياة مليئة.

- لكنْ، ألا تخشى من مواجهة بعض المشاكل؟

(*) San Luigi Cozaga ، القدّيس لويجي كونزاغا. عاش بين عامي 1568 و1592، وقد لُقّب بالاسم المثال "قدّيس الطُهْر".

(**) Il Concordato المعاهدة التي تُنظّم العلاقة ما بين الدولة الإيطالية وحاضرة الفاتيكان والموقّع في 11 فبراير 1929 في صالة البابوات في قصر لاتيرانو في روما. وقد صادق الدستور الجمهوري الإيطالي الذي دخل حيّز التنفيذ في الأوّل من يناير 1948 أيضاً على هذه المعاهدة.

- كلّا، على الإطلاق. وإذا ما حاولوا المساس بي بأيّ شكلٍ من الأشكال، فإنّي سأُطلق لهم فضيحة لا حدود لها، وستدفع تلك الفضيحة حتّى مراسلي "البراڤدا"(*) إلى المجيء إلى هنا والمكوث شهراً كاملاً على الأقلّ. فضيحة واحدة؟ ستكون سلسلة فضائح على شكل الألعاب النّاريّة.

وهكذا، بعد مسامرة ممتعة مع الراهب، خرج البروفيسور لاورانا من الكنيسة، وقد كانت الساعة تُشير إلى حوالي منتصف الليل. خرج من هناك مفعَماً بالتعاطف والإعجاب براهب كنيسة سانت آنّا، وبخفّة ظلّه.

"صقليّة، أو ربمّا إيطاليا بأسرها - قال لنفسه - مركّبتان من شخصيات كثيرة، مُحبّبة وخفيفة الظّلّ، وهي شخصيات تستحقّ قَطْع الرؤوس".

وكان قد أدرك بأنّ كلمة "Unicuique"، تلك التي قرأها في ظهر الرسالة، لم تكن لتأتي من نسخة جريدةٍ تصل إلى راهب كنيسة سانت آنّا، ولم تكن هذه النتيجة، على أيّة حال، أمراً يُستهان به.

---

*) الجريدة السّوفياتيّة الرّسميّة المعروفة.

4

مكتبة
t.me/t_pdf

انقضت أيّام الحِداد الثلاثة الرئيسة، وفيما كان متّجهاً إلى حيث يعمل الراهب الأقدم روزيلّو، ليستعير منه أعداد جريدة أوسّيرڤاتوري رومانو، ما بين الأوّل من تموّز والخامس عشر من آب، كان البروفيسور لاورانا مُقتنعاً بأنّه لم يكن يتجاوز العُرف والتقاليد. كان يُفترض أن يتضمّن عدد الجريدة المقال عن آليسّاندرو مانزوني، ولم يكن ليستغني عن ذلك المقال لإنجاز المادّة التي يُعدّها عن الكاتب لأسباب تتعلّق بعمله. كان الراهب الأقدم هو عمّ السيّدة زوجة الطبيب الدكتور روشو. وكان متعلّقاً بتلك الحفيدة، لأنها تربّت وعاشت في منزله حتّى يوم زواجها. وكان منزل الراهب الأقدم واسعاً للغاية، وكان يقوم على أرض واسعة من ملكيته. وكان يتقاسم المنزل، حتّى عشرين سنة خلت، مع شقيقَيْه المتزوِّجَيْن برفقة عائلَتَيْهما، اثنا عشر شخصاً كانوا يُشكّلون بأكملهم عائلة في منزل واحد، وكان الراهب الأقدم أكثر من مجرّد الأب الرّوحيّ لذلك المنزل. وقد فقد المنزل تسعة من سكّانه، إمّا بسبب الموت أو بسبب زيجات بعض الأحفاد، وبقي في المنزل أربعة أشخاص فحسب. فإلى جانب الراهب الأقدم، كانت هناك زوجتا شقيقَيْه وحفيدٌ واحد، وهو المحامي روزيلّو، وكان ما يزال أعزباً حتّى تلك اللحظة.

كان الراهب الأقدم في تلك اللحظة داخل محلّ إقامته في

الكنيسة، وعلى وشك أن يخلع عنه زيَّ القُدّاس. احتفى بحضور البروفيسور، وكأن السماء بعثت به إلى الكنيسة في ذلك اليوم. وبعد عشر دقائق من الحفاوة والترحيب، انتهى بهما الأمر إلى الحديث عن حادث الاغتيال الرهيب الذي تعرّض إليه الإنسان الطّيّب والوديع الدكتور روشو، وعن الألم الفظيع الذي تعانيه أرملته اليوم.

- يا لها من جريمة بشعة .. وغامضة بهذا الشكل! - قال البروفيسور.

- ليست غامضة كما يُعتَقَد - قال الراهب الأقدم، وأضاف بعد لحظات صمت - لاحظ، فقد كانت لدى ذاك - أي الصّيدليّ المسكين - حبائله، ولم تكن مجرّد أقاويل ونميمة من قِبَلِ الآخرين، أتّفق معكَ. خلاصة القول فقد هُدِّد أوّلاً، ومن ثمّ قُتِل، وهذا هو الأسلوب التّقليديّ للانتقام، وقد لاقى حفيدي المسكين حتفه دون أن تكون له ناقة أو جمل في القضيّة.

- هل تعتقد ذلك؟

- وما هو الأمر الآخر الذي ينبغي التفكير فيه؟ قضايا متعلّقة بمصالح، لكنّ ذاك لم تكن لديه أيّة مصالح، كما ظهر من التحقيقات. لذا لن يبقى أمامكَ إلّا التفكير بمغامرة عاطفية، وإذا ما كان هناك أبٌ أو أخٌ أو خطيب، فلا بدّ أن يكون اشتعال الانتقام قد بلغ مدى دفع ذلك الشخص باتّجاه تصفية الحساب، وبأنْ يفعل ذلك بمقدارٍ من الغضب الذي جعله لا يرى بأنّ هناك بريئاً على مقربة منه.

- إنّ ذلك ممكنٌ، لكنْ، ليس مؤكّداً.

- مؤكّد؟ الرّبّ وحده هو المؤكّد، عزيزي البروفيسور. وأمّا الموت،

بالتأكيد كلّا، كما هو واضح. لكنّ هناك مفردات عديدة تُقرِّبنا ممّا هو قابلٌ للتأكيد، ومن بينها. أوّلاً، الرسالة التي تُحذِّر الصّيدليّ بأنه سيدفع الموت ثمناً لما اقترف من ذنب، الرسالة لا تُفصِح عن الذنب، لكنّ مَنْ كتبها افترض بأنّ ذكرى ذلك الذنب، الذي قد يكون وقع في الماضي البعيد، سيبزغ من جديد لدى مَن اقترفه لمجرّد تذكيره به (وهو ، على ما يبدو، ذنبٌ كبير لا يُنسى)، أو أنّه كان يعرف جيّداً بأنّ كاتب التهديد يُلمِّح إلى قضية وقعت في ماضٍ قريب أو، ربمّا كانت قضيّةً ما تزال قائمةً، إذا ما صحّ لنا القول. ثانياً. كما تعرف بالتأكيد، وقد اخبروني بأنكَ كنتَ موجوداً في لحظة وصول الرسالة، فقد رفض الصّيدليّ تقديم شكوى إلى الشرطة حول الرسالة، وقد يكون ذلك ناتجاً عن خشيته من أنْ تُظهِر التحقيقات بعضاً ممّا لم يكن يعتزّ به من تاريخه الشّخصيّ،. ثالثاً. لا يبدو لي بأنّ الحياة العائلية للصّيدليّ كانت تسير على ما يرام ...

- لا أعلم ... - قال لاورانا - لكنْ، لديّ بعض الاعتراضات. أوّلاً. الصّيدليّ يتسلّم رسالة تهديد واضحة ومباشرة. فكيف يتعامل مع الموضوع؟ بعد أسبوع واحد فقط، يوفّر لعدوّه الفرصة المُثلى لتنفيذ ما جاء في ذلك التهديد. يخرج للصيد. حقيقةُ الأمر هي أنه لم يأخذ تلك الرسالة ومحتواها على محملٍ من الجدّ، وتوقّع بأنّ الأمر لا يعدو عن كونه أكثر من مَزْحَة. ولذا أقول بأنه لم يقترف أيّ ذنب أو خطيئة، لا في الماضي البعيد، ولا في الوقت الحالي. وطالما أنّ التهديد نُفّذ بالفعل، وبتلك الطريقة الوحشية، فربمّا كان بالإمكان القبول بفكرة وجود ذنبٍ ما، لكنْ، ينبغي التفكير بذنب بعيد، وبعيد إلى درجة اعتبار ذلك التهديد بالانتقام المتأخّر غير قابلٍ للتصديق. أو ربمّا كان

علينا أيضاً افتراضُ أن ذلك الذنب اقتُرِفَ دونما قصد أو وعي. حركةٌ ما، كأنْ يكون، شيئاً لا ينتبه إليه المرء، لكنّه يُصيب في الصميم مَنْ في عقله اختلالٌ أو غضب. ثانياً. لا أحد منّا، ونحن يشاهد الرسالة، خطر بباله أن يأخذ الأمر على محمل من الجدّ. لا أحد. وهذه بلدة صغيرة للغاية، ومن الصعب جدّاً أن تتمكّن علاقةٌ أو خصلة ما، من الإفلات من انتباه الناس وفضولهم، أيّاً كانت، ومهما كانت سرّيّتها، و أيّاً كانت القدرة عالية على إخفائها ... صحيحٌ أنه لم يرغب في رفع شكوى، لكن ذلك نتج عن القناعة بكونها مُرْحَة، وهي الصفة التي منحها هو وأصدقاؤه إلى تلك الرسالة.

- ربمّا كنتَ على حقّ - قال الراهب الأقدم، إلّا أن نظراته كانت تشي بوضوح أنه سيبقى ثابتاً على موقفه. وأضاف - يا إلهي، أشِعْ نورَكَ على الأمر، واكشفْ لنا الحقيقة. من أجل العدالة، وليس من أجل الانتقام.

- نأمل في ذلك - قال البروفيسور، كما لو أنه ينطق بدعاء "آمين"، ثمّ أخبر الراهب الأقدم بأن السبب الحقيقي الذي دفعه إلى إزعاجه والمجيء لزيارته. - "أوسيرفاتوري رومانو!" - انتعش الراهب عندما سمع بأنّ علمانياً من أبناء البلدة جاءه ليطلب مساعدته - نعم، الجريدة تصلني، أقرؤها، لكنْ، دون أن احتفظ بها ... أنا أحتفظ بالمجلّات. "الحضارة الكاثوليكية" و"حياة وأفكار". نعم، لا أحتفظ بالجرائد ... حافظُ المقدّسات في الكنيسة يحملها إليّ من دائرة البريد. وأحملها أنا برفقة الرسائل الخاصّة إلى المنزل. وبعد قراءتها، تتحوّل الجرائد إلى ما يمكن أن نسميّه بالاستخدام المنزلي،

فـ أوسيرفاتوري رومانو، وجريدة إل پوپولو(*) ... آه، ها هي، - قالها وهو يسحب من بين كومة البريد جريدة الفاتيكان - الآن سأحملها معي إلى البيت، أقرؤها مباشرة بعد الغداء، وفي المساء، أنا واثق من ذلك، ستستخدمها زوجتا شقيقَيَّ أو الطبّاخة لأغراض منزلية، كأنْ يَلُفنَ بورقها أوانيَ أو كُتُباً، أو يستخدمنها لإضرام نار الموقد. يفعلنَ ذلك دائماً، إلّا في حال احتواء عدد الجريدة خطاباً أو كلمة أو مرسوماً لقداسة الحبر الأعظم.

- واضح، بالتأكيد.

- لو كان هذا العدد، وهو عدد الأوّل من أمس، يفيدكَ - وقد مدّ نسخة الجريدة المرسَلَة بالبريد بثماني طويات - يكفيني أنْ أُلقيَ عليها نظرة .. هنا .. على أيّة حال، فأنا متأخّر في قراءة الأعداد الأخرى، فقد كان الأسبوع الأخير بالنسبة إليّ عبارة عن جحيم حقيقي ...

فتح لاورانا الجريدة، وتوقّف طويلاً عند عنوانها. ها هي جملة "لكلٍّ ما لَهُ"، وهي شبيهة بالضبط بما كان يَبْرُزُ من ظهر الرسالة التي وصلت إلى الصّيدليّ. "لكلٍ ما لَهُ". حروفٌ جميلة الطباعة، وذيل حرف " Q " الذي خُطّ بأناقة، ثمّ المفتاحان المتقاطعان مع قلنسوة البابوات. "لِكُلٍّ ما لَهُ". وكذا كان للصّيدليّ مانُو وللدكتور روشو. تُرى أيّة كلمة كانت تظهر على ظهر الورقة بعد جملة "لِكُلٍّ ما لَهُ"، التي قصّتْها تلك اليد، وألصقتْها على الورقة؟ وهي اليد نفسها التي وضعت حدّاً لحياتَيْهما. إنّها جملةٌ احتوت قرار الحكم بالاعدام؟ جملةٌ حملت معنى الموت؟ مؤسفٌ ألّا يتمكّن من إلقاء نظرة على

(*) Il Popoplo الجريدة اليوميّة التي كانت ناطقة باسم الحزب الدّيموقراطيّ المسيحي.

الرسالة التي وصلت إلى الصّيدليّ، لأنّها صارت جزءاً من الأسرار في ملفّات التحقيق حول الحادث.

- لا تتردّد، أرجوكَ - قال الراهب - إذا كان هذا العدد من الجريدة يفيدكَ، بإمكانكَ أن تأخذه.

- كيف؟ آه، نعم، أشكركَ. لكنْ، لا، لا أحتاج اليها - ووضع الجريدة على الطاولة. نهض. كان مستاءً ومنزعجاً من رائحة الخشب القديم، والزهور الذابلة، ومن رائحة الشمع المحترق في غرفة المقدّسات - أنا ممتنٌّ لكَ كثيراً- قال وهو يمدّ يده إلى الراهب لمصافحته، فما كان من الراهب الأقدم إلّا وشدّ على يد البروفيسور بيَدَيْه، معبّراً عن الحبّ الواجب إزاء ابنٍ ضالّ، وبالفعل ردّ عليه قائلاً - إلى اللقاء، وآمل بأنّكَ ستعود إلى زيارتي مرّات أخرى - بالتأكيد وبكلّ سرور- ردّ لاورانا.

خرج من مقرّ الراهب الأقدم، مرّ عبر فناء الكنيسة التي كانت فارغة في تلك اللحظة. لم يكن في الساحة المقابلة للكنيسة ظلّ لأيّ شيء، وحين عبر الساحة فكّر بمقدار الارتياح الذي يوفّره مبنى الكنيسة ومخزن الملابس الكهنوتيّة؛ وتحوّل ذلك الاعتبار لديه إلى ميثافور ساخر. فقد كان راهب كنيسة سانت آنّا والراهب الأقدم ينعمان بالراحة حقّاً، كلٌّ بطريقته الخاصّة. أو ربّما، استناداً إلى ما كان يقوله الناس، هما متشابهان، وإنْ بديا مختلفَيْن في المظهر. كان يهيم بأفكاره. وكان يُراوغ الإحساس بالخيبة والهزيمة، بسبب خيطٍ واهٍ وشفيف من الزهو والحبّ لنفسه، وكان همُّهُ مُنصبَّاً على اكتشاف

عدد جريدة أوسّيرفاتوري رومانو الذي اقتُطعَت منه حروف كلمة "لكُلٍّ ما لَهُ" الواردة في خلفيّة رسالة التهديد مجهولة المرسِل، وكان من العسير تحديد ما تؤول إليه تلك الجريدة في منزل الراهب الأقدم، وما هي اليد التي انتهت إليها. لم يكن في الإمكان أبداً التفكير، بأيّ شكلٍ من الأشكال، بتورّط الراهب الأقدم، زوجتا شقيقَيْه وابن شقيقه أو خادمة المنزل،. فبعد إلقاء الراهب الأقدم نظرة سريعة عليها، وبعد الاستخدام المنزلي من قبَل النساء في المنزل، كانت هناك ثمّة نسبة ضئيلة من القرّاء المحتملين، المشابهين لراهب الكنيسة الشّابّ الجامع لأعداد الجريدة. ربمّا تكون تلك الصفحة أو ذلك الجزء من الجريدة وصل إلى كاتب الرسالة (ومنفّذ جريمَتَي القتل) كغلاف لعلبة، تضمّنت موادّاً أُرسلَت إليه، وبالطبع دون تجاهل أنّ تلك الجريدة تُباع في أكشاك مركز المحافظة بشكل طبيعي، وبالإمكان أن يقتنيها أيّ عابر أو مهتمّ.

وعلى أيّة حال، ودون الأخذ في الاعتبار كلمة "لكُلٍّ" تلك، كانت الشرطة قد تصرّفت مع الحادث بطريقتها الاعتياديّة وبمهنيّتها المعتادة التي لا غبار عليها. فقد رأت بأن البحثَ عن إبرة في كومة من العلف وقتٌ مُضاع، بالذات عندما تكون تلك الإبرة دونما ثُقب يمكن أن ينغرز فيه أيٌّ من الخيوط، ومن بينها خيط التحقيقات.

أمّا هو، أي البروفيسور لاورانا، فقد أُبهر بتلك الجُرئيّة الصغيرة. جريدةٌ لها مشتركان اثنان فحسب في البلدة بأسرها. وعَدّ ذلك

مؤشّراً دالّاً ودقيقاً قد يفتح الطريق فسيحاً أمام التحقيقات. إلّا أنّ واقع الحال كان يؤكّد بأن ذلك المؤشّر سيُدخل التحقيقات في طريق مُغلَق، لا مخرج في نهايته.

وعلى أيّة حال، لم تكن الشرطة، بإصرارها في تركيز الانتباه على عُقب السيغار الذي عُثر عليه في مكان الحادث، تلعب اللعبة الأصحّ. كان السيغار من ماركة برانكا، وقد تأكّدت الشرطة من أنّ مُدخّنها الوحيد في البلدة بأسرها هو أمين البلديّة، الذي لم يكن ليُصبح، بأيّ حالٍ من الأحوال، مُشتبهاً به كمُنفِّذ لذلك الجرم، لكونه جاء إلى البلدة منذ فترة قصيرة، لم تتجاوز السّتّة شهور.

- جريدة أوسّيرفاتوري رومانو هي بمستوى أهمّيّة سيغار برانكا نفسه - قال لاورانا "فلنترك الشرطة تُلاحق مساق السيغارات، أمّا أنتَ، فاصرفْ عن ذهنكَ تلك الجريدة". لكنّه عندما جلس إلى المائدة في المنزل بانتظار أن تُعدّ له والدته طعام الغداء، سحب ورقة، وكتب عليها بعض الملاحظات.

مَنْ ركّب تلك الرسالة بكلماتٍ مُقصوصة من جريدة أوسّيرفاتوري رومانو، إمّا أن يكون.

أ- قد اقتنى الجريدة من مركز المحافظة تأكيداً على حذاقته وعزمه المؤكّد في إضافة فوضى جديدة إلى التحقيقات؛

باء - وجد نسخة تلك الجريدة بالمصادفة المحضة تحت يَدَيْه،

ولم يجد الوقت والتركيز الكافيَيْن لمعرفة أيّ نوعٍ من أنواع الجرائد هي بالتحديد.

جيم - لقد جعلتْهُ رؤية تلك الجريدة حولَه بشكل مستمرّ، يُدمن في عَدِّها جريدةً ككلّ الجرائد الأخرى، دون الانتباه إلى خصوصيّتها الطّباعيّة، أو محدوديّة توزيعها، وشبه مهنيّة مَنْ يقتنيها أو يقرؤها.

وضع لاورانا القلم على المائدة، تأمّل في الورقة وفي ما كتب عليها(*) ، ومن ثمّ سارع إلى تقطيع الورقة إِرْباً إِرْباً.

*) تُدلّل هذه الطريقة على الأسلوب الذي يدنو منه البروفيسور لاورانا من الأشياء، ويتفحّص بها المعطيات خلال تحقيقاته، وعلى ديدنه في التعامل الذّهنيّ معها. وبرغم أنّه يعدّ الملاحظات المكتوبة غير ذات فائدة أو نفع، ويُقطّع الورقة إرْباً إرْباً، فإن رغبته في فَكّ عُقد القضية لا تنطفئ أبداً.

5

كان طَلَبَة المدرسة الثّانويّة في مركز المحافظة يعدّون مدرّسَ اللغة الإيطالية والتاريخ البروفيسور باولو لاورانا شخصاً فضوليّاً، ومعلّماً بارعاً، فيما كان آباء الطَّلَبَة يعدّونه شخصاً جيّداً وفضوليّاً. وكان تشارُكُ الطَّلَبَة وآباؤهم في عَدِّ البروفيسور شخصاً فضوليّاً، محاولةً لتشخيص غرابته، أكثر من التأكيد على سلوكٍ يستحقّ الاستهجان. وكانت تلك إشارة إلى شخصية قاتمة، ثقيلة ومقهورة. على أنّ غرابته تلك كانت تُقلِّل لدى الطَّلَبَة من ثِقَلِ براعته وأهمّيّته، في حين كانت تحول دون أن يعثر الآباء لديه على الممرّ الصحيح لإقناعه، ليس إلى مقدارٍ من الرأفة خلال تقييم أبنائهم، بل إلى العدل في ذلك التقييم، (إذْ ليس من بين الطَّلَبَة مَنْ يستحقّون الرسوب). وكان لاورانا، عندما يتقدّم إليه الآباء بوساطات للطَّلَبَة، ودوداً إلى حدِّ الحياء والتلعثم في الكلام، بحيث يبدو وكأنّه سيأخذ تلك الوساطات في عين الاعتبار. لكنّ الجميع كانوا يعلمون حقّ العلم بأن ذلك الودّ واللطف يُخفيان في ثناياهما قراراً لا رجعة عنه خلال التقييم. وبأنّ التوصيات كانت تدخُلُ إحدى أُذُنَيْه، لتخرج مباشرة من الأُذُن الأخرى.

كانت حياة البروفيسور لاورانا وعلى مدى السنة الدّراسيّة، تنقضي ما بين البلدة ومركز المحافظة. كان يُغادر بحافلة الساعة السابعة

صباحاً، ويعود بحافلة الثانية ما بعد الظهر. وكان يُخصّص ساعات ما بعد الظهر لقراءاته وللبحث. ويقضي الأماسي في المنتدى اليومي في صيدلية البلدة، ويعود إلى منزله في حدود الثامنة مساءً. لم يكن يُعطي دروساً خصوصيّة، ويمتنع عن ذلك حتّى في شهور الصيف، وهو الموسم الذي يُفضّل تخصيصه لعمله النّقديّ الأدبي، لينشر مقالاته في مجلّات، لم يقرأها أحدٌ من سكّان البلدة.

رجلٌ عفيف، دقيق، حزين ومتواضع الذكاء، يبدو، في بعض الأحيان، وكأنّه في حالة انغلاقٍ إيجابي، إنْ جاز التعبير؛ تتزامنُ وإيّاه حالاتِ إخفاق عديدة واستياءات كان يعترف بها، ويدينها بنفسه؛ لم يكن ينقصه وعيٌ ما بذاته، كما لم يكن غريباً على المكابرة والغرور المُبطَّن الذي جاءه من عالم التدريس، الذي يرى نفسَهُ فيه مختلفاً عن زملائه، بفعل نشأته وإنسانيّته وللعزلة التي يشعر بها كمثقّف. أمّا في ما يتعلّق باتّجاهاته السّياسيّة، فقد كان الآخرون جميعهم يعدّونه شيوعيّاً. لكنّه لم يكن منضوياً تحت لواء ذلك الحزب. وبخصوص حياته الشّخصيّة، فقد كان يُعدّ نموذجاً لضحيّة هيمنة الوالدة الغيورة والعازلة. وهذا ما كان قائماً بالفعل، فبرغم بلوغه الأربعين من العمر، وبرغم اعتمال وَلَهٍ وهوى غير مُعلَن في داخله تجاه بعض طالباته وعددٍ من زميلاته، اللاتي لم يستشعرنَ ذلك الميل في الغالب، وإذا ما استشعرتْهُ بالكاد إحداهنّ، طالبةً كانت أم زميلة، واستجابت بأيّة إيماءةٍ إلى ما يصبو إليه، فقد كان ذلك اللاشيء كافياً ليتصلّب وينغلق على ذاته من جديد. فقد كان يُرعبه التفكير بما ستقوله والدته، أو من الحكم الذي ستُصدره بحقّ المرأة التي اختارها، وكان الرعب لديه يزداد لمجرّد التفكير بما قد يحدُث في حال تعايش

المرأتَيْن، وبالقرار المحتمل من إحداهما برفض ذلك التعايش أو السُّكنى مع الأخرى تحت السقف نفسه. هذه الأفكار كلّها كانت تَئدُ في المهد أيَّ هوى أو حبّ سعى إليه، وهي الأفكار ذاتها التي دفعتْهُ إلى إقصاء النساء عن ذهنه، كما لو أنّه تحرّر من رفيقاتِ تجربةٍ مُخفقة وحزينة، وأن يتملّكه قَدْرٍ من الارتياح والحبور لذلك التّحرّر من الحبّ المفترَض. ربمّا كان لاورانا سيوافق مُغلق العينين على الزوجة التي تختارها له والدته، لكنّه كان، برأي الوالدة، ما يزال غِرّاً طَرِيّ العود، وقليل الخبرة في مكْر الآخرين، ولذا لم يكن، برأيها، قد بلغ بعدُ سنّ الإقدام على هذه الخطوة الخطيرة.

بهذه الشّخصيّة، وفي الظروف التي كان يحيا في ظلّها، لمْ يُكوِّن البروفيسور لاورانا أيّةَ صداقات. كان لديه معارف كثيرون، لكنْ، لا أحد منهم يمكن أن يُوصَف كصديق. كان قد زامل الدكتور روشو في المدرسة المتوسّطة والمدرسة الثّانويّة، لكنْ، دون أن يعدّ الاثنان نفسيهما أبداً صديقَيْن بمعنى الكلمة، عندما عادا إلى اللقاء مُجدّداً في البلدة بعد سني الجامعة. كانا يلتقيان في الصّيدليّة وفي النادي، يتحاوران ويستعيدان ذكرياتٍ عن أشخاصٍ وأحداثٍ من أيّام الدراسة. وكان في بعض المرّات يستدعيه إلى منزله لعيادة والدته المريضة. كان الدكتور روشو يأتي، يفحص السيّدة العجوز، ويصف لها الأدوية. ثمّ يتوقّف في منزل البروفيسور لحينٍ من الوقت لتناوُل القهوة، ولتذكّر هذا المعلّم أو ذاك الزميل، الذي ما عادا يعرفان عنه أيّ شيء أو يجهلان عمله الحالي. لم يكن الدكتور يتقاضى أجرة الفَحْص الطّبّيّ. لكنّ لاورانا، بالمُقابل كان يُهديه كتاباً في عيد الميلاد من كلّ عام، فقد كان روشو واحداً ممّنْ يقرؤون الكُتُب. لم تكن ما بين الرجلَيْن

آصرةُ صداقة حقيقيّة، وما كان يجمعهما هو التشارك في الذكريات وإمكانية الحوار في بعض الأمور الثّقافيّة والسّياسيّة بقَدْرٍ من اللياقة بعيداً عن الاختلافات الهابطة؛ وهو ما كان مستحيلاً تحقيقه مع آخرين، في البلدة. جميعهم، الفاشيّون من بينهم، أو حتّى مَنْ عدّوا أنفسهم شيوعيّيْن أو اشتراكيّيْن. لذا فقد كان موت الدكتور روشو بالنسبة إلى لاورانا خسارة حقيقيّة، وشعر، إثر ذلك الموت، بفراغ وألمٍ كبيرَيْن، وبالذات عندما شاهده بأمّ عينَيْه مُسجّى ميتاً. وفي الحقيقة، كان الموت قد ارتسم على وجه الدكتور كما لو أنّه قناعٌ قُدَّ من كبريت(*)، وبدا وكأنّ ذلك الكبريت يتّقد ببطءٍ شديد في الهواء الثقيل الذي ولّدتْهُ الأزهار المتراكمة والرائحة الثقيلة الصادرة عن الشموع المشتعلة في الغرفة التي سُجِّي فيها نعش الدكتور، كان روشّو يبدو وكأنّه آيلٌ إلى تحجّرٍ متواترٍ ببطء، وكما لو أنّه يُعرب عن الدهشة لما حلّ به، ويبذل جهداً أليماً في محاولةِ كسرِ ذلك الغشاء المتحجّر الذي صار يلفّه.

في حين كان الموت قد منح الصّيدليّ قَدْراً من الوقار ومن الهيبة التي لم يكن لأحدٍ أنْ يلاحظها لديه حين كان حَيّاً يُرزَق. وهذه هي إحدى ملامح السخرية التي يختزنها الموت في طيّاته.

عانى البروفيسور لاورانا من غياب الرجل الذي ارتبط معه ببعض الاعتياديّات، أكثر من كونها صداقةً، وكان يُعاني في تلك اللحظة أيضاً من لقائه المباشر مع الموت، مع ذلك الموت بموضوعيّته المطلقة، رغمَ أنّه سبق وشاهد موتىً آخرين، أو تعرّف على أشكالٍ أخرى للموت.

---

*) يستعيد شاشّا دائماً إشاراته إلى الكبريت، لثراء الأرض الصّقليّة بهذا المادّة، لكنّه هنا يُشير بالتأكيد إلى الاصفرار المكفهرّ لوجه صديقه الميت.

كما وتألّم لاورانا لمرأى الصّيدليّة موشّحة برباط أسود، عَدّه بمثابة جدار الغلق النّهائيّ؛ هذه المفردات كلّها ولّدت لديه حالةً نَفْسيّة مهلهلة، تتخلّلها لحظات من القلق الذي صار يشعر بثِقَله حتّى على جسده، وبحالات متواترة من تذبذب لضربات القلب. ومع ذلك، فقد كان فضوله لمعرفة ما جرى ينأى عن تلك الحالة النَّفْسيّة أو على الأقلّ، كان يؤمن بقدرته على تحرير فضوله ذاك، وإبقائه فاعلاً لكشف ومعرفة الأسباب المحرّكة لجريمَتَي القَتْل، وصوب الطريقة التي نُفِّذتا بها. كان ذلك فضولاً ذهنياً، يُحرِّكه قَدْرٌ لا بأس فيه من العناد والحزم.

كانت حالته، بتحصيل الحاصل، تُشبه مَنْ يشعر بنفسه جالساً داخل صالة أو منتدى، ويستمع إلى قضايا مشاكل أو أُحجيّاتٍ، يطرحها دائماً حمقى وبلداء، والأدهى من ذلك، أنّ هؤلاء الحمقى والْبلداء يأتون أيضاً، بما يعدّونها حلولاً لتلك المشاكل والأُحجيّات. كان لاورانا يعرف بأنّ هذا كلّه ليس إلّا لعبة بليدة، ومضيعة للوقت، تُجرى بين أناسٍ بُلداء، يملكون مُتّسعاً من الوقت لإضاعته. لكنّه، ومع ذلك، عقد العزم على أن يُقدِّم حلولاً لتلك المشاكل، لا بل أنْ يفعل ذلك بإصرار وحزمٍ مبالغٍ فيهما، رغمَ عدم اقتناعه المُطلق بفكرة أن تتمكّن حلولُه من توفير مستلزمات تأمين المذنبين للعدالة على المدى القريب. كان لاورانا رجلاً مدنيَّ الهوى، بقَدْرٍ كافٍ من الذكاء، وذا مشاعر طيّبة، ويحترم القوانين. وإذا ما ساورتْهُ الشكوك في لحظة ما، بأنّه يسطو على مهمّات رجال الشرطة، أو أنّه صار يتنافس معهم في أداء تلك المهمّات، فإنّ تلك الشكوك ستُشعِره بالاشمئزاز من نفسه، وقد تدفعه إلى صرف النظر عن القضيّة برُمّتها.

وها هو هناك، هذا الرجل المتأمّل، الخجول، وربّما الخالي من الجسارة والشجاعة، يُهمّ بلعب ورقته الخطيرة في النادي مساءً، وبالذات عندما كان الأصدقاء جميعهم حاضرين ويتحاورون، كالعادة، في الجريمَتَيْن، ها هو لاورانا، المتميّز اعتيادياً بالصمت وبشحّ الكلام، يقول - الرسالة التي وصلت إلى الصّيدليّ كانت قد شُكِّلت بحروف مقصوصة من جريدة أوسّيرفاتوري رومانو.

ينطفئ النقاش في الحال، ويسود صمت مُطبق ومنذهل.

- أسمعتُم ما الذي قال؟ - يُبادر دون لويجي كورڤايا بعد ذلك الصمت. لم تكن دهشته نتاجاً لذلك الدليل الجديد المطروح على الملأ، بل لقناعته بسذاجة مَنْ طرح ذلك الدليل الذي سيُحوِّله إلى هدف للانتقام من طَرَفَيْن، من الشرطة ومن القاتل أو القَتَلَة الذين أقدموا على اغتيال الصّيدليّ والطبيب. أمرٌ في غاية الغرابة لم يُشاهَد في هذه الأرجاء من قبل(*).

- أحقّاً؟ لكنْ، أنتَ، عذراً أسألكَ، كيف عرفتَ بذلك؟ - تساءل المحامي روزيلّو، وابن عمّ أرملة الدكتور روشو.

- لاحظتُ ذلك عندما كان عريف أول الدرك يستكتب الصّيدليّ الشكوى حول الرسالة مجهولة المرسِل. هل تذكرون بأنّني دخلتُ معهما في الصّيدليّة.

- وهل أعْلَمْتَ العريف الأول بالأمر؟ - سأل بيكوريلّا.

---

*) دهشة دون لويجي كورڤايا، إزاء الكشف الذي أعلنه لاورانا بكلماته تلك، نابعة من كون لاورانا، "الإنسان هادئ الطبع، الخجول وشحيح الجرأة" يتجاسر في كسر قانون الصمت الذي تفترض المافيا قدرتها بفرضه على الآخرين.

- نعم، طلبتُ منه أن يتفحصّ الرسالة بعمق ... فردّ عليّ بأنّه سيفعل ذلك.

- وليس من المعقول أنّه لمْ يفعل ذلك - قال دون لويجي، وقد شعر بقَدْرٍ من الارتياح ومن الأسى في آنٍ، لعدم كون المعلومة التي أفصح عنها لاورانا جديدة، أو على قَدْرٍ من الخطورة.

- غريبٌ أنّ العريف الأول لم يقل لي شيئاً في هذا الإطار - قال روزيلّو.

- ربمّا كان ذلك دليلاً لا يُفضي إلى أيّة نتيجة - قال مدير البريد، ثمّ أشرقت أساريره وهو يتّجه إلى لاورانا - ألهذا السبب إذاً سألتَني ...؟

- كلاّ - قاطعه لاورانا، فيما نهض الكولونيل المتقاعد سالفاجّو من مكانه، لينبري مُقاوِماً أيّ محاولةٍ للخلطِ، للتجاوز، أو للشكوك تجاه سلاح الدرك أو عالم الجيش بشكلٍ عامّ، وتوجّه إلى روزيلّو مباشرة - ولماذا كان على العريف الأول أن يُعْلِمكَ أنتَ عن هذا الدليل أو غيره من الأدلّة؟

- بِاعتباري قريباً من أقرباء الضحايا، بحقّ الرّبّ! كقريب للضحايا فحسب - سارع روزيلّو إلى الرّدّ على الكولونيل.

- آه - قال الكولونيل بارتياح. كان قد تصوّر بأن روزيلّو ادّعى لنفسه هذا الحقّ على العريف الأول انطلاقاً من الموقع السّياسيّ الذي يشغله، وبما أنّه لم يكن قد اقتنع بردّ روزيلّو بشكل كامل، فقد عاد إلى هجومه ثانيةً - عليّ، في الأحوال جميعها، أنْ أسترعي انتباهكم جميعاً بأنّه لم يكن واجباً على العريف الأول أن يوفّر تلك المعلومات

حتّى لأقارب الضحايا، فتلك المعلومات سرّيّةٌ، وهي قيد التحقيق المستمرّ. ليس بإمكانه، وليس عليه أن يفعل ذلك، وإذا ما أقدم على شيء من هذا القبيل، فإنّه يكون قد انتهكَ واجباته بشكل خطير، وأُشدِّد بشكل خطير ...

- أعلم ذلك - قال روزيلّو - أعلم ذلك ... لكنّي كنتُ أقول ذلك من باب الصداقة ...

- ليس لدى قوّة الدرك أصدقاء! - هتف الكولونيل صارخاً.

- نعم، لكنْ، لدى عرفاء أوائل أصدقاء - صرخ روزيلّو بدوره.

- العرفاء الأوائل هم قوّة الدرك، الكولونيلات هم القوّة، العسكر هم القوّة...- وبدا الكولونيل وكأنّه في حالة هذيان، وبدأ رأسه بالاهتزاز مُنبئاً بابتداء إحدى تلك الأزمات التي كان روّاد النادي يعرفونها بشكلٍ جيّد.

نهض روزيلّو، وأشارَ للاورانا بأنّه يرغب في محادثته، وخرجا من النادي معاً.

- هذا المجنون الخرف - قال روزيلّو لمجرّد خروجهما من النادي. ثمّ - وما هي حكاية جريدة أوسيرفاتوري رومانو هذه؟.

6

لم يُكشف في النادي عن أيّ شيء. لم يكن لاورانا يترقّب شيئاً مُحدّداً. كان يرغب في معرفة تأثير تلك الكلمات على كلّ واحدٍ من الحاضرين في ذلك المكان، لكنّ تدخّل الكولونيل المتقاعد هشّم كل شيء، وأذراه في مهب الريح، وكلّ ما حصل عليه من ذلك، هو بعض المصارحات التي أسرّ بها المحامي روزيلّو حول مسار التحقيقات في القضيّة. ولو أنّ الكولونيل سالفاجو استمع إلى تلك المصارحات، لفارق الحياة على الفور، لكنّها، في الواقع، لم تكن لتُفصح عن شيء ذي قيمة، واقتصرت على بعض أخبار المغامرات الغراميّة السّرّيّة للصّيدليّ.

ورغم أنّ مسعاه لم يُحقِّق ما كان قد ارتجاه، فقد كان لاورانا يشعر أن لدى البعض من بين روّاد النادي، أو بالأحرى لدى البعض من بين الدائرة الضَّيِّقة التي كانت تلتقي يومياً في الصّيدليّة، ثمّة ما ينبغي الكشف عنه.

وكان هناك مُعطى مُحدّداً آخر. ففي العادة يُبقي الصّيّادون موقع خروجهم الأوّل للصيد في الموسم سرّاً، لا يُباح به لأحد أبداً، وذلك ليجدوا أنفسهم وحيدين، وفي أرض لم تُنتهك بعدُ من قِبَلِ صيّادين آخرين. وكانت هذا التقليد سائداً في البلدة أيضاً. وبالتحديد لدى

الدكتور روشو والصّيدليّ مانّو، فقد كان من النادر للغاية أن يقوما بإبلاغ طرف ثالثٍ عن المكان، وكان السّرّ يظلّ مُغلقاً بشكل عميق. وغالباً ما كانا يُسرّبان معلومات زائفة عن أماكن خروجهم، وذلك لتشتيت الانتباه. ولذا لم يكن بإمكان أحد العثور عليهما، حتّى من حصلوا على العنوان من مانّو أو من روشّو، لأن تلك المعلومة التي وصلت إليه كانت زائفة بالتأكيد. ربّما كان أحدهما يمنح إلى صديقٍ عزيز للغاية المعلومة عن المكان الذي سيتوجّه إليه في يوم افتتاح موسم الصّيد، لكنْ، ينبغي أن يكون ذلك الشخص صديقاً عزيزاً وقريباً بالفعل، وشريطةَ ألّا يكون صيّاداً.

وحين رافق والدته لزيارة زوجَتَي الصّيدليّ والطبيب، أُتيحت للاورانا الفرصة للتّأكّد من هذا المُعطى، فقد طرح على كلتي الأرمَلَتَيْن السؤال ذاته - هل أخبركِ زوجكِ إلى أيّة ضاحية كان سيتّجه في يوم افتتاح موسم الصيد؟

- فقط في لحظة المغادرة قال لي بأنّه ربّما سيذهب صوب كانّاتيلّو - أجابت زوجة الصّيدليّ مانّو. فانطبعت كلمة الـ "ربّما" تلك في سجلّ ذهن لاورانا في الحال، وهي ما كانت تشي بمقدار التّحفّظ الذي أبداه الصّيدليّ في الإفصاح عن المكان حتّى لزوجته، وعلى أيّة حال لم يفعل ذلك إلّا في لحظة الرحيل.

- وهل كان قد أخبركِ بأمر الرسالة التي استلمَها؟

- كلّا، لم يُخبرني بأيّ شيء.

- لم يكن راغباً في إثارة قلقك.

- بالفعل - قالت الأرملة بنبرة حادّة لا تخلو من السخرية المريرة.

- ثمّ إنّه كان يعتقد بأنّ الأمر لم يكن إلّا مَرْحَة، ونحن أيضاً اعتقدنا ذلك.

- مَرْحَة! - تنهّدت الأرملة - مَرْحَة أضاعت حياته هو، وأضاعت ماء وجهي أنا.

- هو فَقَدَ حياته للأسف الشديد، لكنْ، هوّني عليكِ .. ما دخْلكِ أنتِ؟

- ما دخلي أنا؟ أوَلَم تسمع بما يُشاع عنّي ممّا يندى له الجبين من الخجل؟

- ثرثرة لا غير - قالت السّيّدة العجوز والدة لاورانا - إنّها ثرثرة لن يُعيرها مَنْ لديهم روحيّة الرأفة والغفران أيّ اهتمام - وبما أنّ السّيّدة، هي الأخرى، لم تكن ممّنْ لديهم تلك الروح، فقد تساءلت - هل أنتِ متأكّدة بأن المرحوم لم يُثِرْ لديكِ شكوكاً ما؟

- أبداً، يا سيّدتي، أبداً. لقد لقّنوا خادمتنا كلاماً عن مشاحنات يوميّة بيننا ومشاهد للتعبير عن الغَيْرة من قِبَلي إزاء تلك الصّبيّة المسكينة التي كانت تذهب إلى الصّيدليّة لحاجة شقيقها إلى الدواء ... خادمتي، آه لو شاهدتِ كم هي حمقاء، وكم هي جاهلة. إنّها ترتعش لمجرّد استماعها إلى صوت أحد رجال الدرك ... لقد لقّنوها بأنْ تقول ما يُريدونه هم ... ثمّ، أولئك الآخرون، من عائلة روشو وروزيلّو، ولم يتردّد حتّى الراهب الأقدم، ذلك الرجل المبارك، هو أيضاً ... ابتدأ الجميع في الحال بترديد فكرة أنّ الدكتور، لروحه رحمة

الرّبّ، مات بسبب رذائل اقترفها زوجي. فعلوا ذلك، كما لو كنّا لا يعرف بعضنا البعض في هذه البلدة، وكما لو أنّنا نجهل ما يفعله الآخرون أو ما هم عليه. وكيف يُضاربون، أو يسرقون، أو ... - وغطّت فمها بكفّها كما لو أنّها تحاول منعه من الإفصاح عمّا لا ينبغي الإفصاح عنه من أسرار واعتبارات حارقة. ثمّ تنهّدت بمكرٍ محسوب التأثير – أوَ كان ضرورياً أن يذهب ذلك المسكين دكتور روشو ليدسّ نفسه في كنف تلك العائلة بالذات!

- لكنْ، لا يبدو لي ... - حاول لاورانا إبداء رأيه في هذا الموضوع.

- نحن هنا نعرف بعضنا جميعاً، صدِّقني - قاطعتْهُ السّيّدة مانّو - أنتَ، حضْرَتُكَ، معروفٌ عنكَ بأنّكَ رجلٌ يُعنى فقط ببحوثه ودراساته وكُتُبه ... - وبقَدْرٍ من الاستخفاف المتعمّد - لا وقت لديكَ للانشغال ببعض الأمور، أو أن تلاحظ أشياءً أخرى. أمّا نحن - وتوجّهت بحركة تفاهميّة إلى السيّدة العجوز - فنحن نعرف هذه الأمور.

- نعم، نعرفها جيّداً - أقرّت العجوز.

- ثمّ إنّني كنتُ رفيقة لويزا، زوجة روشّو، في المدرسة الدّاخليّة .. آهٍ، لو علمتَ أيّة شخصيّة هي!

تلك الشّخصيّة، التي استعادت عنها أرملة مانّو ذكريات عن خباثات صغيرة لبنات المدرسة الدّاخليّة، وعن ظلّ راهبة كانت تعشقها. تلك الشّخصيّة كانت جالسةً أمام لاورانا، تحت ضياء خافت يدخل المكان بالكاد عبر الستائر الثقيلة التي أُسدلت كدلالة حِداد. وكانت دلالات الحِداد منتشرة في أرجاء المنزل جميعها، كما

غُطّيت المرايا بأقمشة سوداء أو داكنة، وكان أكثر الأمور تعبيراً عن الحِداد تلك صورة فوتوغرافية بالحجم الطّبيعيّ، أعدّها المصوّر الفوتوغرافي في مركز المحافظة، وجلس ليضيف إليها الرتوش بكآبة فظيعة، وبعلائم الحِداد سواء في البدلة التي كان يرتديها المرحوم أو في ربطة عنقه (فالذائقة المجتمعية والجماليّة للمصوّر الفوتوغرافيّ، جعلته يؤمن بأنّه ينبغي على سيماء الموتى جميعهم أن تحمل دلالات عن الموت نفسه حين تُنتج صورهم لغرض الحِداد). كانت تلك الصور تُعبّر جميعها عن حالة من الحزن القاتم، فيما تُفصح الشفتان والنظرة المُتعبة المتوسّلة عن إنهاك متكاسل. كان الضياء الضئيل الذي يُنير الصورة يُظهِر الميت وكأنّه ممثّل كوميدي ثانوي، جُمِّلَ بمكياج شخصية خياليّة.

- كلّا، لم يكن يُفصِح لي أبداً عن اسم المكان - أجابت لويزا روشو على سؤال لاورانا حول ما إذا كانت قد علمت بعنوان المكان الذي كان زوجها قرّر الذهاب إليه يوم افتتاح موسم الصيد - لأنّني، إنْ أردتَ الحقيقة، لم أكن أتوافق مع شغفه بالصيد، لم أكن أُحبّ الصيد، كما لم أكن أحبّ مَن اختاره رفيقاً له في تلك الرحلة ... وليس ذلك لأنّني كنتُ أتنبّأُ بشيء ما، بل ربمّا لمجرّد إحساس كان يسري في داخلي، واحدٌ من تلك الانطباعات الـ ... وها هو الطالع السَّيِّئ يحوّل ذلك الانطباع إلى واقعٍ مؤلم - ورفعت المنديل إلى وجهها برفقةِ تنهيدة تُشبه النحيب.

- إنّه القَدَر، ما الذي بإمكان البشر أن يفعلوا إزاء أقدارهم؟ - حاولت السّيّدة العجوز لاورانا مواساة المرأة.

- أجل، بالتأكيد، كما تقولين، إنّه القَدَر ... ماذا عليّ أن أفعل؟ لو أعدتُ التفكير فقط بمقدار سعادة وهناء عيشنا الخالي من أيّ قلق، ودونما أيّ ظلٍّ لـ ...، إذّاك، فليغفر لي الربّ، أشعر بالضياع واليأس القاتل. باليأس ... - أحْنَتْ رأسها بصمت. ثمّ انفجرت بالبكاء.

- لا، لا ، لا - قالت السّيّدة العجوز بعذوبة - لا تدعي اليأس يغلب قلبكِ. عليكِ أن تُودِعي عناية الرّبّ آلامَكِ ، أن تفوضي عذاباتكِ إلى الرّبّ ...

- إلى قلب المسيح. لقد قاله لي أيضاً عمّي الراهب الأقدم ... أرأيتِ ما أجمل صورة قلب المسيح التي حملها إليّ الراهب الأقدم؟ - وأشارتْ بأصبعها إلى ما وراء ظهر العجوز التي سارعت إلى تنحية الكرسي جانباً، وكأنّها شعرت في الحال بأنها اقترفت خطيئة، لكونها أدارت ظهرها إلى صورة قلب المسيح، وأرسلت قبلة من شفتها وأناملها - يا أقدس القلوب - قالت، ثمّ أضافت - جميلة، إنّها صورة جميلة حقّاً. وأيّ نظرة تلك التي يُطلّ بها علينا!

- إنها نظرة تُهدِّئ الخاطر الحزين - قالت السّيّدة لويزا.

- أرأيتِ إذاً، كيف أنّكِ تشعرين بعزاء الرّبّ حاضرٌ معكِ؟ - قالت السّيّدة العجوز بنبرة هادئة ومُقنعة.

- ثمّ إنّكِ لن تفتقدي الأسباب الأخرى للعزاء. فهناك طفلتكِ، ينبغي لكِ أن تفكّري بالطفلة أيضاً ...

- أنا دائمة التفكير بها، ولا أعلم أيّ نوعٍ من الجنون كان سيُصيبني لولا تفكيري الدائم بها.

- وهل علمت الطفلة بما حدث؟

- لم تعلم بأيّ شيء حتّى الآن، مسكينةٌ ملاكي الصغير، لم تعرف بعد. أخبرناها بأنّ والدها سافر، وبأنّه سيعود ...

- لكنْ، عندما تراكِ مرتدية الثياب السوداء، ألا تسألكِ عن السبب؟

- كلّا، لا شيء، أو بالأحرى قالت لي بأنّني أجمل بكثير بالثياب السوداء، وبأنّ عليّ أن أرتدي الأسود دائماً - ورفعت بيدها اليمنى صوب وجهها منديلاً أبيض مؤطّراً بالسواد، وانفجرت ببكاء مفاجئ، فيما عدّلت طرف الثوب بيدها اليسرى تحت ناظرَيْ لاورانا، فصعد الثوب إلى ما فوق الركبة، وتنهّدت قائلة - تُرى هل سيكون هذا ما عليّ أن أفعله دائماً. أن أرتدي السواد، دائماً ...؟!

"الطفلة على حقّ بكل تأكيد"، فكّر لاورانا في سرّه. إنّها امرأة جميلة، وكان اللون الأسود يُبرِز جمالها. جسدٌ جميل، ممتلئ وممشوق، وعلى قَدْرٍ من التكاسل والاسترخاء حتّى عندما يشتدُّ متجمّداً. كان وجهها ممتلئاً، لكنْ، ليس بامتلاء سحنة امرأة تجاوزت الثلاثين، بل كان وجهَ مراهقة بعينَيْن كستنائيَّتَيْن، تَقْرُبان من شُعاع الذهب، والتماع بياض الأسنان المنتظمة ما بين شَفَتَيْن ممتلئَتَيْن. "آه لو أتمكّن من رؤية ابتسامتها". لم يكن واثقاً من تحقّق تلك المُعجزة في ظرف كهذا، وبرفقة تلك المواضيع التي تواصل والدته حياكتها ومَدّ الخيط لها. إلّا أن المعجزة تحقّقت عندما بدأت بالكلام عن الصّيدليّ، وعن وسائل اللهو لديه، والتي بات الجميع يتناولونها ويتندّرون بها في أحاديثهم اليومية - ليست لديّ أيّة نِيَّة للتأكيد

على أنّ الصّيدليّ كان مُحِقّاً في اجتراحه أسباب الانشغال، إذْ ليس بإمكان المسكينة لوتشيا سبانو، زوجته، أن تُضرَبَ مثالاً للجمال. لقد كنّا رفيقَتَيْن في أيّام المدرسة الدّاخليّة، وكانت على هذا الشكل حتّى في تلك الأيّام، أو ربمّا كانت أكثر دمامةً - وابتسمت عندما نطقت بذلك، لكنّها استعادت كآبتها المعتادة في الحال قائلة - أنا متأكّدة بأنْ لا ذنب لزوجي فيما حدث - وأغرقت المنديل بموجة بكاءٍ أخرى.

مكتبة
t.me/t_pdf

7

اللازمة الأساسيّة في غالبيّة الروايات البوليسيّة، التي تَشَرّبَ بها القسم الأعظم من الإنسانية حتّى الآن، تكمن في أنّ الجرائم غالباً ما تنجلي أمام الشرطة أو المُحقّقين كلوحة، بإمكان الموادّ التي أُنجزت بها وبعض مفردات أسلوبها أنْ تُتيح فرصة العثور على أدواتٍ ضرورية لتحديد عائديّتها، ويكون بالإمكان إماطة اللثام عن تلك العائديّة، إذا ما تمّ البحث الدقيق في تلك المفردات، وجرى تحليلها بالشكل المناسب. يحدث هذا في الروايات، لكن الواقع مختلف بقدرٍ ما عمّا يحدث في ثنايا كتاب، لأنّ درجات الحصانة في الواقع، واحتمالات وقوع المُحقّقين في الخطأ عالية للغاية، ولا ينتج ذلك بسبب انخفاض وعي ومعارف المُحقّقين (ليس فقط، وليس دائماً)، بل لأنّ المفردات التي توفّرها جريمةٌ ما، تكون في العادة شحيحةٌ، وربمّا نادرة، ولْنُقرّ أيضاً بأنّ تلك الجريمة اقتُرفت أو نُظّمت من قبَل أُناسٍ عملوا على إيصال درجات الحصانة إلى أعلى مستوياتها.

ومن بين المفردات التي تُتيح فَكّ عُقد جرائم تبدو غامضة أو لا معقولة، هي الوشاية، أو بالأحرى تلك الوشايات المهنيّة، ومحاولات الكشف عن المستور والسرّي برسائل مجهولة المرسِل؛ كما يحدُثُ أيضاً أنْ تُفَكَّ تلك العُقد بالصدفة المحضة، ودون إهمال ذلك القليل، والقليل حقّاً، من الفراسة والذكاء لدى المحقّقين.

وقد انجلت حالة الغموض، بالنسبة إلى البروفيسور لاورانا في باليرمو في شهر أيلول عندما ذهب إلى هناك كمراقبٍ للامتحانات الوزارية للمدارس الثّانويّة. كان قد وصل إلى المدينة منذ بضعة أيّام، والتقى بالصدفة، في المطعم الذي اعتاد أن يتناول فيه غداءه، بصديق من أيّام الدراسة، لم يلتقِ به منذ زمن طويل، وقد كان قد تابع مسار صعوده السّياسيّ. كان شيوعياً، عمل كسكرتير للفرع الحزبي في بلدته الصغيرة الواقعة بين جبال مادونيِّيّ(*)، صعد فيما بعد، ليكون عضواً في مجلس المقاطعة ونائباً في البرلمان الوطني. تذكّر الاثنان معاً أيّام دراستهما، وعندما بلغ الحديث إلى الطبيب المغدور روشو قال البرلماني - لقد تأثّرتُ كثيراً حين بلغني نبأ اغتياله، فلقد زارني في روما قبل ذلك بما يربو على عشرين يوماً. لم أكن ألتقيه منذ عشر سنوات ... زارني في روما في مقرّ مجلس النّوّاب. وقد تعرّفتُ إليه في الحال، لم يكن قد تغيّر على الإطلاق ... ربّما نحن تغيّرنا، قليلاً ... ناهيكَ عنّي أنا. لقد جالت في ذهني فكرة أن يكون اغتياله مرتبطاً، بشكل أو بآخر، بتلك الزيارة، زيارته لي في روما. إلّا أنّني رأيتُ بأنّ التحقيقات اتّخذت مساراً آخر، وبأنّه قُتل فقط لأنّه كان بمَعِيّة شخص آخر، اتُّهِم بأنه أغوى فتاة شابّة، لا أعلم ما الذي يمكن أن أقول ... أتعلم لماذا جاء للقائي؟ جاء ليسألني إنْ كنتُ على استعداد لأفضح في مجلس النّوّاب وفي جرائدنا وفي الاجتماعات الخطابيّة أحد الوجهاء المعروفين في بلدتكم، وهو شخصٌ يُمسك في قبضته المحافظة بأسرها، وهو مَنْ يحلّ ويربط الأمور، وينهب ويرشي ويُحيك الدسائس ...

(*) Madonie جبال الآبّينّن الصّقليّة.

- واحد من بلدتنا؟ أحقّاً؟

- لو أعدتُ التفكير في اللقاء بشكل أفضل، لا أعتقد بأنّه قال بوضوح لا لبس فيه بأنّ ذلك الشخص هو من بلدتكم. ربّما قادني كلامه إلى التفكير بكونه كذلك، أو ربّما أنا من ولّدتُ هذا الاعتقاد لنفسي ...

- وجيهٌ، يُمسك بقيادِ أمور المحافظة في قبضته؟

- نعم، هذا ما أتذكّره بشكل جيّد. نعم هكذا بالذات ... وأنا، بطبيعة الحال، أجبتُهُ بأنّني مُستعدّ، وسأكون سعيداً بإعلان تلك الإدانة وبإماطة اللثام عن الفضيحة. لكنّي كنتُ بحاجةٍ، كما هو بديهي، إلى وثائق وبراهين ... قال لي بأنّه يمتلك ملفّاً كاملاً، وبأنّه مستعدّ لتسليمه إليّ ... لكنّه لم يتصّل بي بعد ذلك.

- بالطبع.

- نعم، بالطبع. طالما أنّه لم يعد موجوداً بيننا.

- أنا لا أُحبّ الكلام من أجل الثرثرة فحسب. أعني، كنتُ أفكّر بالشّكّ الذي جال في خاطركَ، حول العلاقة ما بين رحلته إلى روما ومقتله ... أذكر أنّه غاب عنّا ليومَيْن. ثمّ قال لنا بأنّه جاء إلى پاليرمو ليزور والده ... إلّا أنّ هذا كلّه يبدو لي ضرباً من اللامعقول. روشو يرغب في فضح شخصٍ ما، ويمتلك ملفّاً كاملاً بشأنه ... لكنْ، هل أنتَ متأكّدٌ بأنّه كان روشو نفسه؟

- بحقّ الرّبّ - قال البرلماني - أقول لكَ بأنّني تعرّفتُ عليه في الحال، وبأنّه لم يتغيّر على الإطلاق ...

- نعم أنتَ على حقّ، هو لم يتغيّر ... لكنْ، ألم يذكر لكَ اسم هذا الشخص الذي كان يرغب في إماطة اللثام عن دسائسه؟

- كلّا، على الإطلاق.

- ولم يمنحكَ حتّى بعض المؤشّرات، ولو الغامضة، أو بعض الجزئيات؟

- لا شيء. أو بالأحرى، أنا ألحَحْتُ عليه لأعرف منه المزيد. لكنّه ردّ عليّ بأن الأمر حسّاس للغاية، وشخصي للغاية ...

- شخصي؟

- نعم، شخصي ... وقال بأنّه سيُفصِحُ لي عن كلّ شيء بالوثائق بين يَدَيْه، ولا شيء دونها ... أعترف لكَ عندما سمعتُهُ يقول بأنّه يحتاج إلى بعض الوقت ليُقرّر في الأمر، انزعجتُ قليلاً ... شعرتُ بأنّه كان يسعى بتلك الوثائق التي بين يَدَيْه، وزيارته لي في روما، إلى ابتزازِ ما أو تهديد شخصٍ أو طرفٍ ما. فإذا ما سارت الأمور كما يُريد، لم يكن ليفعل أو يفضح أيّ شيء، أمّا، إذا ما سارت في عكس اتّجاه ما يرغب فيه، فها هو يُخرِج الوثائق، ويعود لزيارتي من جديد، برفقة الملفّ ...

- كلّا، لم يكن رجلاً يُجيد الابتزاز أو التهديد. على الإطلاق.

- وأنتَ كيف تُفسّر سلوكاً من هذا القبيل؟

- لا أعلم. إنّه أمرٌ غريبٌ للغاية، وبعيد عن الواقع.

- لكنْ، حتّى هذا، اعذرني. أوَليسَ غريباً أن تعجز حتّى أنتَ عن

التّكهّن بهوية الشخص الذي كان يرغب توجيه ضربته إليه، وألاّ تكونَ قادراً على تحديد السبب الذي يدفعه إلى للسعي لتحقيق ذلك؟ لقد كنتَ إلى جواره، وتعرفه بشكلٍ جيّد ... أوَلا يبدو لكَ هذا أمراً غامضاً؟

- لم أكن إلى جواره بالشكل الذي تتوقّع. كانت شخصيته منغلقة، ولم يكن يصل أبداً إلى المرحلة التي يُسرّ فيها إليكَ بما في داخله. لذا فلم نكن نقترب في أحاديثنا المشتركة أبداً من مواضيع ذات طابع شخصي بحت، كنّا نتكلّم عن الكُتُب، وفي السياسة ...

- وما كانت آراؤه في السياسة؟

- كان يُفكّر بممارسة السياسة دون انصياعٍ للقِيَم المبدئية ...

- أي أنّه كان لامبالياً؟

- إذا كان هذا هو التقييم الذي تصف به حالته، فأنا أيضاً لا أُبالي فيما يتعلّق بالسياسة.

-أحقّاً، أنتَ كذلك؟

- لكنّ ذلك لم يَحُلْ دون أن أمنح صوتي إلى الحزب الشّيوعيّ.

- حسنٌ، حسن.- أعرب البرلماني عن ارتياحه.

- لكنّي أفعل ذلك بقَدْرٍ كبير من الشعور بالاستياء، ويؤرّقني كثيراً.

- وَلِمَ ذلك؟ - تساءل البرلماني بنظرة مستمتعة ومتسامحة، موحياً باستعداده الكامل لتهشيم كل الاعتراضات التي قد ينوي لاورانا تقديمها.

- لنترك هذا الأمر الآن، فلن تتمكّن من إقناعي بالتصويت ضدّه.

- ضدّ مَنْ؟

- ضدّ الحزب الشّيوعيّ.

- هذا أفضل من حسن - قال البرلماني، وهو يبتسم.

- ليس الأمر بهذه البساطة، على أيّة حال - قال لاورانا بجديّة؛ وعاد إلى الحديث عن روشو، الذي ربمّا كان يصوّت هو أيضاً لصالح الحزب الشّيوعيّ، على رغم أنّه كان يجهد كثيراً لعدم الإفصاح عنه - ربمّا احتراماً لذويه، أو بالأحرى لذوي زوجته. وجميعهم نُشطاء في السياسة، بمَنْ فيهم، بل في مقدّمهم، الراهب الأقدم ...

- الراهب الأقدم؟

- نعم، الراهب الأقدم روزيلّو. عمّ زوجته ... ولذا فإنّ روشو، احتراماً لهم، ولكي يتجنّب الصراعات داخل العائلة، كان ينأى بنفسه عن التصريح عن مواقفه السّياسيّة، لكنْ، ينبغي لي القول بأنّه صار أكثر صرامة في الآونة الأخيرة، أكثر قسوة وحِدّةً في مواقفه إزاء رجالِ السياسة وأمورِها. ولنقل السياسة الحكوميّة.

- هل جعلوه يفقد صفقةً ما، مثلاً، أو وظيفةً ما ...

-لا أظنّ ... انظرْ، كان مُختلفاً للغاية عمّا يمكن أن يتصوّره ذهنكَ ... كان يُحبّ مهنته؛ يُحبّ البلدة، ويُحبّ الأماسي في النادي وفي الصّيدليّة، كان يهوى الصيد، ويُحبّ الكلاب؛ وأعتقد أنّه كان يُحبّ زوجته كثيراً، وكانَ غارقاً في حبّ ابنته الصغيرة ...

- وما الذي يمكن أن يعنيه هذا كلّه؟ كان يمكن أيضاً أن يكون عاشقاً للمال، وبالتأكيد كانت لديه طموحات ...

- كان لديه ما يكفيه من المال، ولم تكن لديه طموحات. ثمّ أيُّ طموح يمكن أن يتبقّى لدى امرئ اختار العيش في البلدة، وقرّر عدم النأي عنها أبداً.

- وإذاً، فقد كان نموذجاً لطبيب القرية في الأزمنة الماضية. ذلك الذي يُقيم أوده ممّا يملك، لم يكن يُطالب بأجور المعاينة، بل بالأحرى، يمنح المرضى ثمن الدواء أيضاً ...

- شيءٌ من هذا القبيل. إلّا أنّ مدخوله كان جيّداً، وكانت سمعته كطبيب جيّد قد سادت تلك في المنطقة بأسرها، وكان المرضى يأتون إليه للمعاينة الطبيّة حتّى من البلدات المجاورة. ثمّ إنّه كان يحمل لقباً شهيراً ... روشو ... البروفيسور العجوز روشو ... بالمناسبة، أعتقد بأنّني سأذهب لزيارته.

- أعجز عن الفَهْم حقّاً. هل تعتقد فعلاً أنّ في الإمكان ربط مقتل روشو بمواقفه التي كان ينوي اتّخاذها إزاء ذلك الوجيه الثّريّ المجهول؟

- كلّا. لا أعتقد، لا. على العكس، فكلّ ما يطفو على السطح يتحرّك عكس هذا الشّكّ. روشو قُتِلَ لأنّه تغافل عن التهديدات التي وصلت إلى الصّيدليّ مانّو ورافقه في رحلة الصيد (أقول تغافل، لأنّه كان على علمٍ بالتهديدات). هذا ما يطفو على السطح الآن.

- مسكين حقّاً، روشو - قال البرلماني.

8

البروفيسور العجوز روشو، أخصّائي العيون، الذي طبقَتْ شهرته الآفاق في غربي صقليّة بأسرها، ورفعتْهُ إلى مستويات الأسطورة، كان قد ترك التدريس والمهنة منذ ما يربو على عشرين سنةً، ومن سخرية الأقدار، فقد حدث له، وهو في التسعين من العمر، ما يُمكن أن يُعدّ بالفعل قَدَرَاً يهوي على رأس مَنْ تحدّى الأقدار بمَنْح قُدرة الرؤية إلى من أُصيبوا بالعمى، وذلك بأنْ يفقدَ هو بنفسه قدرة البصر. كان يعيش في باليرمو، في منزل أحد أبنائه، الذي يعمل، هو الآخر، طبيباً للعيون، وكان بالتأكيد طبيباً بارعاً، إلّا أنّ الكثيرين يعتقدون بأنّ ما يتمتّع به من شهرة ناتجٌ عن اللّقب الذي ورثه عن أبيه.

أبلغ لاورانا عن زيارته بالهاتف. وطلب أن يُحدّد البروفيسور اليوم والساعة حسب ما يرتأيه ويُريحه.

ولمجرّد أن أبْلَغَتْهُ الخادمة عن تلك المكالمة، جاء البروفيسور بنفسه ليَرُدّ على المُتصل. قال له إنّ بإمكانه المجيء لزيارته في الحال. لم يفعل ذلك لكونه تعرّف على لاورانا عبر المعلومات التي أوردها عن نفسه، أو لأنّه علم بأنّ البروفيسور لاورانا هو أحد أصدقاء ابنه. لكنّ نَهَمَهُ للحصول على لقاءٍ مع شخص آخر في ظلّ الوحدة المريرة التي يعيش في ظلّها، هو الذي جعله يُسارع بدعوته إلى المجيء في الحال.

كانت الساعة تُشير إلى الخامسة عصراً. كان البروفيسور جالساً على أريكة في شرفة المنزل، وإلى جواره جهاز غرامافون يُصدر صوتاً عالياً للغاية، ثمّ يهبط فجأة. كان ذلك الصوت الصادر من الجهاز هو لممثّلٍ يؤدّي بصوتٍ رخيمٍ النشيد الثلاثين في الجحيم، من الكوميديا الإلهيّة لدانتي آليغيري.

- أرأيتَ ما آلت إليه حالتي؟ قال البروفيسور مادّاً يده لمصافحة الزائر - أنا مُضطرّ إلى الاستماع إلى الكوميديا(*) بصوت هذا الممثّل - مُوحِياً كما لو أن الممثّل موجودٌ معهما في المكان، وبأنّ لدى البروفيسور أسباباً مُقنعةً لتوجيه سخريته اللاذعة إليه - كنتُ أُفضّل أن يقرأها لي حفيدي البالغ اثنَي عشر عاماً، أو حتّى الطاهية أو البوّاب، لكنْ، لدى جميع هؤلاء ما يشغلهم عنّي في هذه اللحظة.

كانت پاليرمو تزهو، ما وراء حاجز الشرفة، وتتلفّع بنسيم الريح الشّرقيّة(**) القادمة من الجنوب - منظر أخّاذ، أليس كذلك؟ - قال البروفيسور، وأشار بأصبعه بثقة العارف - كنيسة سان جوفانيّ ديلّي إيريميتي، قصر أورليانس والقصر الملكي(***) - ابتسم وأضاف - عندما جئنا للسُّكنى هنا في هذا المنزل، قبل عشر سنين، كنتُ قادراً على الرؤية بشكل أفضل. أمّا الآن، فأرى الضياء فحسب، على شكل ومضة بيضاء بعيدة. ولحسن الحظّ، فإنّ في پاليرمو الكثير والكثير

---

*) الكوميديا الإلهية لدانتي آليغيري.

**) ريح الشرق التي يُسمّيها الإيطاليون والصّقلّيّون بـ "شيروكّو"، اقتباساً من تسميتها العربية، وهي عادة ريح دافئة تنطلق من الصحراء الأفريقية.

***) جميع هذه المواقع هي أسماءٌ لكنائس وقصور تاريخية أصبحت الآن عبارة عن متاحف يؤمّها آلاف السُّيّاح.

من الضياء ... لكنْ، لنترك جانباً مصائبنا الشّخصيّة ... وإذاً، فقد كنتَ أنتَ أحد رفاق ابني خلال الدراسة.

- نعم، في المدرسة المتوسّطة والثّانويّة. ثمّ اختار هو الطّبّ، وأنا اخترتُ الآداب.

- الآداب، وتعمل مدرّساً في المدرسة الثّانويّة، أليس كذلك؟

- نعم، أُدرّس اللغة الإيطاليّة والتاريخ.

- هل تعلم كم أنا نادمٌ لأنّني لم أعمل أستاذاً للآدب؟ لو فعلتُ ذلك، لكنتُ الآن قد حفظتُ الكوميديا الإلهية عن ظهر قلب.

"وإذاً فالكوميديا الإلهية هي الهوس الأكبر لدى البروفيسور"، فكّر لاورانا في سرّه - لكنّكَ، في حياتكَ، أنجزتَ ما هو أفضل بكثير من قراءة الكوميديا الإلهيّة وتفسيرها - قال.

- وهل تعتقد بأنّ ما فعلتُ أكثر أهمية ممّا تفعله أنتَ؟

- كلاّ، أعني، أنّ بإمكان كثيرين أن يفعلوا ما أفعله أنا؛ في حين ما فعلتَهُ أنتَ لا يقدِر عليه إلّا القليلون، لنقُل عشرة أو عشرون شخصاً في العالم بأسره.

- هذه كلّها مجرّد حكايات - قال العجوز؛ بدا وكأنه موشكٌ على النوم. ومن ثمّ سأل لاورانا فجأةً - كيف كان ابني، في الآونة الأخيرة؟

- كيف كان؟

- أعني. هل كان يُبدي لكَ عن مشاعر قلقٍ بشكلٍ أو بآخر، هل كان منشغل البال، متوتّراً؟

- كلاّ، لم يَبْدُ لي كذلك. لكن، بالأمس، وأنا أُحادِث صديقاً مشتركاً، علمتُ بأنّه ذهب إلى روما للقائه، وإذا أردتَ الحقيقة، فقد كان مُختلفاً شيئاً ما في الآونة الأخيرة، على الأقلّ فيما يتعلّق ببعض الأمور. لكنْ، لماذا توجّهُ إليّ هذا السؤال؟

- لأنّه بدا لي، أنا أيضاً، مختلفاً شيئاً ما ... هل قلتَ بأنّه التقى شخصاً ما في روما؟

- نعم، في روما. قبل خمسة عشر، أو عشرين يوماً من تلك المصيبة.

- غريب ... لكنْ، ألا تعتقد بأن يكون هذا الشخص مُخطئاً؟

- كلاّ، ليس مُخطئاً. إنّه صديق، ورفيق دراسة. وهو الآن برلماني عن الحزب الشّيوعيّ، وقد ذهب ابنكَ إلى روما خصّيصاً للقائه.

- للقائه؟ غريب، غريبٌ حقّاً ... لا أظنّ أنّه أراد أن يطلب منه معروفاً أو وساطةً ما. فبرغم أنّ الشّيوعيّيْن أيضاً موجودون في السلطة، بشكلٍ من الأشكال، فقد كان من الأيسر له أن يطلب المعروف أو الوساطة من الطرف الآخر(*)- وأشار بيده صوب قصر أورليانس، مركز الحكم في إقليم صقليّة - وهؤلاء الآخرون، كانوا مع ابني في عقر داره؛ وهم أيضاً على قَدْرٍ كبير من السطوة والقوّة، كما وصلك عنهم.

- لم يكن ما يسعى إليه طلباً لمعروف أو لوساطة. كان يرغب في إقناع صديقنا البرلماني بإطلاق إدانة في البرلمان إزاء فسادٍ ونهبٍ من قِبَلِ أحد الوجهاء.

---

*) ويعني بالطرف الآخر الحزب الدّيموقراطيّ المسيحي الحاكم.

- ابني؟ - دُهش العجوز.

- نعم. لقد دُهشتُ بدوري ، أنا أيضاً.

- وإذاً كان قد تغيّر كثيراً بالتأكيد - أعربَ العجوز عن استنتاجه هذا هامساً - نعم كان قد تغيّر. ولستُ أعلم منذ متى حدث له ذلك التّغيّر، ولا أستطيع أن أتذكّر متى بالضبط لمستُ لديه نوعاً من الإنهاك ومن فقدان الشغف؛ ومتى بالضبط استعاد قَدْراً من الحزم والقسوة في أحكامه، ذلك الحزم والصرامة التي أعادت إلى ذهني شخصية والدته ... كانت زوجتي سليلة عائلة من جباة ضرائبِ الإقطاعيّيْن، وكان هؤلاء أناس تمكّنوا، بشكلٍ من الأشكال، من تحرير أنفسهم من رِبقة الشباك التي رماها عليهم الجنرال موري(*) في الفترة ما بين 1927 و 1930 ... إيه، نعم، لم تكن زوجتي تُحبّ المقابل الآخر ... وربمّا كان من الأصحّ القول بأنّها لم تكن تفهم الأمور. ولَمْ يَسعَ أحد إلى إفهامها، وأنا سعيتُ أقلّ بكثيرٍ من أيّ شخصٍ آخر لإفهامها الأمور ... لكنْ، عمَ كنّا نتحدّث؟

- عن ابنكَ.

- أجل، ابني ... كان ذكيّاً. لكنّ ذكاءَه كان هادئاً ووئيداً. كان يحترم كلمة الشرف ... وربمّا استقى من جانب والدته منطق الارتباط بالأرض، فوالد زوجتي كان يعيش في أرضه في الريف حياة بدائية، وهكذا كانت زوجتي؛ و كان ابني مثلهما بالضبط، لكنْ، مع قَدْرٍ من الوعي الثّقافيّ. أعتقد بأنّه كان شابّاً، رجلاً مثل أولئك الذين يمكن

---

*) الجنرال تشيزيري موري الذي أرسله الديكتاتور موسّوليني إلى صقليّة في الفترة (1927 - 1930) ومنحه مُطلق الصلاحيات لمكافحة المافيا.

تسميتهم بالبسطاء، لكنّهم، هؤلاء البُسطاء، أُناسٌ في غاية التعقيد، في واقع الحال ... ولهذا السبب لم يُعجبني عندما أولج نفسه في صلب تلك العائلة الكاثوليكيّة. بزواجه من إحدى بناتها ... أُسمّيهم بالكاثوليكيّينْ فقط لغرض التسمية، لأنّني لم أصادف طوال عمري، وقد بلغتُ التسعين، كاثوليكياً حقيقيّاً ... فهناك أُناسٌ مضغوا ما يربو على طُنٍّ من القمح المُحَوّل إلى رقائق خبز الغفران(*)، ومع ذلك، فهُم على أُهْبَةِ الاستعداد لإيلاج أكفّهم في جيوب الآخرين لسرقتهم، أو أن يركلوا بأقدامهم وجه إنسانٍ يعاني من سكرة الموت، أو أنْ يُطلقوا النار على كبد إنسان ينعم بالعافية ... هل أُتيح لكَ التّعرّف على كنّتي، وعلى أقاربها؟

- ليس عن كثب.

- أنا لا أعرفهم على الإطلاق. التقيتُ بكنّتي بضع مرّات. ومرّة جاءت لزيارتي برفقة ابني وعمّها، رجل الكنيسة ذاك، أو ما شاكل، ما هو دوره؟

- إنّه الراهب الأقدم في الكنيسة.

- رجلٌ عذب الشّخصيّة للغاية. كان يسعى إلى هدايتي صوب الكنيسة. ولحسن الحظّ كانت زيارته عابرة، وإلاّ كان سينجح في مسعاه، وكان سيحملني صوب القدّاس دون دراية منّي ... إنّه رجلٌ ذكي، لكنّه كان عاجزاً حقّاً عن الإدراك بأنّني إنسانٌ مؤمن ... أوَترى كنّتي جميلةً حقّاً، ألا ترى ذلك؟

---

*) كمٌ هائل من القمح للإشارة إلى مقدار التظاهر بالتّديّن لدى هؤلاء، في حين يُخفون ويقترفون أطناناً من الكبائر.

- نعم، هي جميلةٌ للغاية.

- أو بالأحرى هي من نوع النساء، الذي كنتُ أُسمّيه في شبابي: "الصالحات للفراش" وباستقلالية كاملة دون الأخذ في الاعتبار بأنّه يتحدّث عن زوجة ابنه الذي توفيّ للتّوّ، حرّك يَدَيْه، ليصف بهما جسد امرأة مستلقية على السرير. أعتقد بأنّ هذا التعبير ما عاد يُستخدَم الآن، فقد أُقصيت المرأة من أجواء الغموض السائد حول مخدع الحريم، وأيضاً من أسرار الروح. هل تعلم بما يدور في خلدي الآن؟ أعتقد بأنّ الكنيسة الكاثوليكيّة تُسجِّل في هذه الفترة انتصارها الأكبر. فقد صار الرجل، أخيراً، كارهاً للمرأة. لم تكن الكنيسة قد تمكّنت من ذلك حتّى في العقود الأكثر ظلاميّةً وقتامةً. لقد تمكّنَتْ من ذلك اليوم. وإذا ما استفسرتَ عن ذلك من عالم لاهوتٍ، فإنّه سيُفسّر الأمر بأنّه انتصارٌ للعناية الإلهيّة. كان الرجال فيما مضى يؤمنون بالجنس وبمبادئ الحرّيّة، لكنّهم بلغوا الآن نهاية الخندق الذي لا خروج منه.

- ربمّا كان الأمر كذلك ... لكنْ، يبدو لي بأنّه لم يسبق أن حدث في العالم الكاثوليكي شيء يُشبه ما يحدث الآن، فعندما يجري الترويج للأشياء والبضائع باستخدام جسد المرأة، ويُعرض ذلك الجسد ويُستغَلّ كوسيلة لجذب الانتباه عبر جمالها في الإعلان التّجاريّ ...

- أحسنتَ في استخدام كلمةٍ تختزن في داخلها جوهر المشكلة. عرض جسد المرأة، بالضبط كما كان الحكّام يعرضون، فيما مضى، أجساد المشنوقين ... فقد كانوا يُريدون التأكيد بذلك على أنّ العدالة قد نُفّذتْ ... لكنْ، يبدو أنّني أُثرثر كثيراً، ربمّا عليّ أن أخلد إلى راحة قصيرة.

عدّ لاورانا تلك الجملة بمثابة التوديع من قبَل البروفيسور، فنهض ليرحل من المكان.

- لا تتحرّكْ. ابقَ جالساً في مكانكَ - قال العجوز، الذي أُفزع من فكرة أن تهرب من بين يَدَيْه بهذه السرعة واحدة من الفرص النادرة للتحاور مع شخصٍ آخر. وبدا من جديد وكأنّه خَلُدَ إلى النوم، وأغفى مُتّخذاً شكل الصورة الجانبيّة التي ستظهر بعد أعوام في النحت البارز المُعلّق على أحد جدران الجامعة في المدينة، وستحمل تحتها جملاً لوصف البروفيسور، وقد تطبع تلك الجمل ابتسامات على وجوه الطَّلَبَة الذين رفعوا رؤوسهم للنظر إليها. "سينزلق إلى الموت على هذه الطريقة"، فكّر لاورانا. وبقي متسمّراً في مكانه محدِّقاً فيه بقَدْرٍ من القلق، حتّى اللحظة بدأ فيها العجوز بالكلام دون أن يُحرِّك ساكناً، وقال - بعض الأمور، بعض الأحداث، من الأفضل تركها في الظّلمة التي تلفّها ... خذْ هذا كمثالٍ أو حتّى قاعدة.

الميت قد مات وانتهى، فَلْنُعنْ مَنْ بقي على قيد الحياة. لو أنّكَ طرحتَ هذا المثال على رجل قادم من الشمال(*)، فإنّه سيتخيّل نفسه في الحال أمام حادث نتج عنه هلاك شخص وجَرحِ شخصٍ آخر. لذا فإن من المنطقي أن يتجاهل مَنْ مات ويُركّز تفكيره وجهده بالكامل على إنقاذ الشخص الجريح. أمّا الصّقليّ الذي يُشاهد ميتاً وقاتلاً. ومَنْ بقي على قيد الحياة، في هذه الحالة، هو القاتل نفسه، وإذا ما تساءلنا عن مغزى الميت بالنسبة إلى الصّقليّ، فإنّنا نجد

*) ما هو معروف منذ زمن طويل هو الاختلافات الكبيرة في التفكير وفي البنية الاجتماعية والبيئية والثّقافيّة ما بين "جنوب" إيطاليا "وشمالها".

توصيفاً دقيقاً لذلك عند دي . إيتش. لورينس(*)، الذي أسهم في إحالة إيروس إلى طريق مسدود. فليس الميت، في هذه الحالة، إلّا روحاً معذّبة مثيرة للضحك في المطهر، دودة صغيرة بملامح بشريّة، تتقافز فوق حجارة الجحيم الملتهبة(**) ... لكنه، عندما يكون الميتُ من دمنا، فإنّ من البديهي والواجب بذل الجهود كلها حتّى يلحق به القاتل في أسرع وقت، ليَصْلى بدوره في نار المطهر ... أنا لستُ صقليّاً إلى هذه الدرجة. لم تكن لديّ أبداً أيّةُ ميولٍ لتقديم هذا النوع من العون إلى الأحياء، أي إلى القَتَلَة، وقد اعتبرت على الدوام بأن السجون هي المطهر الحقيقي والأنسب للبشر المذنبين ... لكنّ هناك، في النهاية التي آلَ إليها ابني، شيئاً ما يدفعني إلى التفكير بالأحياء، وهو ما يولّد لديّ قَدْراً من القلق على الأحياء.

- هل الأحياء هنا هم القَتَلَة؟

- كلّا، لم أُفكّر بأولئك الأحياء، الذين أسهموا مباشرة وبشكل عملي في عملية القتل، بل بالأحياء الذين دفعوه إلى الشعور بالاستياء من الحياة، وإلى أنْ يكون شاهداً على بعضٍ من الأمور في الحياة، أو أن يمارس أموراً أخرى ... في عمرٍ كسني عمري، ومَنْ يصل إلى هذه السّنّ، ترسخ لديه القناعة بأنّ الموت ليس إلّا فعلاً ناتجاً عن القناعة

---

*) David Herbert Lawrence، المعروف بـ دي إتش لورينس (1885 - 1930) قاصّ، شاعرٌ وكاتب إنجليزي...65 / 2.

**) أقام دي إتش لورينس في إيطاليا لفترة طويلة، وعُني بثقافاتها وبيناتها الشّعبيّة، وترجم رواية "المعلّم دون جيزوالدو" للكاتب الصّقليّ جوڤنّي ڤيرغا، من اللغة الصّقليّة، وقدّم له بمقال تقديمي. والإشارة الواردة هنا هي استشهاد غير مباشر لما ورد في ذلك المقال. وتُعبّر الجملة الواردة على لسان البروفيسور روشو عن التجسيد الصّوريّ للمطهر بالمنظور الشّعبيّ الصّقليّ.

الشّخصيّة؛ وهي فعلاً، في حالتي هذه، عبارة عن رغبة شخصية صغيرة للغاية، فقد أجزع في لحظة ما، من الاستماع إلى صوت هذا - وأشار بيده إلى الغرامافون(*) -، أو أجزع من ضوضاء المدينة، من الطاهية التي تُردّد في مسامعي منذ ستّة شهور أُغنيّة "بدمعةٍ سالت على خَدّي"(**)، أو قد أجزع من كنّتي الأخرى التي لا تَني، منذ عشرة أعوام، تسأل عن صحّتي في كلّ صباح، على أمل مُلفّع في أن تستمع أخيراً إلى الأجمل من بين ما ترتجيه من أخبار، أي انتقالي إلى عالم السكينة النّهائيّة. وسأُقرّرُ الموت، سأفعل ذلك بالضبط كما يفعل المرء عندما يُعيدُ سَمّاعةَ الهاتف إلى مكانها، ويُغلق الخطّ، عندما يكون على الطرف الآخر مَنْ يُثير الإزعاج أو مَنْ هو بليد ... لكنّي أرغب أن أُضيف لكَ أمراً آخر. أبالإمكان أن يكون لدى رجلٍ ما، خبرةٌ وألمٌ، أن تتكوّن لديه فكرةٌ، أو أن يعيش حالة نَفْسيّة، يكون فيها الموت، في النهاية، عبارة عن أحد الأمور الشكليّة فحسب. وعليه، إذا ما كان هناك مسؤولون عن الجريمة، فإن على من يتحرّى عن أولئك المسؤولين، أن ينظر إلى الأقربين. وفي الحالة التي تختصّ ابني، فإن من الضّروريّ البدء بي أنا، والده، فالأب مُذنبٌ، على الدوام. كانت عيناه المنطفئتان تغوران في الماضي البعيد، وفي الذكريات، وكما ترى، فأنا أيضاً واحدٌ من الأحياء الذين ينبغي تقديم العون إليهم.

وابتدأ لاورانا بالشّكّ حول ما إذا كان في ما يقوله العجوز معنىً مزدوجاً؟ أم أنّها عبارة عن حدسٍ غامض ومتألّم؟ سأل العجوزَ.

---

*) يعني الممثّل الذي يؤدّي الكوميديا الإلهيّة.

**) أُغنيّة اشتُهرت في صيف عام 1964 وغنّاها المطرب بوبيّ سولو، وربمّا يأتي هذا الاستشهاد أيضاً لوضع أحداث القصّة في مرحلة زمنيّة مُحدّدة.

- وهل يدور في خَلَدِك أمرٌ ما بالتحديد؟

- أوه، لا، لا شيء بالتحديد. أُفكّر بالأحياء، كما قلتُ لكَ. وأنتَ هل تفكّر بأمرٍ ما؟

- لا أدري حقّاً - قال لاورانا.

ونزل صمت ثقيل فيما بينهما. نهض لاورانا للانصراف. مدّ العجوز إليه يده لتحيّته. قال - إنّها مشكلةٌ حقيقيّة - ربمّا كان يعني بذلك جريمة القَتْل، أو ربمّا كان يعني بأنّ الحياة نفسها مشكلة.

9

عاد إلى البلدة في نهاية شهر سبتمبر. ولم يكن هناك أيّ جديد حول القضيّة، كما أعلمه بذلك المحامي روزيلّو. في النادي، ساحباً إيّاه إلى جانبٍ، كي يتجنّب سقوط كلماته على أسماع الكولونيل المتقاعد الرهيب. لكنْ، كان لدى لاورانا ما هو جديد يرويه لروزيلّو. اللقاء مع البرلماني، وقصّة ملفّ الوثائق التي كان الدكتور روشو وعد بتسليمها إلى البرلماني شريطة تفجير الفضيحة.

دُهش روزيلّو. استمع إلى رواية لاورانا مردّداً لأكثر من مرّة - أيُعقل هذا؟! - ثمّ بدأ يدور حول الموضوع محاوِلاً معرفة المزيد عبر الأسئلة التي طرحها، وعبر تذكّر إشارات أو كلمات للطبيب روشو، يمكن ربطها بتلك القصّة الغريبة التي كان يستمع إليها.

- تصوّرتُ بأنّكَ تعرف شيئاً بهذا الخصوص - قال لاورانا.

- شيئاً ما؟ أكاد أُجنّ من الذهول.

- ربمّا يُفسّر ذلك بأنّه كان ينوي الهجوم على إحدى الشّخصيّات من حزبكَ. ولم يكن راغباً في إطلاعكَ، كي لا تسْعى إلى ثَنْيِهِ عن الخطوة. كان عنيداً كما تعرف، لكنّه، أيضاً كان قابلاً للانصياع. لو أنّكَ علمتَ بالموضوع، فلربمّا سعيتَ إلى تحقيق الوئام. لم يكن

بمقدوركَ، بالطبع، أن تقف مكتوف الأيدي إزاء هجومٍ ضدّ أحد رجالات حزبكَ، وبالتالي ضدّ الحزب نفسه ...

- حين يتعلّق الأمر بأحد أفراد العائلة، لن يقف الحزب في وجهي(*)، لو أنّه استعان بي، فإنّه كان سيجد الردّ الذي يطمح فيه.

- ربمّا لم يكن راغباً بالذات في هذا. أي ألّا يتعرّض موقعكَ في الحزب إلى الضرر بسبب أمرٍ كان يخصّه هو فحسب. وبالفعل فقد قال للبرلماني بأنّ الأمر شخصي، وفي غاية الحساسيّة.

- حسّاس وشخصي ...! لكنْ، هل أنتَ متأكّدٌ بأنّه لم يفصح عن اسمٍ ما، أو أنّه منح مؤشّراً ما، يمكن تحديد ملامح ذلك الوجيه، حتّى ولو بشكل سطحي؟

- لا شيء من هذا إطلاقاً.

- هل تعلم ما الذي سأفعله؟ سأُهاتف ابنة عمّي. ولنذهب لزيارتها معاً. ربمّا أسرّ بشيء ما إلى زوجته ... تعال.

توجّها إلى هاتف النادي. وتحدّث روزيلّو مع ابنة عمّه، وأخبرها بأنّ البروفيسور لاورانا سيأتي معه أيضاً، وهو مَنْ حصل على هذه المعلومات، المعلومات الغامضة، وربمّا كانت هي الوحيدة قادرة على فَكّ رموزها أو تفسيرها؛ وإذا لم يكن الأمر يُزعجها، فإنّهما سيصعدان إلى منزلها لبرهة من الوقت، في هذه الساعة غير المناسبة.

- لنذهب - قال روزيلّو وهو يضع سمّاعة الهاتف في مكانها.

---

*) بمعنى أنّه لا قيمة للحزب إزاء الآصرة العائلية بين روزيلّو وروشو.

كانت السّيّدة تضع يدها على القلب، بقلق واضح لمعرفة ما يحمله البروفيسور من أخبار. دُهشت من معرفة النبأ عن زيارة زوجها لروما، وهي تُحدِّق بابن عمّها - ربمّا ذهب إلى روما في الأيّام التي قال إنّه سوف يذهب فيها إلى پاليرمو، قبل الحادث بأسبوعَيْن أو ثلاثة - لكنها لم تكن قادرة على معرفة أيّ شيء آخر. نعم، ربمّا كان زوجها قد بدا في الآونة الأخيرة غريب الأطوار شيئاً ما، كان يشعر قلق كبير، ويُعاني من صداعٍ متكرّر.

والده أيضاً، البروفيسور العجوز روشو، قال لي بأنّ ابنه بدا له متغيّراً في الآونة الأخيرة.

- وهل التقيتَ والدَ زوجي؟

- ذلك العجوز المرعب - قال روزيلّو.

- نعم، ذهبتُ لزيارته ... يعاني من حالات فقدانٍ للتركيز، لكنّه ما يزال يقظاً ... وبإمكاني القول بأنّه في غاية القسوة والحزم في مواقفه.

- إنّه رجل دونما إيمان - قالت السّيّدة - كيف بإمكان إنسان أن يعيش دونما إيمان.

- ذهنياً هو في غاية القسوة، أعني، أمّا في ما يتعلّق بالإيمان، فأعتقد بأنّه إنسانٌ مؤمن.

- لا إيمان لديه - قال روزيلّو - إنّه مُلحدٌ حتّى الرمق الأخير، وهو ممّنْ لن ينكسر عنادهم حتّى في لحظة الموت.

- ومع ذلك فإنّني لا أعتقد بأنّه مُلحد - قال لاورانا.

- إنّه مناهضٌ لسلطة الكنيسة - قالت السّيّدة - لقد ذهبنا لزيارته مرّة برفقة عمّي الراهب الأقدم ... آه لو تعلم بما كان يقوله! كنتُ أشعر بالقشعريرة، صدِّقني - قاطَعَتْ ما بين ذراعَيْها العاريَتَيْن الجميلَتَيْن، كما لو أنّ القشعريرة ما تزال تنتابها حتّى تلك اللحظة.

- وما الذي قال؟

- نطق بأشياء، لن أقدر على تكرارها أبداً. أشياء لم أسمع بها قطّ في حياتي ... وكان عمّي المسكين دائم الإمساك بالصليب الصغير المعلّق برقبته، وكان يتحدّث معه عن الغفران والمحبّة ...

- لقد أخبرني بالفعل بأنّ الراهب الأقدم شخص في غاية العذوبة.

- ذلك أقلّ ما عليه أن يقول - قالت السّيّدة.

- العمّ الراهب الأقدم قدّيس - سارع المحامي روزيلّو إلى القول.

- كلّا، هذا ما لا يمكن قوله، أو بالأحرى لا ينبغي قوله - قالت السّيّدة مؤكّدة - ليس بإمكاننا نحن أن نفعل ذلك ... للعمّ، الراهب الأقدم، وكلّ ما بإمكاننا قوله، بأنّ له قلباً واسعاً يُذكِّر بالقدسية.

- كان زوجكِ - قال لاورانا - كثير الشبه، جسدياً، بوالده. وفي طريقة تفكيره شيئاً ما.

- شبيه بذلك العجوز الهرم؟ - كلّا، أرجوكَ، لا تقلْ ذلك ... لقد كان لدى زوجي احترامٌ كبير للعمّ الراهب الأقدم، وللكنيسة. كان يرافقني إلى الكنيسة لحضور القدّاس كل يوم أحد. وكان يحترم

تقاليد يوم الجمعة(*). كما لم يخطر بباله في يوم من الأيّام أن ينطق بالهرطقةً، أو أنْ تعبر ذهنه شكوك حول القناعات الدِّينيّة ... وأنا، بقَدْر ما كنتُ أُحبّه، هل تعتقد بأنّني كنتُ سأتزوّجه، لو خطر ببالي أيّ شكٍّ في الشبه بينه وبين والده؟

- في الحقيقة - قال روزيلّو - لقد كان رجلاً عَصيّاً على الفَهْم. لا أحد، ولا حتّى زوجته، قادرة على التأكيد حول طريقة فَهْمه للدِّين وللسياسة. لا أحد بإمكانه الجزم في هذا الأمر ...

- ما هو مؤكّد هو أنّه كان شديد الاحترام - قالت السّيّدة.

- نعم، أؤكّد بأنه كان شديد الاحترام ... لكنْ، ممّا أبلغنا به لاورانا الآن، يظهر بجلاء بأنّه كان رجلاً منغلقاً، لم يكن يُسرّ بأفكاره حتّى إليكَ أنتَ، ولا يُعلِمكَ بما يُخطّط له.

- هذا صحيح - تنهّدت السّيّدة، واستدارت إلى لاورانا - لكنْ، ماذا عن والده؟ ألَمْ يُفصح لوالده عن أيّ شيء في هذا الصدد؟

- لا شيء.

- وقد قال للبرلماني بأنّ الأمر حسّاسٌ وشخصي؟

- نعم.

- ووعد بتزويده بوثائق؟

- وعده بملفٍّ كامل.

---

*) أي، كما يفعل الكاثوليك، الذين يصومون عن أكل اللحم في ذلك اليوم.

اسمعيني - اقترح روزيلّو على ابنة عمّه - أبإمكاننا أن نُلقي نظرة على أدراج طاولته، وأن نبحث ما بين أوراقه.

- أنا أرغب أن يظلّ كلّ شيء بالضبط كما تركه هو، لن تسمح لي روحي بأن أمدّ يدي على أشيائه.

- لكنها محاولة لاستيضاح الأمر، لا غير ... ثمّ، لا أدري؟ ربّما سنعرف ما إذا كان ذلك الشخص قد اقترف ظلماً بحقّه، هي محاولة للحفاظ على ذكراه وسمعته، وهو تعبير عن المحبّة التي كنتُ أشعر بها تجاهه. للبحث عن المسبّبات والوصول إلى نهاية المطاف ...

- أنتَ على حقّ - قالت السّيّدة، ونهضت. كانت رفيعة القوام ممشوقة القَدّ، وكان ثدياها بارزَيْن، وذراعاها عاريَتَيْن حتّى الإبط. كانت كَمَنْ تُحلّق على جناحَي عطرٍ بالينتشاغا(*)، لكنْ، كان بإمكان أنفٍ خبيرة (وشخصيّة أقلّ التهاباً من لاورانا في تلك اللحظة) من فصل أريج العطر ذاك عن رائحة العَرَق. حامت حول رأس البروفيسور للحظة كما لو أنها تمثال فيكتوريا ساموتراسيا(**) وهي تعتلي سلالم متحف اللوڤر.

قادت السّيّدة الرجلَيْن إلى مكتب زوجها، وهي غرفة معتمة ومُقبضة للنَّفْس شيئاً ما، وقد بدت كذلك بسبب النور الساقط على الطاولة تاركاً على الرفوف المزدحمة بالكُتُب ظلالاً قاتمة. كان هناك كتابٌ مفتوح على الطاولة - كان يقرؤه - قالت السّيّدة. وضع

---

*) عطرٌ فرنسي يحمل اسم مصمّم أزياء إسباني كان يُقيم في باريس.

**) تمثال "فيكتوريا " المنحوت بإزميل مجهول في رودوس باليونان في سني 200 - 180 قبل الميلاد، وهو محفوظٌ في متحف اللوڤر في باريس.

روزيلّو إصبَعَيْن ما بين الصفحَتَيْن المفتوحَتَيْن كإشارة، ورفع الكتاب ليقرأ عنوانه - رسائل إلى السّيّدة زد ... ما هو هذا الكتاب؟ - استفسر من لاورانا.

- إنّه في غاية الأهمّيّة، وهو من تأليف كاتب بولندي.(*)

- كان يقرأ كثيراً - قالت السّيّدة.

وبرفق أكبر ممّا كان قد استخدمه في لحظة رفعه، أعاد روزيلّو الكتاب المفتوح على الطاولة.

- لنُشاهد أوّلاً الأدراج. قال، وفتح الأولى.

انحنى لاورانا على الكتاب المفتوح، وقفزت إلى عينَيْه جملةٌ تقول - وحده، الفعل الذي يُضيرُ بنسق منظومةٍ ما، يضع الإنسان تحت كشّاف الضياء القاسي للقانون - ووسّع رؤيته على الصفحة بأسرها، كما لو أنّه يوسّع حدقة عينَيْه، ودون تمريرها على أسطر الكتاب، تعرّف على المكان الذي قيلت فيه تلك الكلمات، وعلى الظرف الذي قيلت فيه. فقد كان الكاتب يتحدّث عن ألبير كامو، وعن رواية الغريب(**). "نسق منظومةٍ ما! وأين هي المنظومة هنا؟ هل كانت هناك منظومةٌ ما حقّاً، أم هل ستكون أبداً؟ فأنْ تكون غريباً في ظل الحقيقة أو تحت وطأة الخطيئة أو في ظلّ كليهما، فذلك ترفٌ يمكن

---

*) الكاتب البولندي كازميرز براندير، المولود في عام 1916. وكتاب "رسائل إلى السّيّدة زد" سلسلة من المراسلات والمقالات.

**) آلبير كامو (1913 - 1960) كاتب فرنسي، ألّف العديد من الأعمال، من بينها رواية "الغريب"، والتي يجد بطلها ميرسو نفسه بالصدفة حبيس حبائل قضيّة قضائية، ويتعامل مع الوضع باستسلام غريب تاركاً لماكنة لأحداث تدوس عليه.

التّمتّع به في ظلّ وجود منظومةٍ ما فحسب. وإذا ما اعتبرنا الوضع الذي صُفِّي في ظلّه المسكين روشو، منظومةً بحد ذاته. فسيكون الإنسان غريباً وهو في في موقع الجلاد أكثر من كونه كذلك وهو في موقع الضّحيّة. و في الحقيقة، هو أكثر غُربةً عندما يُمسك بمِقود تفعيل المقصلة، وأقلّ منها وهو مستلقٍ تحت موسى المقصلة".

شاركت السّيّدة بدورها في البحث ما بين مخلّفات زوجها من الوثائق. كانت قد افترشت الأرض أمام الدرج الأدنى لطاولة زوجها، يُضيئها نور المصباح، ويترك على جسدها نقوشاً على شكل ظلال متراقصة. تراءت للاورانا عاريةً بوجهها الغائر في غموضِ كومة الشَّعْر الفاحم، وهكذا ذابت أفكاره في عُتمة شمس الرغبة(*).

أغلقت السّيّدة الدرج، ونهضت واقفة على قائمَيْها بقفزة رشيقة راقصة. - لا شيء - قالت، لكنْ، دونما خيبة أمل، وكما لو أنّها تحرّت في تلك الأوراق لمجرّد الاستجابة إلى رغبة ابن عمّها، و- لا شيء - قالها روزيلّو أيضاً، بالنبرة ذاتها، وهو يُدخِل الملفّ الأخير للأوراق والوثائق في مكانها في الدرج.

- ربمّا كان يمتلك صندوقاً سرّيّاً في أحد البنوك، أو شيئاً من هذا القبيل - قال لاورانا.

- أنا أيضاً فكّرتُ بهذا الاحتمال - قال روزيلّو - وغداً سأحاول معرفة المزيد.

- مستحيل. هو كان يعرف جيّداً بأنّ لا أحد يلمس أشياءه، كُتُبه

---

*) التقاءُ نقيضيْن، العتمة والشمس، كتعبير عن الرغبة الجنسية التي كانت تلتهب في داخل لاورانا، والانغلاق المظلم للسّيّدة في تلك اللحظة.

وأوراقه؛ الجميع، بمَنْ فيهم أنا. كان حازماً في ذلك للغاية - قالت السّيّدة، بنبرة مَنْ يحاول الإيحاء بعدم كونها هي، حازمة.

- من المؤكّد أنّ ثمّة سرّاً وراء هذا كلّه - قال روزيلّو.

- لكنْ، هل تُصدِّق أنتَ بأنّ لحكاية هذا البرلماني الشّيوعيّ، وللوثائق أيّة صلة بمقتله؟ سألتْهُ ابنة عمّه.

- لن يمرّ ذلك ببالي حتّى ولا في الأحلام - واستدار إلى لاورانا - وما هو رأيكِ أنتِ؟

- ومَنْ يستطيع تأكيد أو نفي ذلك؟

أوه - هتفت السّيّدة - وإذاً، أنت تعتقد بأنّ ...؟

- كلاّ، أنا لا أرى الأمر بهذا الشكل ... بما أنّنا بلغنا هذه المرحلة، وبما أنّ الشرطة دخلت دهليز المغامرات الغرامية المُتخيّلة للصّيدليّ، فإنّ الاحتمالات جميعها ممكنة.

- الرسالة؟ رسالة التهديد التي استلمها الصّيدليّ. وأين تضع تلك الرسالة؟ - سأل روزيلّو.

- أجل، بالفعل، الرسالة؟ شدّدت السّيّدة.

- أضعها - قال لاورانا - في حساب براعة المكر لدى القَتَلَة. اختاروا الصّيدليّ كهدفٍ وَهْمي وزائف، يفيد للتغطية.

- وهل تؤمن بذلك حقّاً؟ - سألت السّيّدة بقَدْر من الدهشة والقلق.

-لا، لا أؤمن بذلك.

انشرحت أسارير السّيّدة "كانت قد التصقت مقتنعةً تمام الاقتناع بفكرة أنّ زوجها قُتل بسبب الصّيدليّ، وكانت واثقةً بأن أيّة فكرة أخرى ستُشوه ذكراه، واسمه". فكّر لاورانا في سرّه. وأنّب نفسه لكونه تسبّب لها بالقلق عبر ما جال في ذهنه من افتراضات، رُغم أنّه لم يكن يعتبر تلك الافتراضات، في الحقيقة، افتراضات واهية بالكامل.

10

- وجيهٌ يَرشي، ويحيك الدسائس وينهب ... بمَنْ يمكن أن تُفكّر أنتَ شخصياً؟

- في البلدة؟

- ربمّا في البلدة، في المنطقة أو ربمّا في المحافظة.

- إنّكَ تعرض عليّ مشكلة عويصة - قال راهب كنيسة سانت آنّا - لأنّنا إذا ما حدّدنا الدائرة بالبلدة فقط، فحتّى الأطفال الصغار الذين لم يُولَدوا بعد، سيُجيبون على سؤالكَ دون تردّد، لكنْ، إذا ما وسّعت الدائرة إلى المحافظة، فستُغرقكَ الفوضى، وتُصاب بدوار في الرأس ...

- وإذاً لنتحدّد بالبلدة - قال لاورانا.

- روزيلّو، المحامي روزيلّو.

- مستحيل.

- وما المستحيل؟

- أن يكون هو ذلك الشخص.

- أن يكون هو مَنْ يرشي، ينهب وُيحيك الدسائس؟ ... وإذاً، فلتُعذرني بأن أُخبركَ بأنّكَ تعيش معمي البصر.

- لا، لا ... كنتُ أعني. أن يكون الشخص الذي تحدّثتُ معه قد أشار إليه، بالذات. مستحيل.

- ومَنْ هو الشخص الذي تحدّثتَ معه؟

- ليس بإمكاني ذِكْر اسمه الآن - قال. وقد احمرّ وجهه، وتهرّب من ناظرَي الراهب، وقد أصبحت تلك النظرات أكثر حِدّةً.

- لكنْ، عزيزي البروفيسور. لنَقُلْ بأنّ هذا الشخص لم يُفصح لكَ عن اسم ذلك الوجيه، وأخفى عنكَ اسم البلدة، لكنّه، بالتأكيد، أورد لكَ بعض المواصفات التي تنسجم مع أولئك "الوجهاء". فباستثناء أولئك الذين حُبسوا ويقبعون في غياهب السجون الآن؟ ثمّة ما يزيد عن عشرة آلاف شخص تنطبق عليهم مواصفاتكَ، وأنتَ تُريد أن تَسْتَلّ من بين هؤلاء اسم الوجيه الذي في ذهنكَ؟ - ابتسم الراهب بقَدْرٍ من التعاطف مع البروفيسور، ومن الإشفاق عليه.

- في حقيقة الأمر، اعتقدتُ بأنّ الشخص، الذي ليس بإمكاني ذِكْر اسمه الآن، أشار إلى شخص من البلدة ... لكنْ، إذا ما كنتَ أنتَ تقول بأن في البلدة شخصاً واحداً، تنطبق عليه هذه المواصفات، وهو المحامي روزيلّو ...

- روزيلّو هو الشّخصيّة الأكبر التي يذهب الذهن صوبها في الحال، وهو الوحيد الذي يمكن أن يندرج تحت مُسمّى الوجهاء في

البلدة، إذا ما توخّينا الدّقّة. ثمّ هناك بعض الصغار؛ وثمّة مَنْ يمكن أن يُدرِجني أنا أيضاً ضمن صغار الوجهاء ...

- لكنْ، لا! - احتجّ لاورانا دونما اقتناع مُطلق.

- في حين، أقول لكَ نعم، وربّما كان مُحقّاً في ذلك ... لكنّي أُشدّد لكَ بأنّ روزيلّو هو الأضخم بالمطلق ... ألدَيْكَ فكرةٌ واضحة عمّنْ يكون روزيلّو بالتحديد؟ أعني هل تعلم بحبائله، بموارده، وبما ظَهَرَ أو خَفِيَ من سطوته؟ من اليسير جدّاً أن تتكوّن لديكَ عنه فكرة ما على الصعيد الإنساني. فهو بليدٌ، لكنْ، دون أن يكون خالياً من المكْر، شخصٌ قد يدوس على جثّة أيّ مخلوقٍ آخر، فقط للحفاظ على وظيفة عامّة أُوكلَت إليه (وهي مهمّة عالية المورد بالطبع) ... وسيَستثني من بين تلك الجثث، جثّته هو أو جثّة عمّه الراهب الأقدم، بالطبع .

- أعرف أيُّ كائنٍ هو، لكنْ، ليست لديّ فكرةٌ واضحة عن سلطته. أنتَ، بالتأكيد على اطّلاع أوسع منّي بذلك.

- نعم، أنا على اطّلاع، بالتأكيد، على اطّلاع! ... وهاك بعض المعلومات. روزيلّو عضوٌ في مجلس إدارة مؤسّسة فوراريس، وهذا ما يعني خمسمائة ألف ليرة شهرياً، وهو مستشارٌ اختصاصي لفوراريس نفسها، وهذا ما يعني مليونيَ ليرة، تقريباً، كلّ عام؛ عضو في مجلس إدارة بنك تريناكريا، وهذا ما يعني مليونَيْن آخرَيْن، عضو في الهيئة التنفيذيّة لمؤسّسة ڤيشيريس(*)، وهذا ما يعني خمسمائة ألف ليرة

*) هذه المسمّيات جميعها للمؤسّسات إنّما هي مسمّيات مُختلقة.

نهاية كل شهر؛ وهو رئيس لشركة استخراج المرمر الثمين، والمُموَّل من قبَل مؤسّسة فوراريس وبنك ترِيناكريا، وتعمل هذه الشركة، كما يعلم الجميع، في منطقة لن تعثر فيها على قطعة واحدة من المرمر الثمين، حتّى لو حملتَها إلى هناك بنفسكَ، وذلك لأن قطعة المرمر تلك ستغرق ما تحت الرمال؛ وهو أيضاً عضو في مجلس المحافظة، وهي مهمّة غير مربحة على الصعيد المالي، لأنّ مكافآت حضور الجلسات تكفيه بالكاد لدفع البخشيشات إلى بوّابي مجلس المحافظة، لكنّها مهمّة ضرورية على صعيد الوجاهة السّياسيّة ... هل تعلم بأنّه هو مَنْ تمكّن من تحويل مسار رفاق حزبه في مجلس المحافظة من التحالف مع الفاشيّيْن إلى التحالف مع الاشتراكيّيْن، وهذه هي التجربة الأولى، على الإطلاق، في هذا الإطار في إيطاليا بأسرها ... ولذا فهو يحظى أيضاً بالتقدير من قبَل الاشتراكيّيْن؛ وسينال أيضاً تقدير الشّيوعيّيْن، إذا ما حدث أيّ انتقال لأغلبية قادة حزبه صوب اليسار. وسيتمكّن، حتّى في مثل هذا الوضع، من استباق الزمن ... بإمكاني فقط أن أقول لكَ، بأنّ الشّيوعيّيْن في المحافظة صاروا ينظرون إليه بنظرات مليئة بالآمال ... ولنأتِ الآن إلى مصالحه الشّخصيّة، والتي أعرفها بشكلٍ جزئي فقط. مناطق قابلة للبناء السّكنى في مركز المقاطعة، ويُقال بأنّ له مثلها في پاليرمو أيضاً؛ يُمسك في قبضَتَيْه بشركَتَيْن للإنشاءات؛ مطبعة تعمل بشكلٍ متواصل مع المؤسّسات الرّسميّة جميعها؛ شركة للنقليات؛ ثمّ هناك أعمال أخرى غامضة. وهنا هو الموقع الذي يُصبح في غاية الخطر لمَنْ يدسّ فيه أنفه، حتّى لو جاء ذلك ممّنْ امتلك فضولاً بريئاً ... أُخبركَ بشيء واحد فحسب. لو أنّ

أحدهم أشّر إليّ بأنّه يُمسك في قبضته تجارة الرقيق الأبيض أيضاً، فأنّني سأُصدِّق بذلك، حتّى وإن لم يُؤدّوا لي اليمين عليه.

- لم يكن لشيءٍ من هذا كلّه ليَخطر على بالي - قال لاورانا.

- بالطبع ... أنتَ تعرف كيف تسير الأمور؟ لقد قرأتُ مرّة في كتاب فيلسوف عن النظرية النّسبيّة، ما معناه أنّنا عندما لا نرى بالعين المجرّدة أقدام الديدان التي تدبّ داخل قطعة من الجبن، فإنّ ذلك لا يعني بأنّ الديدان نفسها لا ترى تلك الأقدام المجهرية ... أنا دودة من داخل قطعة الجبن تلك نفسها، وأرى أقدام الديدان الأخرى.

- مقاربة لا تخلو من المُتعة.

- ليست ممتعة أبداً - قال الراهب، وقد علت وجهه إيماءة دالّة على القرف - فنحن مُحاطون دائماً بالديدان ...

كادت تلك الجملة أن تُوصِل لاورانا إلى حافّة المكاشفة الصداقيّة مع الراهب. ماذا لو أنّه روى للراهب كلّ ما كان يعرف عن جريمة مقتل روشو؟ رجلٌ واعٍ، حادّ الذكاء وبخبرة واسعة وجريئة مثله. مَنْ يدري ما إذا كان سيعثر على المفتاح لحلّ عُقَدِ المشكلة؟! لكنّه عَدّ أن الراهب مهذارٌ، ويعشق أن يُعطي الآخرين عن نفسه صورة الرجل الحرّ، وبأنّه متحرّرٌ من المواقف المُسبّقة. وكان تضادّه العميق مع الراهب الأقدم معروفاً لدى الجميع في البلدة. وإذا ما أُتيح له الحصول على معلومات يمُكنه من خلالها إلقاء ظلال الشكوك على عائلة الراهب العجوز، فإنّه لمْ يكُنْ ليتردّد عن إثرائها وترويجها بين الناس. وكانت أحاسيس الاشمئزاز التي تُبديها والدةُ لاورانا حول الراهب الشّابّ،

تلعب دوراً في تعميق الشكوك عنه في لا وعي البروفيسور. لم تكن والدته تخفي تلك المشاعر. وكانت تصف سلوك الراهب الأقدم بالقدسية مقابل ما تسميّه بـ "بذاءة الراهب الشّابّ".

- إذا ما استثنينا روزيلّو، فَمَنْ هو يا تُرى، في المحافظة، مَنْ تنطبق عليه تلك المواصفات؟

- دعني أُفكّر - قال الراهب. ومن ثمّ تساءل - هل لنا أن نستثني البرلمانيّيْن والسيناتورات؟

- لنستثنِهم.

- وإذاً، فبالإمكان أن نذكر الكومينداتور فيديلي، المحامي لافينا، الدكتور ياكوبيتّي، المحامي آنفوسّو، المحامي إيفانجيليستا، المحامي بويانو، البروفيسور كارميلاتو، المحامي مانكومير ...

- إنّها مشكلة عَصيّة على الحلّ، على ما يبدو.

- أيْ. نعم. عَصيّة على الحلّ. لقد أخبرتُكَ بذلك من قبل ... إنّهم كُثر، كُثرٌ. أكثر ممّا يمكن أن يخطر ببال مَنْ لا يجد نفسه داخل قطعة الجبنة التي حدّثتُكَ عنها ... لكنْ، أنتَ، اعذرني على هذا السؤال، ما هي مصلحتكَ في إيجاد حَلٍّ لهذه المعضلة؟

فضول، مجرّد فضول ... لأنّني التقيتُ شخصاً، في القطار، حدَّثني عن شخصٍ من هذه الأرجاء، صار يُثرَى عبر ما هو غير شرعي ... - وأدرك لاورانا بأنّ الكذب صار لديه يسيراً، منذ ابتدأ بالاهتمام بالجريمة التي وقعت، وكان يشعر إزاء ذلك بقَدْرٍ من القلق، كما لو

أنّه اكتشف ميولاً كانت خَفِيّةً في داخله.

آه! فهمتُ - قال الراهب، كَمَنْ يُبعثر في الهواء مشكلة صغيرة، رغمَ إدراكه المطلق بعدم كونها صغيرةً على الإطلاق.

أعتذر لأنّني أضعتُ وقتكَ - قال لاورانا.

كنتُ أقرأ مذكّرات كازانوفا(*)، أعني مذكّراته الأصيلة ... إنّها باللغة الفرنسية - وأعلن ذلك بمقدارٍ من الزهو والرضا عن النَّفْس.

لم أقرأه بعد - قال لاورانا.

ليست الاختلافات كثيرة عن النّصّ الذي نعرفه. إنها أقلّ زخرفة من ذلك النّصّ، ربمّا ... ومع الأخذ في الاعتبار بأنّ هذا النّصّ هو عبارة عن دليل للسلوك الجنسي، فإنّني أعتقد بأن الموضوع الأكثر إثارة في هذا الكتاب هو ما يلي. أن تقوم بإغواء امرأتَيْن أو ثلاثَ نساءٍ في آنٍ واحد، أسهل بكثير من إغواء امرأة واحدة بمفردها.

أحقًّا؟ - تساءل البروفيسور مندهشاً.

هذا ما بإمكاني أن أضْمَنَهُ لكَ شخصياً - قال الراهب مُريحاً كفَّه اليمنى على صدره.

مكتبة
t.me/t_pdf

*) جاكومو كازانوفا (1725 - 1798)، مغامر فينيسيٌّ، مقامرٌ ومُتحرّر من القيود الاجتماعية. كتب بالفرنسيّة "حكايات من حياتي" (1797)، وضمّنه مغامراته، ويمنح في الكتاب صورة في غاية الحيويّة للمجتمع في القرن الثامن عشر.

11

كان لاورانا يستعيد ما اختزنتْهُ ذاكرته حول علاقة روشو مع روزيلّو وتذكّر بأنّهما كانا يُحيّيان بعضهما ويتحادثان معاً حتّى لحظة وقوع الجريمة، لكنْ، دون أن يُظهرا أيّة أُلفة حميميّة كما يُفترَض ما بين الأقارب، أو الدفء المفترَض ما بين الأصدقاء. لكنّ روشو مع الآخرين كان، في الواقع، يتميّز بالبرود واللاأُباليّة، بمَنْ فيهم الصّيدليّ، الذي كان رفيقه الثابت والمُختار في رحلات الصيد. وكانت أحاديثه، بعد هذا وذاك، تقتصر على الرّدّ على الأسئلة. وبقَدْر ما كانت الجلسة واسعة الحضور كان انغلاق روشو أشدّ، وكنتَ تراه غارقاً في صمتٍ مُغلَّفٍ بالوحدة الصامته والمنشغلة. ونادراً ما كان ينفتح على حوارٍ ما، وكان يفعل ذلك فقط مع رفيق دراسة قديم مثل لاورانا، وفقط عندما يكونان لوحدهما. وفي الإمكان افتراض أنّه كان يفعل الشيء ذاته مع الصّيدليّ خلال النهارات الطويلة التي يقضيانها في رحلات الصيد.

وقد بدت علاقاته مع ابن عمّ زوجته باقية على حالها حتّى في الآونة الأخيرة. لم يكن من اليسير اكتشاف أيّ تغيّرٍ في علاقةٍ من علاقات روشو، بسبب الاقتضاب الكبير الذي ميّزه دائماً خلال أحاديثه مع الآخرين. وعلى أيّة حال فقد كان روشو وروزيلّو يتبادلان الأحاديث، وكان ذلك يحول دون بروز أيّة شكوك حول احتمال أن

يقوم روشو بتسليح مكيدة للإيقاع بقريبه، إلّا إذا كان علينا أنْ نتصوّر لدى الدكتور روشو قدرات خفيّة في المكر والخيانة. ولم تكن تلك القدرات نادرة بين أُناس تلك المنطقة، أي قدرة الإخفاء الماكر للشّرّ وللضغينة تجاه شخصٍ ما، وإصابته، في الوقت ذاته، بالأسلحة الأشدّ جبناً وقُبحاً. ومع ذلك، لم يكن لاورانا راغباً في أخذ الأمر في اعتباره أو حتّى مجرّد التفكير فيه.

وفي المرحلة التي بلغها بتحقيقاته الخاصّة، كان لاورانا يشعر بضرورة أن يهجر الموضوع بأسره، وأنْ يُقلع بشكلٍ نهائي عن التفكير فيه. شعر بأنّ عليه أن يعتبر بأنّه أمضى مع هذه القضيّة بعض الوقت، كما لو كان في عُطلة خاليةٍ من أيّ معنى. كانت السنة الدّراسيّة على وشك الانطلاق، وعليه أن يستعيد حياته اليومية المُنهَكَة، ورحلاته اللانهائية ما بين البلدة ومركز المحافظة، لأنّ أمّه لم تكن راغبة بهجر البلدة أو منزلهما الواسع، وكانت ترفض فكرة الانتقال إلى مركز المحافظة جملةً وتفصيلاً، ورغم أنّه كان يعدّ نفسه، بشكلٍ من الأشكال، ضحيةً لعناد والدته، فقد كانت عودته إلى البلدة، بعد ساعات المدرسة، وقضاء أيّامه في المنزل القديم الذي وُلد فيه، من الأمور المفرحة التي لم يرغبْ أبداً في التّخلّي عنها.

كانت مواعيد الذهاب إلى المدرسة والإياب منها مُزعجةً حقّاً. الذهاب كلّ يوم في السابعة صباحاً، والوصول إلى مركز المحافظة بعد نصف ساعة، والتجوال لنصف ساعة في المدينة بانتظار حلول ساعة الدخول إلى المدرسة، أو قضاء نصف الساعة تلك في صالة المدرّسين أو في مقاهي المدينة؛ ومن ثمّ الانتظار حتّى تحلّ الساعة

الواحدة والنصف ظهراً، ليستقلّ الحافلة، ويصل البلدة في الثانية عصراً ... وقد أصبحت تلك العادات، عاماً بعد عام، ثقيلةً للغاية، وكل عامٍ مرّ على هذه الشاكلة ترك أثقاله على كاهل الرجل.

نصحه الجميع (باستثناء والدته بالطبع) أن يتعلّم قيادة السّيّارة، ويقتني واحدةً. لم يكن مقتنعاً بأن تعلّم قيادة السّيّارة ممكن ومناسبٌ في هذا العمر، كما أنّه لم يكن واثقاً من أنّ أعصابه المشدودة وانشغالات ذهنه، (ناهيكَ عن مخاوف والدته) كانت ستُتيح له فرصة الاستفادة من هذه الوسيلة. لكنّه قرّر أن يُجرّب حظّه مع السّيّارة عندما شعر بالإنهاك وبالقلق إزاء ما يترقّبه لعامٍ كامل آخرَ من العمل في المدرسة. وعلى أيّة حال، إذا ما أثبتت تجاربه الأولى، برأي معلّم السياقة، فشل مقدراته على مواجهة هذا الأمر، أو أنّ ردود أفعاله بطيئة، فإنّه سيتخلّى عن الفكرة بشكلٍ نهائي، وسيعود صاغراً إلى عاداته اليومية القديمة.

ويبدو أنّه كان لهذا القرار البسيط دور القَدَر في حياة لاورانا، فبعد أن كان قد قرّر، بين ليلة وضحاها، أن يصرف ذهنه عن قضية مقتل روشو (والصّيدليّ أيضاً). فقد وقع ما أطلق العنان لمُعطى جديدٍ في المشكلة التي شغلت باله لأسابيع طويلة. لقاءٌ حدث على سلالم قصر العدل بالصدفة المحضة، الصدفة للمرّة الثانية، لكنّها كانت، في هذه المرّة، صدفة حُبلى بنكبة قاتلة.

كان لاورانا يصعد سلالم قصر العدل بخطوٍ رجولي، حيث ذهب إلى هناك لاستخراج وثيقة غير محكوم لاستكمال أوراق رُخصة قيادة السّيّارة. كان ذهنه منشغلاً بكل مفردات القلق التي تنتاب الإيطالي

عندما يدخل في دهليز إحدى دوائر الدولة، ناهيكَ عن كون تلك الدائرة تحمل عنوان العدالة. وبينما كان البروفيسور يصعد السلام، وجد نفسه قُبالة المحامي روزيلّو برفقة شخصَيْن آخرَيْن، تعرّف على أحدهما في الحال. البرلماني آبيلّو، الذي يعدّه مناصروه داخل حزبه مثالاً للأخلاقيّة والالتزام بالعقائد؛ وهي العقائد التي كان سعى للبرهنة عبرها لأكثر من مرّة بأنّ بأن الماركسيّة قد تمّ تجاوزها، مستنداً في ذلك إلى القدّيس أوغسطين والقدّيس تومّازو والقدّيس إيغاتسيو، وبأيّ قدّيس آخر أمسك بين أنامله قلماً، أو حتّى عبر ما قرأه من كتابات بعض المفكّرين المعاصرين الذين أُتيحت له فرصة الاطّلاع على أفكارهم. كانت فكرة التجاوزات تمثّل موضوعته الأقوى، في المجالات جميعها.

وبدا روزيلّو سعيداً بهذه المصادفة. مصادفة أن يُعرّف لاورانا، الذي كانت له آصرة مع الثقافة، إلى ذلك النموذج العالي الملتهم للثقافة، البرلماني آبيلّو. وقد عرّفهما على بعضهما بالفعل، وحين مدّ البرلماني يده لمصافحة لاورانا، حيّاه دونما تركيز، منادياً إيّاه بلازمته المعتادة - صديقي العزيز(*) -، واستعاد انتباهته عندما نوّه له روزيلّو بأن لاورانا، المدرّس في المدرسة الثّانويّة في مركز المحافظة، مَعنيٌّ بالنقد الأدبي أيضاً.

- النقد الأدبي؟ - أبدى البرلماني إعجابه متّخذاً هيئة المُمتحن - وما الذي كتبتَ في النقد الأدبي؟

---

*) كما كان الشّيوعيّون والاشتراكيّون، وأحزاب اليسار عادة، تُطلق كلمة رفيق على المنضوي إلى هذه الأحزاب، فقد اختار الحزب الدّيموقراطيّ المسيحي الإيطالي مفردة "الصديق" للتعريف بأعضاء الحزب أو مناصريه، فالبرلماني آبيلّو عدّ لاورانا "صديقاً" في حزبه طالما أنّ مَنْ عرّفه عليه، أي المحامي روزيلّو، هو عضوٌ فاعل في الحزب.

- بعض المقالات الصغيرة. عن كامبانا، وعن كوازيمودو(*).

- أوه، أوه، عن كوازيمودو - قال البرلماني، وهو يشعر بوجعِ الخيبة.

- ألا تُحبّه؟

- على الإطلاق. فلدى صقليّة، اليوم، شاعرٌ كبيرٌ واحدٌ فحسب. لوتشانو دي ماتّيا(**) ... أوتعرفه؟

- كلّا.

- "فلتُنصِت، فيديريكو، صوتي القادمَ إليكَ، بريح أجنحة النوارس..."، ألم تستمع إلى هذه أبداً؟ إنّها قصيدة رائعة لـ دي ماتّيا مهداة إلى فردريك الثاني(***)؛ ابحثْ عنها، واقرأها.

هبّ المحامي لنجدة لاورانا، الذي بدا وقد دهستْهُ الثقافة الغامرة التي يمتلكها البرلماني. انطبعت على وجه روزيلّو ابتسامةٌ تُعبّر، بالضبط، عن مقدار الصداقة الكامنة في تلك النجدة، وتدخّل متسائلاً - ما الذي أتى بكَ إلى هنا؟ هل تحتاج إلى مساعدةٍ ما؟

*) الشاعر الإيطالي (التّوسكانيّ) دينو كامپانا الذي كتب "أناشيد أورفيوس". كان متمرّداً سواء في الحياة أو في الشّعْر. ولكونه مختلفاً عن الآخرين ومتحرّراً من القيود المجتمعية، فقد عُدّ مختلاً عقلياً، وأُدخل مستشفى المجانين لأكثر من مرّة، وتعرّض إلى كلّ عذابات ذلك النوع من المستشفيات في تلك الفترة. دخل في صراعات مع كبار شعراء عصره .. كان الجميع يتحاشاه، لكنّهم اتّفقوا على كونه شاعراً كبيراً.

سلفاتوري كوازيمودو هو الشاعر والمترجم الصّقليّ الحائز على نوبل للآداب في عام 1959 سلفاتوري كوازيمودو.

**) اسم مُختلقٌ من قِبَل الكاتب لشاعر غير موجود.

***) الإمبراطور النّورمانديّ فريدريك الثاني، والذي يرتبط باسمه مجمل ما تختزنه صقليّة وعدد آخر من مُدُن ومحافظات الجنوب الإيطالي بالآثار العمرانية والهندسية. عُرف عنه حبّه العميق للثقافة، وقدرته على ضمّ الثقافات جميعها، ومنها الثقافتان العربية والإسلامية، تحت خيمة حكمه، والاستفادة من خبرات تلك الثقافة في بناء دولته وحضارة صقليّة.

أخبره لاورانا بأنّه جاء إلى هذه الدائرة لاستخراج وثيقة غير محكوم، وعن سبب احتياجه إلى تلك الوثيقة؛ في الغضون كان يُحدِّق بنظرة فضولٍ غامضة في الشخص الآخر الذي كان برفقة روزيلّو والبرلماني، والذي كان قد انزوى جانباً. توقّعه أن يكون ساعياً يعمل مع روزيلّو أو مع البرلماني. وكان واضحاً بأنّه شخصٌ مُرافق. لكنّ أكثر ما كان يُثير الانتباه في مظهره، هما عَدَستَا نَظّارَتَيْه الطِّبِّيَّتَيْن وإطارَيْهما المعدنيَّيْن النحيلَيْن. وكانت النّظّارات شبيهةً بتلك التي يعتمرها الأمريكيون الذين بلغوا سنّاً معيّنة، بالضبط كما كان يفعل ترومان(*)، وكانت العدستان تُبديان سحنة الرجل الواسعة والملوّحة بضياء الشمس، على قَدْرٍ من القسوة. وعندما شعر الرجل بأنّه صار مادّة لفضول البروفيسو لاورانا العابر، فقد انزوى، وأخرجه من جيبه علبة سيغارات، وسحب منها واحدةً.

في الغضون، كان البرلماني يمدّ إليه يده مُرفقاً إيّاه بجملة - صديقي العزيز - المتشرّبة بقَدْرٍ من الازدراء، أكثر من كونها انشغالاً وتسرّعاً. وبينما كان البرلماني يضغط على كفّه بأصابعه، سجّل لاورانا في ذهنه اللونَيْن الأساسيَّيْن، الأحمر والأصفر، اللذَيْن اصطبغت بهما علبة السيغارات التي أعادها الرجل الثالث إلى جيبه. حيّا روزيلّو، وأومأ، دونما قصد، بتحيّة إلى الرجل الذي بقي منزوياً طيلة فترة اللقاء.

وعندما خرج من قصر العدل بعد عشرين دقيقة، هُرع إلى المدرسة لإكمال ساعات الدروس، وعند مروره أمام دكّان بائع التبوغ،

---

*) هارّي ترومان (1884 - 1972)، كان رئيساً للولايات المتّحدة الأمريكية في الفترة (1946 - 1953)، وكان معتاداً على اعتمار نظّارَتَيْن بإطار معدني نحيل على عينَيْه.

عادت إلى ذهنه على حين غِرَّة تلك العلبة بلونَيْها الأحمر والأصفر، واجتاحتْهُ رغبةٌ مفاجِئة. دخل إلى الدّكّان، وطلب علبة من سيغار برانكا(*).

وفي اللحظة التي تحرّكت فيه أصابع البائع على الرّفّ للوصول إلى المكان الذي وُضعت فيه تلك العلب، تسارعت ضربات قلب لاورانا، واشتعل في داخله وهجُ انفعال صعد إلى الرأس. بالضبط، كما يحدث للاعب الروليت الذي يُتابع الدوران الأخير والبطيء للكرة الصغيرة ما بين مُربّعات الأرقام والألوان. وها هي علبة سيغارات برانكا على كاونتر البائع. الأحمر والأصفر. وكان انفعاله عالياً وناريا كَمَنْ قامر مُغامراً، ومن ثمّ فاز بأعلى ما يُمكن، لمْ يُدرك ما إذا كان قد هتف "Jaune et Rouge"(**) في داخله، مقلِّداً الصوت المُغرّد لمدير طاولة الروليت في الكازينو، أم أنّه قال ذلك بصوتٍ مسموع، طالما أنّ بائع التبوغ توقّف للحظة، وحدجه بنظرة. دفع ثمن العلبة، وخرج من الدّكّان. كانت يداه ترتجفان وهو يفُكّ غطاء علبة السيغارات؛ وبينما سحب إحداها، وأشعلها، بعثه الدخان صوب متعة التّأمّل في المُعطى الجديد الذي يُضاف الآن إلى المُعطيات التي كان على علْمٍ بها. سرح بخياله وهو يُفكّر بأنّ اللون الأصفر لم يكن موجوداً فوق "تابلو"(***) الروليت. واستعاد في ذهنه صالة اللعب في كازينو

---

*) علامة نوع من أنواع السيغارات. وهو النوع نفسه الذي عثرت الشرطة على عُقب واحد منها في مكان اغتيال الطبيب والصّيدليّ.

**) "Jaune et Rouge" الأصفر والأحمر بالفرنسيّة.

***) اللوحة التي يستخدمها الرّسّامون لخلْط ألوانهم، وهي اشتقاق لفظي لكلمة "Tableau" الفرنسيّة.

مونتي كارلو، التي كان قد دخلها مرّة، وجال فيها بالنظرات التي كان يُحدِّق بها إيفان موسيوكين(*) في فيلم "المرحوم ماتّيا پاسكال" للويجي پيراندیلّو.

وحين وصل إلى المدرسة متأخّراً، كان المدير واقفاً في منتصف الممرّ لمراقبة الصّفّ، الذي بدأ طَلَبَته بإحداث فوضى عارمة - بروفيسور، بروفيسور! ... - أنّبه المدير بشكل لا يخلو من المجاملة اللطيفة.

- عذراً - قال لاورانا وهو يلج إلى دخل غرفة الصّفّ، وبين أصابعه سيغار مُشتعل. كان مبتهجاً، مرتبكاً ومفزوعاً في آنٍ. وقد حيّاه طَلَبته بأصوات صاخبة للجدّة التي بدا عليها بالسيغار بين أصابعه.

---

*) الممثّل الرّوسيّ إيفان موسيوكين (1889 - 1925) بطل فيلم "المرحوم ماتّيا پاسكال" (1924) الذي أخرجه مارسيل لهيربيير مقتبساً من النّصّ المسرحي بالاسم نفسه للكاتب الصّقليّ الحائز على نوبل للآداب في عام 1934 لويجي پيراندیلّو. فقد كان ماتّيا پاسكال قد توقّف في كازينو مونتي كارلو، خلال تجواله المتواصل للبحث عن هوّيته الحقيقيّة.

12

في حدود معارف لاورانا، كان بإمكان ذلك الرجل الذي يُدخّن سيغار برانكا، أن يكون قاتلاً مرتزقاً أو بروفيسوراً جامعياً جاء من دالاس (*) ليُشبع قلبَه وذهنه ناهلاً من العقائد الفخمة التي كانت في حوزة البرلماني آبيلّو. وحدها غريزة الخوف المتأصّلة فيه كأيّ صقليّ والمُشذّبة بتجارب طويلة، نبّهتْهُ إلى المخاطر. وكان في تلك اللحظة ككلب الصّيّاد الذي يستشعر وجع أشواك القُنْفُذ في مساره المتعرّج ما بين الأعشاب والأغصان حتّى قبل رؤية القُنْفُذ بالفعل، فيبدأ بعُوائه الناحب البطيء.

وفي لقاءٍ مسائي في النادي مع روزيلّو تحوّل إحساسه الفطري إلى مُعطى حقيقي.

فقد بادره روزيلّو بالسؤال حتّى قبل إلقاء التّحيّة عليه - ما هو الانطباع الذي تركه لديكَ "الشريف"(**)؟ - قالها مبتسمًا ومَزهوّاً.

تأنّى لاورانا في الرّدّ قليلاً لاجتراح ردٍّ مدروس وغامض - إنّه جديرٌ - قال - بالإعجاب الذي يحظى به.

---

*) المدينة الأمريكيّة الغنيّة والهامّة، وهي مركز ولاية تكساس. شهدت في الثاني والعشرين من نوفمبر 1963 اغتيال الرئيس الأمريكي جون كينيدي، الذي كان قد تولّى الرئاسة من عام 1960 وحتّى مقتله.

**) Onorevole - الشريف، وهو اللقب الدّستوريّ لعضو مجلس النّوّاب.

- أنا سعيدٌ بهذا الرأي، سعيدٌ للغاية. إنّه رجلٌ لامع وذو ذكاء خارق ... وستراه وزيراً عمّا قريب.

- وزيراً للدّاخليّة - قال لاورانا، تاركاً، رغماً عنه، لنبرة ساخرة تبرز من كلماته.

- ولماذا ينبغي أن يكون وزيراً للدّاخليّة؟ - تساءل روزيلّو بارتياب.

وفي أيّ موقعٍ تريد أن تضع رجلاً مثله، في وزارة السياحة مثلاً؟

بالطبع لا، لكنْ، ينبغي على أولئك الذين يُمسكون بقيادِ الأمور في روما أن يُدركوا ذلك، وأن يُنيطوا إليه وزارة هامّة، وزارة سياديّة.

سيدركون أهمّيّة ذلك - أكّد لاورانا.

آملُ ذلك ... لأنّ من الحيف ألّا يُستفاد من طاقات رجلٍ مثله في هذه اللحظة التي نجتازها تاريخيّاً وسياسيّاً. - لكنْ، صحّح معلوماتي، أعتقد بأن اتّجاهاته كانت قريبة من اليمين، وربّما سيكون الوضع مُعقّداً في اللحظة التي تتجه فيها المؤشّرات صوب اليسار ...

يمين "الشريف" هو أكثر يساريّة حتّى من الصّينيّين(*)، إذا ما رغِبْتَ في معرفة كيف تسير الأمور ... أيُّ يسار وأيّ يمين جئتَ تُحدّثني عنهما؟ فلا معنى لأيٍّ من هذه التسميات في قاموسه.

سعيدٌ بذلك - قال لاورانا، ومن ثمّ، وبشكل عابر سأل روزيلّو - ومَنْ كان ذلك الشخص الذي كان برفقة البرلماني؟

واحدٌ من سكان بلدة مونتالمو، إنسانٌ طيّب القلب - أجاب

---

*) تدور الأحداث ما بعد 1950، وحيث أسّس ماو تسي تونغ في الصين نظاماً شيوعياً.

روزيلّو، لكنّه تصلّب في الحال، وثبُتَتْ نظراته مُتّسمةً بالبرود - ولماذا ترغب في معرفته؟

هكذا، فضولٌ لا غير ... لقد بدا لي شخصاً مثيراً للاهتمام.

أجل، هو شخصٌ مثيرٌ للاهتمام للغاية - قالها بنبرة ساخرة لم تخلُ من ظلال تهديد.

شعر لاورانا، إثر تلك النظرة، برعشة رعبٍ تسري في أرجاء جسده. حاول حرف الحديث إلى الكلام عن البرلماني - لكنْ، هل يتوافق الشريف آبيلّو - سأل - بالكامل مع المسار الذي اختطّه حزبكم في هذه الفترة؟

- وَلِمَ لا؟ لقد تمكّنّا لعشرين عاماً من قرضِ الأصوات من اليمين، وقد آن الأوان أنْ نقرِض من اليسار. وعلى أيّة حال، لن يتغيّر من الأمر شيء(*).

- وماذا عن الصّينيّيْن؟

- الصّينيّون؟

- أعني. طالما قلتُ بأنّ الـ "الشريف" أكثرُ يساريّةً من الصّينيّيْن ...

- هاك، كيف أنتُم الشّيوعيّون!، تنسجون من جملة واحدة حبلاً طويلاً، وتشنقون به رجلاً ... لقد قلتُ ذلك لمجرّد التشبيه، لا غير،

---

*) تلميح إلى جبهة يسار الوسط الذي تأسّس بين الحزبَيْن (الدّيموقراطيّ المسيحي) و(الحزب الاشتراكي) في عام 1962. أمّا جملة "وعلى أيّة حال، لن يتغيّر من الأمر شيء" هو اقتباس مرير لشاشا من رواية "الفهد" لتومّازي دي لامبيدوزا "ينبغي أن يتغيّر كلّ شيء حتّى تبقى الأمور على حالها ...".

بأنّه أكثر يساريّة من الصّينيّيْن ... وإذا ما أحببتَ، فسأقول لكَ بأنّه أكثر يمينيّة من فرانكو(*)نفسه ... إنّه رجلٌ استثنائي، ولديه أفكارٌ عظيمة إلى درجة أنّ هذه المسمّيات البائسة لليسار واليمين، كما أسلفتُ لكَ، لا تعني لديه شيئاً يُذكَر ... لكنْ، اعذرني الآن، وسنواصل حديثنا في وقت لاحق. لديّ انشغالات عاجلة، عليّ العودة إلى المنزل - قالها وغادر المكان دون تحيّة للاورانا.

عاد بعد نصف ساعة، وقد تغيّر بالكامل. كان فرحاً، ودوداً ومنفتحاً على المزاح. إلّا أنّ لاورنا استشعر فيه توتّراً، قلقاً أو ربّما خوفاً ما، وفكّر في سرّه بأنّ ذلك كلّه يقود روزيلّو إلى الدوران "مثل دوران فراشة ستذوق الموت حول مصباح مُضاء". واستقى تلك الصورة من صفحات "الجريمة والعقاب"(**).

سعى روزيلّو إلى حرف الحديث صوب الكلام عن ذلك الرجل الطّيّب من مونتالامو، الذي كان لاورانا سأله عنه. فلربّما لم يكن حقّاً من سكّان مونتالامو، وإذا ما أمْعَنَ في التفكير، فقد يكون من سكّان مركز المحافظة، وقد اعتقد بأن الرجل من سكّان مونتالامو، لأنّ واحداً من اللقائَيْن معه، وهما اللقاءان الوحيدان بينهما، جرى في مونتالامو. وقال عنه بأنّه رجل طيّبٌ وقويم، وبأنّ "الشريف" وصفه له دائماً كإنسان قويم وطيّب. كان وفيّاً له، مؤمناً بأفكاره وعقيدته ...

---

*) الجنرال فرانسيسكو فرانكو (1892 0 1975)، عسكري ورجل سياسة إسباني، أسّس في البلاد بعد الحرب الأهلية (1936-1939) نظاماً ديكتاتورياً قَمْعياً.

**) الجريمة والعقاب للكاتب الرّوسيّ فيودور دوستويفسكي (1821-1881) . يُشبّه القاضي بورفيريوف وضع بطل الرواية راسكولينكوف بالفراشة التي تنجذب إلى ضياء الشمعة التي ستحرق جناحَيْها.

وانتهى الأمر بروزيلّو كما لو أنّه أحرق جناحَيْه في نار الشكوك العارمة التي اشتعلت في داخل لاورانا، وكان المحامي إذّاك مثيراً للشفقة.

في عصر اليوم التالي، استقلّ لاورانا الحافلة الذاهبة إلى مونتالامو. كان أحد رفاق الدراسة الجامعية يعيش في تلك البلدة، وقد دعاه مرّات عديدة لزيارته حتّى يصطحبه إلى مناطق الحفريات الأثرية التي كُشف فيها مؤخّراً عن آثار تعود لتاريخ صقليّة الغابر.

كانت البلدة جميلة. منفتحة ومتناسقة بشوارع مستقيمة، تنتهي في ساحة، شُيّدت على الطراز الباروك. وكان صديقه يسكن في إحدى العمارات المُطلّة على تلك الساحة. عمارة كبيرة، داكنة العتمة في الداخل بمقدار الضياء نفسه الذي كان سائداً في الخارج، وقد بدت الحجارة التي شُيّدت بها العمارة وكأنها امتصّت نور الشمس بأسره، وأسكنتْهُ في ثناياها.

لم يكن صديقه حاضراً في المنزل في تلك اللحظة، فقد ذهب إلى منطقة الحفريات، التي يعمل فيها كمفتّش فخري. أخبرتْهُ بذلك الخادمة العجوز التي فتحت الباب، وأبقتْهُ مواربا مربوطاً بسلسلة قصيرة، بِنِيَّةٍ واضحةٍ لإغلاقه في وجه القادم في أيّة لحظة ... إلّا أن صوتاً لافتَ النبرة قَدِمَ من واحدٍ من سلسلة الأبواب المفتوحة في الممرّ الطويل نادى على الخادمة - مَن القادم؟ - ودون أن تزيل قبضتها من الباب، ردّت الخادمة على مصدر الصوت داخل المنزل - لا أحد، إنّه شخصٌ يسأل عن البروفيسور.

- دعيه يدخل إذاً - وصل ذات الصوت آمراً.

- لكنّه يسأل عن البروفيسور، والبروفيسور ليس موجوداً في البيت - ردّت الخادمة.

- دعيه يدخل، قلتُ لكِ.

- يا يسوع - تأوّهت الخادمة، كما لو أنّ كارثة تقترب، وفتحت الباب مُفسِحةً الطريق للاورانا.

- ومن أفق ذلك الممرّ الطويل تقدّم رجلٌ عجوز، مَحني الظهر، غطّى كتفَيْه ببطّانيّة خفيفة، حيوية الألوان.

- جئتَ تبحث عن شقيقي؟

- نعم، أنا صديقٌ قديم له، زميله من أيّام الجامعة ... دعاني لأكثر من مرّة للمجيء إلى هنا. لزيارة الموقع الآثاري والمُتحف الجديد ... واليوم ...

- تفضّلْ بالجلوس، تعال.. لن يتأخّر كثيراً - ولمجرّد ما استدار ليتقدّمه في المسير، رفعت الخادمة كفّها صوب رأسها، وأتَتْ بإيماءة شبيهة بالحلزون. وهي الإيماءة التي لا تترك مجالاً للشّكّ في معناها بأنّ الرجل مجنون. توقّف لاورانا. ودون أن يستدير، قال الرجل - كونتشيتّا تُحاول تنبيهكَ إلى أنّني مجنون - دُهش لاورانا، واستعاد صفاءه، فتابع مسيره وراء الرجل.

وفي عمق الممرّ، كان هناك مكتبٌ مزدحم بالكُتُب وبالقوارير الخزفية. توجّه الرجل للجلوس وراء طاولة في عمق الغرفة، وأشار له بالجلوس على أحد الكراسي المواجهة له على الطرف الآخر من

الطاولة. أزاح بحركة من ذراعه عموداً من الكُتُب، قال - كونتشيتّا تعدّني مجنوناً؛ وليس هي وحدها، إنْ أردتَ الحقيقة.

أتى لاورانا بإيماءة دالّة على عدم التصديق والاعتراض على ما يسمع.

- المشكلة تكمن في أنّني مجنونٌ بالفعل، فيما يتعلّق ببعض الأمور، لا أدري ما إذا كان شقيقي قد كلّمكَ عنّي في بعض المرّات. أو ربمّا روى لكَ، على الأقلّ، ادّعاءَه بأنّني كنتُ أُقتّر عليه الموارد المالية عندما كان طالباً في الجامعة ... أنا اسمي بينيتو، وأنا شقيقه الأكبر ... واسمي بالطبع ليس تيمّناً بذلك الذي كان يحمل اسمي نفسه (*)، والذي قد يخطر ببالكَ. ليس بالإمكان إن يكون اسمي تيمّناً به، لأنّنا، كلانا، من الجيل نفسه ... لكنْ، إليكَ سبب تسميتي بهذا الشكل ... فبعد الوحدة الإيطالية طُعِّمَتْ عائلتنا بجذعٍ جديد، وبروحيّة جمهورية وثورية. أطلقوا عليّ اسم بينيتو، لأنّ أحد أعمامي توفيّ في العام نفسه الذي وُلدتُ فيه أنا، وقد كان بدوره وُلد في العام نفسه الذي أمر فيه بينيتو سواريش بإعدام الملك ماسّيميليانو(**) رمياً بالرصاص، ويبدو أنّ إعدام ملكٍ ما كان قد صار بالنسبة إلى جدّي سبباً لفرح لا محدود. إلّا أن ذلك لم

---

*) إشارة إلى الديكتاتور بينيتو موسّوليني (1883 - 1945)... والتوضيح يتضمّن نبرة انتقاص بالديكتاتور، ويسعى إلى توضيح الغموض الذي قد يُولد من تشابُه الأسماء.

**) كان بينيتو سواريس رئيسا للمكسيك في الفترة (1861-1864) وفي الفترة (1867-1872). قاتل ضدّ الملك النّمساويّ ماكسميان الذي نُصّب على عرش المكسيك بدَعْم من نابليون الثالث. وفي عام 1867 أمر بينيتو سواريش بإعدام ماكسيميليان، وأعاد المكسيك إلى المكسيكيّيْن، منذ ذلك الحين صار اسم بينيتو من بين الأسماء المنتشرة، وأُطلق على العديد من الأولاد.

يمنعه عن مواصلة التقاليد البوناپارتيّة التي كانت سادت داخل عائلتنا منذ ثورة 1820[*]، والتي لم يسلم بسببها أيٌّ من أفراد عائلتنا من حملِ اسم نابوليون الثاني أو الثالث، إنْ كان ذَكَراً، وحمل اسم "ليتيتسيا"[**] إذا ما كانت أُنثى. وبالفعل فإن اسم شقيقي هو جيرولامو نابوليون، وشقيقتي اسمها ليتيتسيا، وأنا أحمل، وراء بينيتو خواريس، اسم جوزيبي نابليون، ولا أستبعد أن يكون الاسم جوزيپّي تيمّناً إضافيّاً بجوزيپّي ماتزيني[***] ... ربمّا فكّر جدّي بأنّ من الأفضل أن تُنجِز أمرَيْن في رحلة واحدة[****]، عندما تُتاح لكَ الفرصة ... وكان اسمي خلال فترة الفاشيّة يُثير قَدْراً من الاهتمام. كان الناس غارقين حتّى أعناقهم في أوهام الأسطورة، ولذا عندما كانوا يجدون أمامهم شخصاً يحمل اسم بينيتو، وعمره مثل عمري، وقيل عنه بأنه يُمسك أقدار الوطن في قبضته. ، كانت تسودهم القناعة بأن من يقف أمامهم قائد المسيرة مع بينيتو الآخر للزحف على روما[*****] منذ بدايات يفاعته ... هل أنتَ فاشي؟

- كلّا، بالمطلق، بل على العكس.

- لا تغضبنّ منّي. نحن جميعاً فاشيّون، بشكلٍ من الأشكال.

---

*) عام بلوغ الانتفاضات والثورات الأوروبية إلى مدينة نابولي وجزيرة صقليّة.

**) ماريّا ليتيتسا رامورينو (أو رامولينو). (1750-1836) وهي والدة نابليون بونابارت.

***) جوزيپي ماتزيني (1805-1872) بطل ومُنظّر اليقظة الإيطاليّة. وهب حياته كلّها إلى فكرة ميلاد إيطاليا موحّدة، ديموقراطيّة وجمهوريّة.

****) بمعنى المثل القائل نفسه، يصطاد عصفورَيْن بحجرة واحدة.

*****) مسيرة الزحف إلى روما، والتي جرت في الرابع والعشرين أكتوبر من عام 1922، والتي أنجز بها الديكتاتور بينيتو موسّوليني انقلابه، وفرض هيمنته على الحكم بشكل عنيف.

- هل أنتَ مؤمنٌ حقّاً في ما تقول؟ - تساءل لاورانا، مستمتِعاً ومنزعِجاً في آنٍ.

- أجل، بالتأكيد ... وسأورد لكَ في الحال مثالاً، وهو أيضاً مثالٌ عن أحدث خيباتي وأكثرها حرقةً ... بيبينو تيستاكوادرو(*)، صديقي القديم، هو شخص قضّى جُلّ سنواته الجميلة في الفترة 1927-1943 متنقّلاً ما بين السجون والمنافي، وهو شخصٌ إذا ما نعتَّهُ بالفاشي، فقد ينقضّ عليكَ، ليُهشِّم وجهكَ ... ومع ذلك ... فهو فاشي.

- فاشي؟ أنتَ تقول بأنّ تيستاكوادرا فاشي؟

- هل تعرفه؟

لقد استمعتُ إلى بعضٍ من خطاباته الجماهيرية، وأقرأ بعض مقالاته.

- وبالطبع، بسبب ماضيه، وبسبب ما يكتب أو يُصرِّح به، فإنّكَ ترى بأنّ المرء يحتاج إلى مقدار كبير من سوء النِّيَّة ومن الجنون أيضاً، لِعَدِّ تيستاكوادرا فاشيّاً، نعم، فالجنون، يا صديقي العزيز، منطقة حُرّة للحقيقة. ومع ذلك، فليس سوء النِّيَّة، على الإطلاق، هو ما يدفعني إلى عَدِّ تيستاكودرا فاشياً ... إنّه صديقي، أقول لكَ، هو صديقٌ قديمٌ لي. لكنْ، لا مفرّ، فهو فاشي. فعندما يبلغ إنسان ما مرحلة العثور على مساحة صغيرة من السلطة، ويبدأ، من تلك المساحة،

---

*) اسمٌ مُختلق من قبل الكاتب، يُشير لقبه (ذو العقل المُنظّم) إلى كونه رجلاً مستقرّ الشّخصيّة وحازماً. ويسعى شاشا إلى تقديمه كنموذج للشخص الذي يُمثّل السلطة، ويُسخّرها لمصالحه الشّخصيّة فحسب.

بالتمييز ما بين مصالح الدولة ومصالح المواطنين، ويميّز حقوق ناخبيه عن حقوق خصومه السياسيّيْن، ناهيكَ عن مصالحه الشّخصيّة أمام القضاء ... فإنّه يدفعكَ بشكلٍ طبيعي إلى التساؤل عن السبب الذي جعله يُقاسي آلام السجون والمنافي؟ ولو كان رأيي في تيستاكوادرا ينطلق من سوءٍ في النِّيَّة، لبحثتُ عن جوابٍ للتساؤل حول ما إذا كان قد ابتدأ مسيره بالخطوة المغلوطة، أم لا، وماذا كان سيفعل لو أنّ موسّوليني دعاه إلى ...؟

- هذه نِيَّة سيِّئة حقّاً - شدّد لاورانا.

- سوء نِيَّتي توضّح لكَ مقدار خيبتي ومقدار الألم الذي تسبّب لي فيه پيپينو. كأحد ناخبيه، إضافة إلى كونه صديقاً لي.

- هل أنتَ تُصوِّت لحزب تيستاكودرا؟

- ليس للحزب ... أعني. للحزب بالطبع، لكنْ، كتحصيل حاصل ... ككلّ الآخرين، فهناك مَنْ هو مرتبطٌ بسياسيٍّ ما، بفضل إعانة، بفضل علبة سباغيتّي، أو برخصة حمل سلاح أو الحصول جواز السفر، أو أنّ هناك مَنْ هم مثلي، يرتبطون بالسّياسيّ بفعل قناعاتهم الشّخصيّة، وبفضل احترامهم له، للصداقة ... وعليكَ أن تتأمّل في مقدار التضحية التي أُقْدِمُ عليها وأنا أخرج من منزلي لأذهب إلى المركز الانتخابي حتّى أمنح صوتي إلى حزبه.

- وإذاً، فأنتَ لا تُغادر المنزل أبداً؟

- أبداً، أقلعتُ عن ذلك منذ أعوام عديدة ... ففي لحظة من لحظات حياتي أجريتُ حسابات دقيقة. إذا ما خرجتُ من المنزل

للقاء شخصٍ ذكي، شخصٍ نزيه، فأنا أواجه مخاطر أن ألتقي مع ما لا يقلّ عن اثنَي عشر سارقاً، أو أتواجه مع سبعة حمقى، متأهّبون لإغراقي بقناعاتهم وآرائهم البليدة عن الإنسانيّة، عن الحكومة، وعن الإدارة المحلّيّة وعن مورافيا(*) ... فهل يبدو لكَ بأن خروجي من المنزل يستحقّ منّي هذه التضحية كلّها؟

- كلاّ، في الواقع، لا، لا يستحقّ.

- ثمّ، أنا مرتاحٌ للغاية في منزلي. وبالذات هنا، داخل هذه الغرفة - ورفع يَدَيْه بإشارة إلى خزائن الكُتُب حواليه.

- مكتبة جميلة بلا شكّ - قال لاورانا.

- ليس من النادر أن أتواجه أيضاً، هنا، في هذه الغرفة، مع بعض السّرّاق أو بعض الحمقى ... وبالطبع، أتحدّث هنا عن الكتّاب، وليس عن الأشخاص ... لكنّي أتحرّر من أولئك بسهولة كبيرة، إذْ أُعيدُ الكتاب إلى صاحب المكتبة، أو أهديه إلى أوّل بليدٍ يأتي إلى هنا لزيارتي.

- وإذاً، فإنّكَ لا تتمكّن من مراوغة البلداء، حتّى إنْ بقيت منغلقاً في منزلكَ.

- كلاّ، لا أتمكّن من ذلك ... لكنّ الوضع هنا في الداخل مختلفٌ نوعاً ما. فأنا أشعر هنا بأمان أكبر، وببون شاسعٍ عن البُلداء ... تُشبه حالتي، بشكلٍ من الأشكال ما يحدثُ بالمسرح. ويصل الأمر بي إلى

---

*) آلبيرتو مورافيا، كاتب إيطالي كبير، واسمه الحقيقي آلبيرتو پينكيرلي (وُلد في عام 1907 وتوفّي في 20 سبتمبر 1990. كان روائياً وصحفيّاً وناقداً سينمائياً. عُرف بتميّز أعماله وبمواقفه التّقدّميّة في السياسة والقضايا المجتمعية واشتراكه الفعلي في حملات الحدّ من انتشار الأسلحة النّوويّة في العالم.

أن أستمتع أيضاً ... وبإمكاني أن أقول لكَ بأنّني أشعر من موقعي هنا، بأنّ كلّ ما يحدث في البلاد عبارة عن مسرحية. زيجاتٌ، مراسم تشييع، خصومات ومعارك، رحيل وعودة ... أنا أعرف كلّ شيء، وأسمع كلّ شيء؛ ويصل كلّ شيءٍ إلى أسماعي بشكلٍ مُضاعف، وفي بعض الأحيان متصاحباً بالأصداء أيضاً.

- لقد تعرّفتُ على شخص من مونتالامو - قاطعه لاورانا - لا أتمكّن الآن من تذكّر اسمه. إنّه رجلٌ طويل القامة، ذو وجه عريض وداكن البشرة، يعتمر نظّارَتَيْن من الطراز الأمريكي، وهو ما يُشبه ناخباً كبيراً من أتباع البرلماني آبيلّو ...

- أأنتَ بروفيسور في المدرسة الثّانويّة؟

- نعم، أنا بروفيسور - أجاب لاورانا. شاعراً بالخجل إزاء الشّكّ الفاتر الذي أبداه الآخر في الحال، كما لو أنّه يخفي وراء مظهره ذاك، شخصية أخرى.

- وأين تعرّفتَ على هذا الشخص من مونتالامو، والذي لا تتذكّر اسمه الآن؟

- تعرّفتُ عليه على سلالم دار القضاء في مركز المحافظة قبل بضعة أيّام.

- وهل كان مخفوراً باثنَيْن من رجال شرطة الدرك؟

- كلّا، بالطبع، كان برفقة البرلماني آبيلّو وشخص آخر من معارفي، يعمل محامياً.

- وتريد أن تعرف منّي ما اسمه؟

- لستُ مَعنيّاً بذلك بالضرورة.

- لكنْ، هل ترغب في معرفته أم لا؟

- نعم.

- ولماذا؟

- هكذا، لشيء من الفضول فحسب ... الرجل، أعني، أثار لديّ انطباعات متناقضة.

- ثمّة هناك - قال دون بينيتو ذلك، وانفجر في ضحكةٍ متواصلة.

شبع ضحكاً حتّى أدمعت عيناه. ثمّ هدأ، جفّف دموع عينَيْه بمنديل كبير أحمر اللون "إنّه مجنون - فكّر لاورانا - مجنونٌ دونما أدنى شكّ".

- هل تعلم لماذا أضحك؟ - قال - أضحك من نفسي، ومن مخاوفي ... لقد شعرتُ بالخوف للحظة، أعترف بذلك. أنا الذي أعدّ نفسي إنساناً حرّاً في بلد غير حرّ، شعرتُ للحظة ما بالخوف، لكوني أجد نفسي أمام مجرمٍ أو أمام واحدٍ من الدرك ... لكنْ، حتّى لو كنتَ أنتَ واحداً من الدرك...

- لستُ واحداً منهم، وأنا، كما قلتُ لكَ، برفيسّور، وزميل لشقيقكَ ...

- وما الذي حملكَ إلى الاصطدام مع شخصٍ مثل راغاناه - وانفجر

بالضحك مُجدّداً، ثمّ وضّح للاورانا - إنّه سؤال فرضه الحذر، وليس الخوف ... وعلى أيّة حال، فقد أجبتُ عن سؤالكَ.

- اسمه راغاناه، وهو مُجرمٌ.

- بالضبط. إنّه أحد أولئك المجرمين الذين لن تعثر على أيّة سوابق قضائية مُسجّلة في ملفّاتهم، وهو ممّنْ يحظون بالاحترام، ومن بين المعصومين.

- وهل تعتقد أنّه معصومٌ حتّى اليوم؟

- لا أعلم، فلربمّا سيصلون إلى المساس به أيضاً ... لكن الأمر، يا صديقي العزيز، هو أنّ إيطاليا من السعادة إلى درجة أنّه عندما سيبدؤون بمكافحة مفهوم المافيا المنطوقة باللهجات الشّعبيّة، تكون هذه الظاهرة قد استقرّ المقام بها في اللغة(*) ... لقد شاهدتُ شيئاً من هذا القبيل قبل ما يربو على أربعين عاماً. وهو صحيحٌ أيضاً بأنّ أيّ حدث سبق وقوعه في التاريخ، قد يعاود الظهور على شكل كوميديا، بعد أن كان قد ظهر للمرّة الأولى كمأساة. لكنّ ذلك لا يُخفّف من قلقي أبداً.

- لكنْ، ما علاقة ذاك بهذا - هبّ لاورانا - بإمكاني أن أستوعب أن مافيا كبيرة(**) حاولت قبل أربعين سنة من طحن مافيا صغيرة ... لكنْ، الآن، لا أظنّ ... هل تعتقد بأن الوضع سيُعيد نفسه اليوم؟

- ليس بالشكل نفسه ... لكنْ، اسمع، أُحبّ أن أروي لكَ على

---

*) تمييز ما بين سلطة المافيات على الصعيد المناطقي وعلى الصعيد الوطني.

**) ويعني بذلك الفاشيّة التي قمعت المافيا عبر الجنرال تشيزيري موري.

سبيل، أمثولة تُروى، وفيها طابع تعليمي وأخلاقي، وهي عن حدثٌ لا بدّ أنّكَ تعرفه ... مؤسّسةٌ صناعية كبرى تُقرّر إنشاء سدّ، في مكان يُطلّ على منطقة آهلةٍ بالسّكّان. بالاستناد إلى آراء فنّيّيْن وتِقْنِيّيْن، يُطالب ما يربو على عشرة نوّاب بوقف العمل في إنشاء السّدّ. وذلك للمخاطر التي قد يتسبّبها على المناطق المنخفضة التي يشرف عليها. تُجيزُ الحكومة بناء السّدّ. فيما بعد، ولمجرّد الانتهاء من بناء السدّ، ودخوله حيّز التشغيل، تبدأ بعض مؤشّرات الخطر بالبروز. لا شيء. لا أحدَ يُقدِم على شيء حتّى اللحظة التي تقع فيها الكارثة التي كان البعض قد تنبّأ بحدوثها. النتيجة. موت ألفَي شخص ... ألفَي شخص. كم من أشباه راغاناه هذا يجولون في مناطقنا منذ عشر سنوات ... وبإمكاني أن أروي لكَ أمثولات أخرى، وبالتأكيد تعرفها أنتَ أيضاً.

- ما ترويه من أواصر لا تستند إلى أُسسٍ مُثبتة ... أنتَ لا تأخذ في اعتبارِكَ الخوف، الرعب ...

- هل تعتقد بأن سكّان مدينة لونغاروني(*) لم يكونوا يهابون ذلك السّدّ؟

- لكنّه أمرٌ مختلف تماماً. أتّفق معكَ بأن ذلك الحادث كان رهيباً

- وسيظلّ دونما عقاب لمَنْ تسبّبوا في وقوعه، بالضبط كما ستظلّ

---

*) مدينة في إقليم ڤينيتو (فينيسيا) بالقرب من بيلّونو. دفنتْها المياه والطمي المنحدر من البحيرة الاصطناعية التي أُنشئت بعد تشييد سدّ "ڤايّونت". وقع الحادث ليلة التاسع من أكتوبر 1963 وراحت ضحيّته آلاف الأرواح إضافة إلى تدمير البلدة، وطمسها عن بكرة أبيها.

الجرائم الرهيبة التي تحدث هنا في مُدُننا وبلداتنا، بِعَدِّها جرائم تقليدية.

- وعلى أيّة حال. لو كان في الإمكان الإمساك بـ راغاناه هذا، أو بكل أولئك الذين على شاكلته، ممّنْ نعرفهم أو ممّنْ لم نتعرّف عليهم، رغم الحماية التي ينعمون بها، فإنّني أعتقد بأنّنا نكون قد أنجزنا خطوة هامّة للغاية ...

- هل أنتَ تؤمن بذلك حقّاً؟ في الأوضاع التي نعيش في ظلّها؟

- عن أيّة أوضاعٍ تتكلّم؟

- أتكلّم عن هجرة نصف مليون سكّان الجزيرة، وهو رَقْمٌ يعني غالبية المواطنين الفاعلين؛ الزراعة مهجورةٌ بالكامل؛ مناجم الكبريت موشكة على الإغلاق؛ البترول الذي أعلنوا اكتشافه، ثمّ ظهر وكأنّه مَزْحَة من المزحات؛ المؤسّسات الإقليمية التي تبدو وكأنها قد أُصيبتْ بمسٍّ من الجنون(*)، فيما الحكومة تتركنا نُطبخ في حسائنا على نارٍ هادئة ... إنّنا آيلون إلى الغرق، يا صديقي العزيز، نحن نغرق ... سفينة القراصنة هذه، والتي كانت يوماً ما صقليّة(**)، بفهدها(***)

---

*) يعني أن المسؤولين في هذه المؤسّسات باتوا يبذخون المال العامّ لمصالحهم، وبدلاً من إنفاق ذلك المال للصالح العامّ، فقد راح إلى جيوب رجال السياسة المحلّيّين، الذين يُنفقونه على هواهم.

**) يوحي هذا الوصف إلى العزلة التي تعيش صقليّة في ظلّها، ومنها تأتي قسوتها ومناهضتها للقانون.

***) إشارة إلى النجاح الأدبي لرواية "الفهد" للكاتب الصّقليّ جوزيبي تومّازي دي لامبيدوزا (1896-1957)، وقد نُشرت الرواية بعد وفاة الكاتب. أنجز منها المخرج الإيطالي الكبير لوكينو ڤيسكونتي فيلماً بالعنوان نفسه، أدّى بطولته نجومٌ كبار مثل بيرت لانكاستر وآلان ديلون وكلاوديا كاردينالي.

الجامح في مقدّمتها، وبألوان غوتّوزو(*)، وبكبار شخصيّاتها، بكتّابها الملتزمين، بصيّاديها الذين ذكرهم فيرغا في كتابه "مالافوليا"، بقوّاديها ومجانينها وبشياطينها اللّيليين وبأساطيرها. ببرتقالها وكبريتها والجثث المُراكمة في عنبر السفينة. إنّها تغرق، عزيزي، هذه هي سفينتنا الغارقة ... وأنتَ وأنا، أنا كمجنون، وأنتَ، ربّما كمثقّفٍ ملتزم، نلهو بملاحقة راغاناه وقد صعدت المياه حتّى رُكبَتَيْنا،. ونتساءل ما إذا كان راغاناه قد قفز من السفينة الغارقة لِلّحاق بالبرلماني القريب منه، أم بقي على الهامش بين الموشكين على الهلاك.

- لستُ مُتّفقاً معكَ - قال لاورانا.

- إنْ أردتَ الحقيقة، أنا أيضاً لستُ مُتّفقاً مع نفسي- قال بينيتو.

*) ريناتو غوتّوزو (1912-1987) رسّام صقليّ شهير، اقتبس من تاريخ أرضه ومن تقاليدها الشّعبيّة الكثير من أعماله الإبداعيّة. ومن بين المفردات المكوّنة لمجمل إنجازه، هو العنف التّعبيريّ لِلّون.

13

- ما اسم الطائر الذي يُخفي منقاره في التربة؟ سأل آرتورو بيكوريلا، وهو يقف على العتبة.

كان الشّابّ بيكوريلا مُعتاداً على تمهيد دخوله إلى النادي كل مساء بصليةٍ متواصلةٍ من النكات والأحاجي، والتلاعب بالكلمات التي ولّف بينها من قراءاته في صفحات النوادر والأخبار العامّة ومن العروض المسرحيّة الكوميدية التي اعتاد على متابعتها وارتيادها في مركز المحافظة. لكنْ، إذا ما كان والده حاضراً في النادي، فإنّ دخوله كان يصطبغ بقَدْرٍ من الحزن، ومن الشعور بالخجل. ولأنّ الشّابّ كان يُبرّر غيابه المتواصل عن الجامعة بالانهيار العصبي الذي يُعاني منه، فإنّ والده، كاتب العدل بيكوريلا، كان يقبل بفكرة احتياج الشّابّ إلى رفقة حيويّة، شريطة ألّا يتحوّل هو نفسة إلى حيويّة المجموعة ومتعتها. لم يكن الأطبّاء يتّفقون وإيّاه على هذا الرأي، إلّا أنّ كاتب العدل وابنه كانا يلتزمان بذلك لضروراتِ حياة، تحظى باحترام الناس.

كان كاتب العدل غائباً عن النادي في تلك الأُمسيّة، لذا فقد ألقى الشّابّ تساؤله المستمتع عن الطائر الذي يُخفِي منقاره تحت التربة.

ذوو المعرفة بعالم الحيوان من بين الحاضرين في الحلقة، أي الصّيّادون، ذكروا أسماء دجاجة الأرض، والطيور الآكلة للنمل، والأقلّ

منهم معرفة جالوا في عوالم الطيور المهاجرة والغرائبيّة كاللقلق، أو ذكروا أسماء النعام والنسور.

تركهم الشّابّ بيكوريلا يهيمون على وجوههم قليلاً، ثمّ صاح فيهم بنبرة انتصار: الأرملة(*).

وتبع الضحك الشامل والمرتبك بسبب تلك الصيحة ردود أفعالٍ ثلاث، كان أوّلها من الكولونيل المتقاعد سالفاجّو الذي انتفض من أريكته، وهتف بصوت يُنبِئ بانفجار غضبٍ موشِك، وسأل: هل ستَحشُرُ الأرملة أيضاً في هذه الحرب؟

- بالتأكيد لا، سيّدي الكولونيل - أجاب الشّابّ. فعاد الكولونيل ليغرق من جديد في أحضان أريكته المريحة.

- كانت أُحجيّتكَ تحتوي احتيالاً لغويّاً - لاحظ المحاسب بيرانيو - فلقد استخدمت مفردة "يُخفي" تحت التربة بدلاً من استخدام مفردة "يُبقي". وهذا استخدام للمعنى الإسباني والنّابوليتانيّ للكلمَتَيْن.

- أعترف بذلك - قال آرتور بيكوريلا ، الذي لم يكن يرغب بالدخول في سجالٍ، فقد كان على عجَلٍ لرواية نكتة جديدة، جاء بها خصّيصاً.

أما ردّة فعل دون لويجي كورڤايا، فقد كانت سطحيةً وأكثر شروداً، وكانت بالتأكيد الأقلّ حذراً على الإطلاق - ومَنْ يدري؟ - قال، كما الغارق في التفكير بشيء ما - مَنْ يدري ما إذا كانت أرملة الدكتور روشو ستتزوّج مرّةً أخرى؟

---

*) يعني بها أرملة الدكتور روشو.

- وهل منقارها، هي الأخرى، تحت التربة؟ - قال الشّابّ بيكوريلا المعروف بنقص الحساسية.

- أنتَ دائماً تحمل ما يُثير الإزعاج والبلبلة - صاح دون لويجي، وقد احمرّ وجهه غضباً لاقتناعه بأنّه أخطأ في المشاركة بذلك الحديث، وبرغم كسله وخموله المعهودَيْن، فقد ركّز آرتورو بيكوريلا الاهتمام على الخطأ الذي أقدم عليه دون لويجي كورڤايا، وصار يُبرزه بوضوح أمام الحاضرين جميعهم. هذه كلّها أمورٌ حسّاسة، أمورٌ خطيرة، حاول آرتورو المزاح فيها - لقد قلتُ ما قلتُ بشكلٍ تلقائي ودونما تفكير- حاول دون لويجي توضيح موقفه. - سمعتُ مفردة الأرملة، فأتتْني تلك الفكرة ... لكنْ، أنتَ، لا احترام لديكَ، لا للأحياء ولا للموتى ...

-كنتُ أمزح فحسب - قال الشّابّ - أوَلَمْ يفهم الجميع بأنّني كنتُ أمزح؟ لم أكن لأسمح لنفسي ...

- بعضٌ من الأمور لا يُمكن المزاح فيها ... لو أنّني هنا، بين أصدقائي، تساءلتُ عمّا ستفعله أرملة صديقنا المسكين روشو، فإنّ بإمكانكَ أن تكون واثقاً بأنّ نواياي كانت في غاية الاحترام ... ثمّ إنّ جميعنا نعرف جيّداً الخصال الحميدة للسّيّدة ... - وسُمع صوت تأييد كورالي لما يقوله - واضحٌ بالطبع ... لا حاجة للتأكيد على ذلك ... - وواصل دون لويجي - والسّيّدة ما تزال شابّة، ولنَقُلْها أيضاً، هي سيّدة جميلة للغاية، وهو ما يدعو إلى الشعور بالحيف والألم في أن تبقى منغلقةً في حزنها وحِدادها ...

-إيه.. نعم - تنهّد الكولونيل سالفاجّو - إنّها قطعة أنثوية رائعة الجمال حقّاً.

- لكنّ الوقت فات، بالنسبة إليكَ - علّق الشّابّ بيكوريلا، نادماً لكونه أسقط مداخلة الكولونيل حول أرامل الحرب، محاوِلاً إطلاق العنان لغضب المتقاعد العجوز فيما يختص بالفاعليّة الرجولية.

- عن أيّ وقتٍ فائتٍ تتحدّث؟ - سأل الكولونيل بعد أن استجمع نفسه في الأريكة كفهد متأهّبٍ للانقضاض على الفريسة.

- الوقت قد فات - كرّر الشّابّ بنبرة وإيماءة أسى .

- لمعلوماتكَ - وثب الكولونيل - أنا، وفي السّنّ التي أنا فيها، في السبعين، لا يمرّ يوم دون أنْ ...

- لم أعدْ أتعرّف عليكَ، يا كولونيل - تدخّل المحاسب بيرانيو - أين صارت هيبتكَ وعزّة مقامكْ؟!

كان بيرانيو مؤمناً، بحقّ، بأنّ سالفاجّو كان كولونيلاً يحترم الهيبة الممنوحة إليه، وبأنّ مقدراتِه العسكرية كانت حقيقيّة، لذا فهو سيستجيب في الحال إلى التنبيه.

- أنتَ على حقّ - قال الكولونيل - أنتَ على حقّ، لكنّي عندما أُستثار بشكلٍ مُخجل ...

- لا تنجرّ وراء هذه الاستفزازات - قطع بيرانيو الحديث بحزم. كان ذلك المشهد يتكرّر كلّ يوم؛ ومَنْ كان ينوي الاستمتاع بغضب الكولونيل حتّى النهاية، فقد كان عليه استغلال غياب بيرانيو عن الجلسة.

وبعودة الكولونيل إلى أريكته، بادر بيرانيو نفسه إلى معاودة

الحديث عن أرملة روشو - إنها حقّاً شابّة وجميلة ... لكنْ، ينبغي الأخذ في الاعتبار بأن لها طفلةً صغيرة، وربّما ستفكّر بأن تُخصّص جلّ وقتها واهتمامها بتلك الطفلة.

- وما الذي تعنيه بتخصيص اهتمامها بالكامل للطفلة؟ - تدخّل موظف البريد - فعندما يتوفّر المال، يا صديقي المحترم، لا وجود لمشكلة من هذا القبيل. الطفلة في وضع جيّد بفضل ما تركه لها والدها؛ ويكفي أن تُسجّلَ في مدرسةٍ داخليّة جيّدة، وتنتهي مشكلة تخصيص جلّ الوقت لها.

- صحيح - أعلن دون لويجي موافقته.

- لكنْ - قال پيرانيو - ينبغي أخذ الجانب الآخر من الموضوع في الاعتبار. فَمَنْ يُفكّر بالزواج من أرملة وأُمّ لطفلة صغيرة، رغم كونها في وضع اقتصادي مُرفّه، فإنّه قد يتردّد في الأمر لأكثر من مرّة.

- أحقّاً؟ وهل هناك ما بيننا، باستثنائكَ أنتَ بالطبع، مَنْ يتردّد، لمرّتَيْن، في أمر ذلك القران؟ الاقتران بامرأة بمثل تلك؟ مَنْ منّا لن يرمي بنفسه كسمكة في شباكها دون تردّد أو تفكيرٍ ولو لنصف مرّة؟ - قال الكومّينداتور زيريلّو.

- اللعنة على الزمن - همهم الكولونيل.

ومنذ تلك اللحظة واجهت مفردات الاحترام للسّيّدة انزلاقاً حلزونياً، وبالطبع فيما يختصّ بالحديث عن مواصفاتها الجسدية، وليس عن خصالها الحميدة، وبينما كان جسدها العاري، وبالذات بعضُ أجزاء ذلك الجسد، تُطَالُ وتُستعرَض من زوايا نظرٍ مختلفة

وشبيهة بما كان المصوّر الانجليزي بيلّي براندت(*) قادراً على تنفيذه في مشاهده العارية. وبلغ الاحتقار قَعْره الأدنى عندما تظاهر الكولونيل المتقاعد كما لو كان رضيعاً ملتصقاً بثدي الأرملة. واحتاج الوضع من جديد إلى سلطة پيرانيو واستعاداته لأحداث تاريخية، أنّب بها الكولونيل ليجعل العسكري، يُقلع عن سلوكه ذاك.

بقي لاورانا صامتاً طوال الوقت دون أن يفوه بكلمة واحدة. كان يُتابع دائماً، بمتعة كبيرة الأحاديث الرجاليّة عن النساء . كانت تلك الأماسي في النادي بالنسبة إليه بمثابة قراءة كتاب. للويجي پيراندیلّو أو لفيتاليانو برانكاتي(**)، حسب مواضيع وروحيّة تلك الحوارات؛ وغالباً ما كانت الحوارات شبيهة بما كتبه برانكاتي، لذا فقد كان البروفيسور دائم الحضور في النادي، وعدّ تواجده هناك بمثابة رحلته السّياحيّة اليوميّة.

إلّا أنّ الثرثرة حول السّيّدة روشو أثارت فيه استياءً واضطراباً واندفاعات متناقضة. كان ساخطاً من جانبٍ، ومسحوراً من الجانب الآخر. ولأكثر من مرّة كان على وشك المغادرة أو على الإعراب عن سخطه. لكنّ حِطّةً وخبثاً، وبعضاً من الألم الغامض الشبيه بالغَيْرة، كان يجتذبه للبقاء جالساً، ويُمسك به عن التّدخّل.

---

*) بيلّي براندت، مصوّر إنجليزي شهير. وُلد في هامبورغ في عام 1904 وتوفيّ في لندن عام 1983. اشتغل مساعداً لمان راي، وأسهم كمصوّر حرّ في العديد من الأعمال السّرياليّة. وشارك خلال سني الحرب العالمية الثانية في إنجاز تحقيقات مصوّرة عن الحرب. اشتُهر عبر مشاهده لنساء عاريات، والتي كان يُركّز عدسته خلالها على جزيئات من المشهد الذي يصوّره من زوايا نظر مختلفة.

**) Vitaliano Brancati - ڤيتالينو برانكاتي - كاتب وسيناريست إيطالي (1907-1954). ألّف عدداً من أهمّ الروايات الإيطالية، من بينها "آنتونيو الجميل" و"دون جوان في صقليّة".

ولمجرّد انطفاء وانقضاء الفاصل الجنسي لحوارات النادي، عاد المنتدون إلى الموضوع الذي طرحه الكومّينداتور زيريلّو حول المرشّح لأقوى لنيل السّيّدة، من بين الرجال غير المتزوّجين، والذين تتراوح أعمارهم ما بين الثلاثين والأربعين عاماً، خريجو الجامعات وذوو المظهر الجميل والشّخصيّة الجذّابة، وهم مَنْ يمتلكون بعض الحظوظ في تشارك السرير مع أرملة روشو. وبادر أحدهم إلى إدراج اسم لاورانا ضمن المرشّحين المحتملين، فعل ذلك لامتداح البروفيسور أكثر من كونه مقتنعاً بحظوظه، وبينما كان وجهه يصطبغ بالحمرة، احتمى لاورانا كما لو أنه نال مديحاً، أشْعَرَهُ بالحياء.

حُلَّ الأمر من قِبَلِ دون لويجي كورڤايا - فلتكفّوا عن إنهاك عقولكم في التّحرّي عن الخطيب المُرتقَب؟ - قال - عندما ستُقرّر السّيّدة أن تقترن من جديد، فالزوج القادم موجود وجاهز ضمن عائلتها.

- ومَنْ يكون هذا الشخص؟ - سأل الكولونيل، بنبرة وعيد كَمَنْ أعدّ الصاعقة لإلقائها على مَن اختيرَ للاستمتاع بتلك الوليمة.

- ومَنْ يمكن أن يكون برأيكَ؟ ابن عمّها، صديقنا المحامي روزبلّو - ولم يكن دون لويجي يتناسى أبداً، بالذات عندما يبلغ الخُبث لديه أعلى درجاته، من إسداء الصداقات على خصومه.

- فأر الكنيسة ذاك؟ - استنكر الكولونيل. وبنفس مقدار دقّته في التصويب بسلاحه، رمى بصقة احتقار صوب إناءٍ في زاوية على بُعد ثلاثة أمتار منه طُلِيَ بالبياض.

- بالضبط - ردّ دون لويجي باسماً ومُرائياً في فطنته – بالضبط ...

كانت تلك الفكرة تُؤرِّق لاورانا منذ أيّام. وقد بلغ ناصيتها بِعَدِّها مُحرّكاً ممكناً ووحيداً للجريمة؛ أمّا الآن، فإنّ دون لويجي كورڤايا بلغها عبر الثرثرة والاغتياب. إلّا أن ثمّة شيئاً ما يظلّ خارج الإطار (أو ربمّا داخله كمُعطى غامض، متناقض وعسير على التفكيك)، وهو افتراض أن يكون روشو حاول سرّاً توجيه ضربةٍ إلى روزيلّو عبر الاستعانة بالبرلماني الشّيوعيّ. فقد كان هناك احتمالان. فإمّا أن يكون روشو قد ضبط السّيّدة وابن عمّها متلبِّسَيْن بجريمة الزنا، كما يُكتَب عادة في محاضر تحقيقات الشرطة؛ أو أنّ شكوكاً، على قَدْرٍ من الواقعية، تولّدت لديه حول الخيانة الزّوجيّة. ففي الحالة الأولى كان ينبغي عدّ سلوك روشو غريباً حقّاً. أي سلوك إنسانٍ يكتشف الأمر، فيتوجّه إلى خصمه بأعصابٍ باردة، ليُعلِمه بأنّه يُخطّط لتدميره، ثمّ يستدير عائداً؛ وفيما يُعدّ العِدّة لذلك الانتقام، يواصل الاحتفاظ بعلاقاتٍ ثابتة مع الرجل الذي يكره. أمّا في الحالة الثانية، فينبغي تفسير الوضع بأنّ روزيلّو قد أدرك ما كان يحيكه روشو ضدّه. أمّا الافتراض الثالث، نعم، كان هناك افتراضٌ ثالث. وهو أنّ تكون السّيّدة، البريئة من المؤامرة بالمطلق، هي التي أخبرت زوجها، أو أن يكون هو قد انتبه إلى الأمر. وبما أنّه كان على ثقة كاملة بوفاء زوجته وبراءتها، فقد كان سيكتفي بفصم أواصره مع الآخر، وكانت شخصيته المسالمة قادرة على احتمال وتفهّم مآلات الاكتواء بالعشق، وما كان أبداً ليتعامل مع إساءةٍ غير عَصيّة على الإصلاح بانتقام غير قابل للتصحيح.

على أنّه ينبغي أخذ أمر آخر في الاعتبار؛ فعندما توجّه روشو إلى البرلماني ليطّلع منه على استعداده لتفجير الفضيحة، لم يكنْ بعدُ مستعدّاً للانتقام، أو هو، بالأحرى، قال له بأنّ عليه أن يُقرّر إعلامه

بكلّ شيء أو بلا شيء، بحسب ... بحسب ماذا؟ بحسب، أنّ يُغيّر روزيلّو من سلوكه تحت وطأة التهديد؟ وإذاً فبتهديده مباشرة، كان روشو قد وضع روزيلّو أمام هذا الخيار؟ وبناءً على هذا، ينبغي أن يعود الانتباه صوب الاحتمال الأوّل. ويبدو سلوك روشو غريباً وشبيهاً بسلوك أبناء الطبقات الراقية في القارّة(*)، كمشهدٍ سينمائي لرجل مخدوع، يعشق زوجته، وهو عازم بحزم على الاحتفاظ بها.

وبرغم أنّ لاورانا كان حازماً إزاء الأسلوب العاطفي الانفعالي في التعامل مع أمور الحياة، ومناهضاً للهيام بالذات ولعشق الشرف، فلم يكن يتجاهل بأنّ في تلك القراءة قَدْراً من الإجحاف والإهانة تجاه ذكرى روشو. لذا فقد كان يسعى جاهداً إلى تهشيم هذا الاحتمال وذَرِّه في مهبِّ الريح. لكنه، ومهما دار حول الموضوع، فقد كان يرى الصورة مُلفّعة بالغموض وبالالتباس. إذْ لم تكن الأواصر ما بين الأسباب والنتائج قد توضّحت بشكل كامل، وبالاستناد إلى ما توفّر لديه من معلومات حول آليّة الجريمة، فقد كانت ما تزال هناك ظلال من الغموض تُخيّم على الأواصر ما بين شخصيات القضية، وهي ما كانت تزيل من تلك الأواصر مقدرة الوضوح. وما بين الغموض واللبس شعر لاورانا بنفسه متورِّطاً في القضية سواء على الصعيد الأخلاقي أو على الصعيد الحسّيّ.

*) السلوك الراقي لسكّان القارّة، والقارّة بالنسبة إلى الصّقلّيّين تبدأ من روما وما إلى شمالها.

14

لو استندت قضيّة جنائيةٌ ما على ثلاثة دلائل مُقنعة، وعلى مُحرِّك برز بشكل واهٍ من بين ثنايا ثرثرة اغتيابٍ ونميمة، وأنّ هذه القضيّة انتهت إلى قرار حُكمٍ بالإدانة، فقد كان بإمكان لاورانا أن يجترح سبباً لتقوية إحساسه بالاشمئزاز الفطري الذي يحمله في داخله ضدّ إدارة القضاء، وضدّ فلسفة السجال المتواصل مع المبادئ التي انحدر منها القضاء. إلّا أنّ ذلك المُحرّك للجريمة، والأدلّة الثلاثة التي تصارعت وتوحّدت في داخله، كانت تبدو له كافية بما لا يترك مجالاً للشّكّ في ضلوع روزيلّو بالجريمة.

وكما كان راهب كنيسة سانت آنّا يقول، فإن روزيلو لم يكن إلّا بليداً، لكنْ، غير خالٍ من المكر والدهاء، وقد نظّم جريمته بدهاء بالغ، وفي إطارٍ مُجرّب في تاريخ الإجرام. إلّا أنّ لاورانا كان يعتقد أنّ روزيلّو، وبرغم ما عُرفَ عنه من مكر واحتيال، قد اقترف أخطاءً، في مقدّمها، تجاهله لطبيعة الجريدة التي قصّ منها الكلمات المُلصقة في ورقة رسالة التهديد، فبسبب اعتياده على رؤية جريدة أوسّيرفاتوري رومانو في منزله وفي الأماكن التي يرتادها، اعتقد بأنّها ليست إلّا واحدةً من الجرائد الأخرى؛ أمّا الخطأ الثاني، فهو تركُهُ لكلّ تلك المساحة من الوقت، وإتاحته الفرصة لروشو بالتّحرّك وبمشاورة البعض. لكنْ، لم

كان هناك مهربٌ من اقتراف هذا الخطأ، إذْ لا يُمكن الإعدادُ لجريمة قَتْل كهذه، وتنفيذها بين عشية وضحاها؛ أمّا الخطأ الثالث. وهو أن يُتيحَ الفرصة للآخرين بمشاهدته في الأماكن العامّة برفقة القاتل المفترَض، بينما دُخان سيغار برانكا ما يزال مُحلِّقاً كالمنطاد في هواء التحقيقات، وفي تغطيات الصحف لأخبار الجرائم.

وبديهي بأنّ هناك اختلافاً بيِّناً ما بين مَنْ يمتلك في سرّه دليلاً على جريمة ما، ومَنْ يتقدّم للإدلاء بدليل من ذلك النوع، كأنْ يُسطِّرهُ على الورق كدعوى، أو أن يُصدره كقرارٍ لحُكم. وربّما كان لاورانا يُفكّر بأنّ الشّرطيّ أو القاضي سيعثران على مفردات أساسيّة لتثبيت قناعاتهما عبر المواجهة الفعلية والجسدية مع المُتّهم. وذلك عبر سلوك المتّهم، نظراته، تردّداته، استثاراته وفي ما ينطق به من كلمات؛ وهذه كلها أمورٌ يعسر تلمُّسها من خلال المتابعات الصّحفيّة عن القضيّة ذاتها في الجرائد. وهذا هو بالضبط ما كان يمنحه القناعة المطلقة باقتراف روزيلّو للذنب. وكما هو معروف، فإنّ هناك قضايا يأتي خلالها أبرياءٌ بسلوك مشابه لمَن اقترف الذنب، وهو ما يجعلهم يُضيِّعون أنفسهم؛ وغالباً ما، أو بالأحرى، يُضيّعُ الإيطاليون أنفسهم بالفعل، ويتصرّفون دائماً كما المذنبين إذا ما وجدوا أنفسهم تحت ناظرَيْ شرطي المرور أو حَرَس الجمارك أو شرطة الدرك أو القاضي(*). لكنّ الوضع مع لاورانا مختلفٌ تماماً، فهو بعيدٌ كل البُعد عن القانون ومن جميع أولئك الذين ارتدوا برّات سلطات القانون، وكان في ذلك أبعد ممّا هو كوكب المرّيخ عن الأرض، وكان يرى الشرطة والقضاة

*) ويعني الكاتب هنا بأنّ الإيطالي لا يستوعب أيّاً من أشكال السلطة كجزء من منظومة العدالة، بل بعدّها شكلاً من أشكل السطوة والقمْع.

على مسافة خارجةٍ عن التّصوّر، بالضبط كما لو كانوا من كائنات المرّيخ، والذين يتجسّدون بين الحين والآخر في آلام البشر وجنونهم.

وكان روزيلّو، منذ اليوم الذي سأله فيه لاورانا عن الشخص الذي كان برفقته على سُلّم دار القضاء، قد فَقَدَ صوابه. كان يسعى دائماً إلى تجنّبه، وحين يصعب عليه التّهرّب من نظرته، كان يُومِئ صوبه بمجرّد إشارةٍ للتّحيّة عن بُعد؛ ومع ذلك كان، في بعض الأحيان، يُوقِفه، ليعبّر له عن مشاعر الودّ، واضعاً تحت التّصرّف خدماته وتأثيراته على مدير التربية في مركز المحافظة وعلى نوّاب الوزراء والوزراء، ولمجرّد إعراب لاورانا عن امتنانه لذلك الاستعداد، وإعلامِه بعدم احتياجه إلى توصياتِ صوب الشخصيات النافذة في البيروقراطيّة المدرسية، كانت سحنة روزيلّو تصطبغ بالريبة وبالصرامة. ربّما جالت في خاطر روزيلّو فكرة أنّ لاورانا يرفض، بازدراء إنسانٍ شريف، مشاعر الودّ التي أُبديت صوبه من أيّ مجرمٍ، وقد يكون فكّر أيضاً بأنّ لاورانا يُفضِّل الإفصاح عن شكوكه لعريف أول الشرطة أو إلى المفوَّض، أو أن يُوجّه أحد المُحقّقين صوبها، بشكلٍ مباشر أو غير مباشر. إلّا أنّ لاورانا كان، في واقع الحال، أبعد ما يكون من هذه النوايا؛ وكانت محنته تكمن بالذات في أنّ روزيلّو يُحمِّله وزرَ أفكارٍ من هذا القبيل. وكان خليطٌ من الخوف والقلق من أن يؤول مصيره هو أيضاً إلى ما آل اليه مصير روشو والصّيدليّ يُولِّد فيه حذراً وقَدْراً من حبِّ الذات، يدفعانه إلى الرفض القاطع لفكرة وقوع المذنبين في شباك العدالة بفضل إسهامٍ مباشرٍ من قِبَلِه. وهو يرى بأنّ ما استشعره تجاه هذه القضيّة ليس إلّا مجرّد فضولٍ إنساني وذهني، وهو ليس فضولاً قابلاً للمقارنة أو المقاربة مع ما ينبغي أن يَسِم مَنْ يتقاضون من المجتمع والدولة

رواتب وأجوراً من أجل أداء مهمّة فرض القانون وإحقاقه على مَنْ ينتهكون ذلك القانون ويخرقون مفرداته. كان حبّ الذات الغامض الذي يشعر به لاورانا في تلك اللحظة مُثقَلاً بقرونٍ من الحيف الذي أُذيقَ إلى شعب مقهورٌ ومنهزم، وألقى وزر ذلك الحيف على كاهل القانون ومَنْ كانوا أدواتٍ له. وما تزال قائمةً لدى الناس هنا القناعة في أنّ التنفيذ الأفضل للقانون والتحقيق الأصحّ للعدالة، ما لم يكن المرء راغباً في إحالتهما إلى حُكم القَدَر أو إلى انتقام الرّبّ، لا يمكن لهما إلّا أن يخرجا من فُوَّهَة بندقية مزدوجة الماسورة.

كان لاورانا يشعر، في الوقت ذاته، بالاستياء إزاء إحساسه بتواطؤ وتضامن غير مقصود صوب روزيلّو وصوب القاتل المأجور، وبعيداً عن مشاعر الاستياء والاشمئزاز لديه، فقد كان إحساسه ذاك يمنح المُتّهَمَيْن قَدْراً من الحصانة والأمان اللذَيْن كانا افتقدا إليهما دون شكّ في الآونة الأخيرة، بسبب فضوله هو. لكنْ، أكان من العدل أن يُمنح روزيلّو كل ذلك الأمان والحصانة بالشكل الذي يمكّنُهُ من احتلال مكان ذلك الرجل المغدور إلى جانب المرأة التي تشعّ صورتُها مُنيرةً ذهن لاورانا، كما لو كانت المركزَ من دهليزٍ قُدَّ من العشق والموت معاً؟ وهنا بالضبط كانت الرغبة لدى لاورانا تتزايد وتُصبح الشهوة أكثر غموضاً . فمن جانب كانت تَمثُلُ أمامَهُ الغَيْرة المجّانيّة، غير المبرّرة والمحمّلة بكل الإخفاقات والخجل والقَمْع الذي مُورِسَ عليه طيلة حياة كاملة، ومن الجانب الآخر، كانت هناك المتعة اللاذعة والقبول بالتنفيس البصري لإشباع الرغبات. كان لاورانا يعيش ذلك كلّه بارتباكٍ ثقيل، وعلى شكلِ ومضاتِ هلوسةٍ محمومة.

وانقضى شهر أكتوبر بأسره على هذه الشاكلة.

وشهدت بدايات نوفمبر أربعة أيّام للعطلة الرّسميّة بمناسبة عيد الموتى في الثاني من نوفمبر، وعيد الانتصار(*) في الرابع من نوفمبر، واكتشف لاورانا أنّ العديد من المصائب قد تحدث للمرء بسبب فضوله وعجزه عن الاحتماء داخل جدران منزله والمكوث فيه، واكتشف أيضاً بأن فرصة المكوث في المنزل فتح أمامه آفاقاً جديدة للعمل ولحظات فرح جميله قضّاها في القراءات. خرج من المنزل في صباح الثاني من نوفمبر لمرافقة والدته إلى المقبرة، لزيارة الموتى. وبعد أن تأكّدا بأن قبور راحليهم مزوّدةٌ بالورود وبالشموع، لأنّهما يدفعان لعامل المقبرة أجراً إضافياً للاعتناء بها، قرّرت السّيّدة العجوز أن تجول ما بين دروب المقبرة، لتزور قبور الأقارب والأصدقاء، وتُصلّي لهم صلاة الموتى، وحين توقّفا أمام مدفن عائلة روشو، كانت السّيّدة لويزا، بأناقتها الكاملة، راكعة، وقد أراحت رُكبَتَيْها على وسادة من المخمل. كانت تُصلّي أمام شاهدة الرخام التي حملت اسم زوجها "الذي اختطفه الموت من بين أحضان أهله قبل الأوان"، وفي منتصف الشاهدة صورة سيراميكية لامعة للمسكين روشو، كانت تُظهره بأقلّ من عمره الحقيقي بعشرين سنة على الأقلّ، وبروحية حيوية، لكنْ، حزينة. نهضت السّيّدة لتُرحِّب بالزائرَيْن، وأخبرتْهما بأنّها اختارت صورة زوجها في شبابه، لأنها أرادت الاحتفاء بالسنوات التي تعرّفت عليه خلالها؛ وأوضحت لهما أواصر قرابة الدم التي تربط بينها ومَنْ

---

*) يوم الثاني من نوفمبر المخصّص لزيارة قبور الموتى، ويوم الرابع من نوفمبر هو يوم الانتصار الإيطالي على الجيش النّمساويّ في الحرب العالمية الأولى.

ترقد رفاتهم في ذلك المدفن، هي الحَيّة التي تعيش حياتها بألمٍ كبير، تنهّدت وتأوّهت باكيةً بدموع غير مَرئيّة. أدّت السّيّدة لاورانا صلاة الميتين أمام الشواهد. وحين تبادل الثلاثة تحيات الوداع بدا للاورانا بأنّ السّيّدة لويزا أبقت يدها في يده خلال المصافحة وقتاً أطول، وبدا له بأنّها ألقت إليه نظرةً توحي إلى التّوسّل للوصول إلى اتفاق ما، وتوقّع بأنّ ابن العمّ، العشيق، قد روى لها كلّ شيء. ولذا فهي تتوسّل إليه مطالبة بسكوته. شعر بالاضطراب، لأنّ ذلك يؤكّد اشتراكها المباشر في المخطّط الجرمي.

لكنّ السّيّدة لم تكن بحاجة إلى أن تتوسّل سكوته، فقد كان قرار لاورانا قد استقرّ على قضاء مساءاته جميعها في المنزل، وتوصّل إلى ذلك القرار لرغبته في النسيان، وفي أنْ يُنسَى من قبَل الآخرين، وبأن يُعيد إلى روزيلّو إحساس الأمان والحرّيّة الذي فَقَدَهُ في الآونة الأخيرة. وكان البروفيسور راغباً في منح الأمان ذاته إليها أيضاً، إلى السّيّدة لويزا. التي لا بدّ أنّها شعرت بخوفٍ رهيب إلى الدرجة التي أجبرتْها على تلك الجرأة المأتمية، ولم يكن ركوعها لساعات أمام قبر زوجها إلّا انتظاراً لزيارة مَنْ سيُساعدها على النهوض من تلك الرَّكْعة. ولاحظ لاورانا بأنّ حركتها كانت تحت مجهر مجموعة من شباب البلدة الطائشين. ذلك لأن الثوب الأسود الضَّيِّق الذي ارتدتْهُ السّيّدة، كان يُفصِح، حتّى أثناء الجلوس، عن جمال قوامها المنحوت وعن عُريٍ يُشابه شخصيات ديلاكروا العارية، ولكي تنهض من ركعتها كان على السّيّدة لويزا أن تسحب إلى الأعلى طرف الثوب قليلاً، لينكشف بياض فخذها ما فوق الساق المغطّى بجوارب سوداء قاتمة. "يا له

من شعب لَعِين!"، فكّر لاورانا باحتقارٍ ممزوج بالغَيْرة. وجال في خاطره أنّه إذا ما حدث ورُفِعَ طرف تنّورة سوداء سنتيمتراً واحداً في أيّ مكان في العالم، فلا بدّ أن يكون هناك، في تلك اللحظة، صقليّ واحدٌ على الأقلّ، في مساحة لا يقلّ قطرها عن ثلاثين متراً، وقف ليتلصّص على الحدث. ولم يأخذ في اعتباره بأنّه، هو أيضاً، انجذب إلى التماعة اللحم الأبيض تحت الثوب الأسود، وانتبه إلى وجود أولئك الشّبّان، لأنّه صقليّ مثلهم بالضبط، وينتمي إلى جنسهم.

وبينما كانا سائرَيْن في طريق العودة، استندت أُمّه إلى ذراعه، وهمست في أذنه أنّها تتوقّع بأنّ السّيّدة قد تتزوّج عمّا قريب.

- ولماذا تعتقدين ذلك؟ - سألها.

- لأنّ هذه هي سُنّة الحياة. ثمّ إنّها ما تزال شابّةً، وبهذا الجمال.

- لكنّكِ لم تتزوّجي بعد وفاة والدي.

- كنتُ قد تجاوزتُ سنّ الشباب، ثمّ إنّني لم أكن جميلةً أبداً - قالت السّيّدة ذلك بتنهيدة طويلة.

شعر لاورانا بحزن قارب الاشمئزاز "يا للغرابة - فكّر في داخله - أن يشعر المرء بحياةٍ نابضةٍ وهو يجول في دروب مقبرة. ربّما نتج هذا الإحساس من تأثير الطقس في هذا النهار". وكان النهار جميلاً للغاية ودافئاً بالفعل، تفوح خلاله رائحة الأرض الرطبة ممزوجة بروائح جذوع الأشجار؛ كانت تفوح في المقبرة أيضاً عطور نابعة من الأسيجة التي نبت فيها النعنع البرّيّ وإكليل الجبل، إضافةً إلى القَرَنْفُل والورود التي وُضعت قرب قبور العوائل الثّريّة.

- ومَنْ هو الشخص الذي يمكن أن تتزوّجه السّيّدة، برأيكِ؟ - سأل لاورنا أُمّه بقَدْرٍ من الانزعاج.

- ستتزوّج من ابن عمّها بالتأكيد، المحامي روزيلّو - أجابت الأُمّ، بعد أن توقّفت لتُحدِّق في وجه ابنها.

- ولماذا هو بالذات؟

- لأنهما ترعرعا معاً، في البيت نفسه؛ تعرّفا على بعضهما بشكلٍ جيّد؛ ولأن بإمكان زواجهما توحيد ممتلكاتهما.

- وهل تبدو لكِ هذه أسباباً مُقنعة ومقبولة؟ إنّها تبدو بالنسبة عرضاً فاحشاً، وبالذات لأنّهما ترعرعا معاً في المنزل نفسه.

- ألا تعلم بما يقوله المثل الشهير في أنّ المؤامرات والخيانات الأفظع تقع ما بين الأقارب وأخوة التعميد.

- وإذاً، فقد كانت بينهما علاقة جنسية غير مشروعة؟

- ومَنْ يعلم بذلك؟ ما هو مؤكّد، هو أنّ نميمة دارت بين الناس حول علاقة الحبّ فيما بينهما عندما كانا شابَّيْن ويعيشان مع بعضهما في دار الراهب الأقدم، كانا مجرّد شابَّيْن، وقيلَ أيضاً بأن الراهب الأقدم انزعج كثيراً بسبب ذلك. وبحث عن حلولٍ للوضع ... لا أذكر الآن، لكنّ بعض النميمة دار في البلدة في تلك الأوقات.

- ولماذا اجترح الراهب الأقدم حلاً للأمر؟ لِمَ لَمْ يتركهما يتزوّجان، إذا كان متحابَّيْن؟

- أَوَلمْ تُشِرْ أنتَ نفسكَ إلى الفاحشة. لقد كان الراهب الأقدم من رأيكَ نفسه.

- أنا أشرتُ إلى الفاحشة، لأنّكِ لم تُخبريني بقصّة الحبّ بينهما، وأوردتُ سبباً لهذا القران أنّهما ترعرعا معاً في المنزل ذاته، وتحدّثتُ عن الممتلكات ... لكنْ، إذا ما كان هناك حبّ بينهما، فإن الوضع مختلفٌ تماماً.

- للزواج ما بين أبناء العمومة، ثمّة حاجة إلى سماحٍ استثنائي خاصّ من قبَل الكنيسة. ولذا فإنّ هناك، دائماً، ثمّة ظلال للخطيئة ... فهل تعتقد بأنّ الراهب الأقدم كان سيوافق على أن يُولَد ذلك الحبّ في منزله بالذات؟ كان الأمر بمثابة الفضيحة، والراهب الأقدم رجل في غاية الدّقّة في إيمانه.

- والآن؟

- ماذا تعني بـ الآن؟

- وإذا ما تزوّجا الآن، أقول، أليس الوضع هو ذاته؟ أُناسٌ كُثر يفكّرون بالطريقة ذاتها التي تفكّرين بها أنتِ. بأنّهما كانا متحابَّيْن منذ البداية، منذ أن كانا يعيشان تحت سقف منزل الراهب الأقدم.

- ليس الوضع الآن بالضبط كما كان في الماضي. فإذا ما حدث القران بينهما، فسيُصبح الأمر الآن شبيهاً بالقيام بعملٍ خيِّر ... أي الزواج من أرملة برفقة طفلة صغيرة، وكذلك توحيد ممتلكات العائلة ...

- وهل توحيد ممتلكات العائلة يندرج تحت إطار الأعمال الخيِّرة؟

- وكيف لا؟! فالممتلكات أيضاً تستدعي فعل الخير.

"يا إلهي، أيّ دينٍ هذا!" فكّر لاورانا. وبالفعل كانت أُمّه تؤكّد مبادئ دين الممتلكات في كلّ يوم من أيّام حياتها، كانت ترفض رَمْي الخبر المتبقّي من وجبات الطعام، أو ما يتبقّى من طعام في الصحون، وكانت ترفض رَمْي الفاكهة الآيلة إلى فساد - أشعر بالألم إزاء ذلك - كانت تقول. وكانت تأكل الخبر اليابس والكمّثرى الخَرِبَة، وبسبب اقتناعها ببقاء الطعام صالحاً للأكل مهما مرّ عليه من الوقت، وكانت بذاك تُغامر بأن تُصاب بتسمُّم، قد يودي بحياتها.

- وماذا لو أنّ هذَيْن الاثنَيْن اللذَيْن كانا مُتحابَّيْن في الماضي، قد تواصلا في حبّهما لبعضهما حتّى بعد زواجها هي؟ وأنّهما قرّرا في لحظة ما، التّخلّص من روشو؟

- ذلك غيرُ ممكن - قالت العجوز - فالطبيب المسكين مات بالصدفة، لأنّه كان برفقة الصّيدليّ.

- وماذا لو أن الصّيدليّ نفسه قُتل بسبب كونه برفقة روشو في ذلك اليوم؟

- غير ممكن - قالت العجوز من جديد.

حسنٌ إذاً، غيرُ ممكن، لكنْ، لنعتبر للحظة واحدة بأنّ ذلك ممكن الحدوث ... فهل ستُصرِّين على عَدِّ هذا القران من بين الأعمال الخيِّرة؟

- لقد وقعت أمورٌ أفظع من هذا بكثير - قالت العجوز ذلك دونما أيّ شعور بالفضيحة، بالذات في اللحظة التي كان قد بلغا فيه قبر الصّيدليّ مانّو، الذي كان يُطلق ابتسامته من الصورة السّيراميكيّة الموضوعة في منتصف الشاهدة تحت جناحَي ملاك. كان يبتسم كما لو أنّه عاد للتّوّ من رحلة صيدٍ دسمة وسعيدة.

مكتبة
t.me/t_pdf

15

أمضى لاورانا أيّام العطلة الأربعة في تنظيم مفردات دروسه في اللغة الإيطاليّة والتاريخ وتحديثها. كان مُحبّاً لمهنته، وحريصاً على الدّقّة في أدائها. وقد مكّنه ذلك الانشغال من نسيان شبه تام للقضية التي وَجَدَ نفسه متورّطاً في شباكها؛ وكان، حتّى في اللحظات التي كانت تعود إلى ذهنه، يشعر بالانفصام عنها، ويشعر بها بعيدة عنه ومقصيّة سواء في الشكل أو المضمون. وكان اللقاء مع السّيّدة لويزا في المقبرة، بالتّأمّلات التي أثارها، قد دخل في إطار أدبي ذي إيقاع قاتم، مُلفّعٍ برومانسيّة كاثوليكيّة.

لكن عودته إلى الحياة اليومية الاعتيادية في العمل المدرسي، الأكثر إثارة للإنهاك بعد أربعة أيّامٍ من الراحة والعطلة، تلوّنت بمفاجأة غير مُنتظرة، إذْ وجد الأرملة روشو جالسة على متن الحافلة الراحلة إلى مركز المحافظة.

كانت السّيّدة جالسة على الكرسي الأوّل في الحافلة، وساقاها شبه مُلتصقَتَيْن بباب الحافلة المفتوح. كان المقعد الذي إلى جوارها فارغاً، وللردّ على تحيّته بابتسامة خجولة ومُرحّبة، أشارت السيّدة إلى المقعد الفارغ. شعر لاورانا للحظة ما بالتّردّد. وساوره إحساسٌ بالخجل في أنّه، بجلوسه إلى جوارها في الصّفّ الأوّل من

الحافلة، قد يمنح إلى الآخرين، الوسيلة لإماطة اللثام عن مشاعر الرغبة والرفض تجاهها، وقد دفعه ذلك، للحظةٍ، إلى البحث عن عُذر يُهَرِّبهُ من تلك الدعوة. أدار ناظرَيْه داخل الحافلة، علّه يعثر فيها على أحد من معارفه، ليدّعيَ بأنّ عليه أن يتحدّث معه في أمرٍ ما، لكنّه لم يجد في الحافلة إلّا فلاحين وطَلَبَة لا يعرفهم، وكانت المقاعد جميعها مشغولةً. وافق على الدعوة شاكراً السّيّدة. أسرّت إليه بأنّها محظوظة للغاية، لأنّ المقعد الذي إلى جوارها ظلّ خالياً حتّى تلك اللحظة، بحيث يجلس إلى جوارها مَنْ تتمكّن من محادثته خلال الرحلة، قالت بأنّ الكلام مع شخصٍ آخر، هو الأمر الوحيد الذي يُمكّنها على تحمّل اضطرابات الرحلة على متن الحافلة. وأخبرتْهُ بأنّها تشعر بتلك الاضطرابات فقط خلال السفر بالحافلة، ولم تكن تشعر بها في السّيّارة أو على متن القطار. تحدّثتْ عن صفاء الطقس في ذلك اليوم وجماله الشبيه بيوم صيفي، وبأنّه يوم مناسب لقِطافِ الزيتون وجمعه، ثمّ أخبرتْهُ عن عمّها الراهب الأقدم الذي يعاني من وعكة عابرة ... كانت تثرثرُ بلسانٍ ذَرِب، وبقَدْرٍ من السّطحيّة والسذاجة وبنبرة تُدمي الآذان، وبالفعل انتاب لاورانا الإحساس بأنّ أذنَيْه بدأتا تنزفان دماً، بالضبط مثل الشعور الذي ينتابكَ وأنتَ تهبط من الجبل إلى الوادي بشكل مفاجِئ. لم يشعر بذلك لهبوطه المفاجِئ من قمّة جبل، بل بسبب النعاس والانزعاج اللذَيْن تسبّب بهما رنين المُنبّه فجراً والقهوة المُخفّفة بالماء الساخن التي أعدّتْها له والدته. في الوقت ذاته، كان الدم يغلي في عروقه لجلوسه إلى جوارها، وبقَدْر ما كان حكمه عليها يزداد حدّةً وقساوةً، وبقَدْرِ ما كان يلمس فيها بؤساً إنسانياً وقَدْراً من العهر، فقد كان بهاء ذلك الجسد الباهر،

وجهها، شفتاها الممتلئتان، شَعْرها الأسود الفاحم، وعطرها الموحي برائحة قويّة للسرير وللوسن، يُثير فيه إحساساً بالشبق المؤلم وبرغبةٌ مؤلمة جسدياً.

وكان مثيراً للفضول بأنّ يحدث له هذا كلّه، وهو الذي كان قد التقاها لمرّات قبل مقتل روشو، وتجاذب معها أطراف الحديث لأكثر من مرّة. كانت امرأة جميلة دونما أدنى شكّ. لكنّها لم تكن مختلفة عن كثيرات، بالذات في هذه الأيّام، حيث صارت مقاييس جمال المرأة بفضل العديد من نجمات السينما متنوّعة وواسعة وصارت تلك المقاييس تشمل الرهافة والأجساد الممتلئة. كان قد رآها جميلة جدّاً ومشتهاة للغاية في ثياب الحِداد في ظلّ الصورة الفوتوغرافيّة العملاقة لزوجها الراحل في غرفة الضيوف في منزلها، كانت ستائر الغرفة مغلقة ومُنارة بضياء المصابيح وقد غُطّيت المرايا الموجودة فيها بستائر سوداء. هالة كئيبة من السخرية كانت تؤطّر الحضور الغائب للزوج الميّت إلى جوار حضورها الحَيّ بجسدها الشّابّ والبضّ. ثمّ جاءت المعلومات الكاشفة للجريمة لتُغذّي وتُعَقّد حالة الاستثارة لديه. العشق والخيانة والنَّفْس الشّرّيرة التي رُسمت بها تلك الجريمة التي نُفّذت بدم بارد؛ وبتحصيل الحاصل، كانت المرأة في نظره في تلك اللحظة تجسيداً للشّرّ الذي يتحوّل إلى شهوةٍ غامضة وبديعة.

وفي اندفاعاته هذه، كان لاورانا يُدرك جيّداً الموانع التي تعلّمها من درسٍ قديم حول مغزى الخطيئة، من الضغوط، ومن الشعور بالرعب في مواجهة الجنس، وهو الشعور الذي لم يتحرّر منه أبداً،

وكان ذلك الشعور يجتاحه مراراً بالمقدار ذاته الذي يأمره عقله بالتفعيلِ الحازمِ للمنطق. وبينما كان جالساً إلى جوار جسدها المنتفض الذي تُلامس استداراته أجزاءً من جسده، فقد كان يشعر بنفسه، إذّاك، كما لو أنّه استُنسِخَ أو انشطر إلى كائنَيْن، وكثيراً ما كانت مواضيع الازدواج والانشطار تُثير اهتماماته وفضوله الأدبي، إلّا أنّ ذلك كلّه يتحقّق الآن بشكله الطّبيعيّ.

لم يكن لاورانا يعرف ما الذي عليه أن يفعل عندما هبطا من الحافلة. لم يعلم إنْ كان عليه أن يُودِّعها أو أن يرافقها إلى حيث تشاء الذهاب إليه. بقيا واقفَيْن لبرهة في منتصف الساحة. لكنّ السّيّدة بدت وكأنها فقدت فجأة السلوك البليد الذي ميّزها طوال الرحلة، وصارت ملامحها أكثر حدّةً وجدّيّةً، وأخبرتْهُ بأنّها جاءت إلى مركز المحافظة حصرياً للقائه، ولتُسِرّ إليه أمراً ما - لقد اكتشفتُ - قالت - بأنّ زوجي ذهب بالفعل إلى روما للقاء صديقه البرلماني. وبأنّه طلب منه أن يفعل ما أخبرتَني به في تلك الأُمسيّة التي زُرتَني فيها إلى منزلي، هل تذكر؟ حين جئتَ برفقة ابن عمّي - وأرفقتْ مفردَتَيَ ابن عمّي بإيماءة تقربُ من التّقزّز.

- أحقّاً؟ - سأل لاورانا. كان مرتبِكاً، ويبحث بشكلٍ عاجل عن السبب الداعي إلى هذا الإفصاح غير المتوقّع.

- نعم، لقد اكتشفتُ ذلك بالصدفة المحضة، بعد أن كنتُ قد فقدتُ الأمل ... لأنّ ما أخبرتَني به في تلك الأُمسيّة أعاد إلى ذهني أموراً كثيرة للغاية ... أشياء صغيرة وعديدة، إذا ما وُضع أحدها إلى جانب الآخر، فإنّها ستمنح صورة صادقةً وكاملة لما كنتَ قد تعرّفتَ

عليه أنتَ بالصدفة المحضة ... وهكذا بدأتُ بالبحث والتّحرّي. وفي النهاية عثرتُ على دفتر مذكّرات كان زوجي يحتفظ به دون علْمي، وكان قد أخفاه وراء صفٍّ من الكُتُب على رفوف مكتبته. عثرتُ عليه بعدما كانت آمالي قد انطفأت، رغم أنّني كنتُ أغلي في داخلي. حدث ذلك عندما سحبتُ، بالصدفة، كتاباً كنتُ أرغب في قراءته.

- دفتر مذكّرات .. كان يحتفظ بدفتر مذكّرات ...

- تقويم سنوي من نوع التقاويم التي تُهديها مصانع الأدوية إلى الأطبّاء ... وكان يُسجّل مجريات كل يوم بثلاثة أو بأربعة سطور، وبالضبط ابتداءً من الأوّل من يناير، وبخطّه المبهم الذي يميّز خطّ الأطبّاء جميعاً، كان قد سجّل أموراً عديدة، بدت له ضرورية للتّذكّر. وبالذات بعض الأمور التي تخصّ الطفلة. ثمّ، وفي لحظة ما في بدايات شهر أبريل، ابتدأ الكتابة حول شخصٍ لا يُورِد اسمه ...

- لا يُورِد اسمه؟ - سأل لاورانا بنبرة شكٍّ ساخرة.

- لا، لا يُورِد اسمه؛ لكنّه واضح مَنْ هو.

آه، واضحٌ مَنْ هو - قال لاورانا بنبرةٍ دلّت على استعداده بالمشاركة في هذه اللعبة دون الوقوع في حبائلها.

- بالتأكيد، ودون أيّ احتمال للخطأ، فإن مَنْ كتب عنه زوجي، هو ابن عمّي.

لم يكن لاورانا يتوقّع ذلك، وشعر بضيقٍ في التّنفّس، وصار يشهق ويزفر بصعوبة بالغة.

- أنا أثقُ بكَ، لذا أُفشي لك بهذا السرّ - واصلت السّيّدة - لأنّني أعلم جيّداً مقدار صداقتكَ وودّكَ لزوجي. إنّه أمرٌ لا يعرفه أحد، ولا ينبغي أن يعرفه أحد إلى حين امتلاك الأدلّة جميعها بين يَدَي ... واليوم جئتُ إلى هنا أبحث عنها. لديّ بعض الشكوك.

- وإذاً...- قال لاورانا.

- وإذاً، ماذا؟

كان ينوي أن يقول، وإذاً، فليس لها أيّ دور في الجريمة، وبأنّها بريئة، وبأنّه ظلمها بشكوكه. لكن وجهه احمرّ، وقال لها - وإذاً، فلم تعودي مُقتنعةً بأنّ زوجكِ قُتل لأنّه كان برفقة الصّيدليّ في ذلك اليوم؟

- إنْ أردتَ الحقيقة، ليس بإمكاني الجزم في ذلك حتّى الآن. لكنه ممكن ... وأنتَ، ما رأيكَ؟

- أنا؟

- هل أنتَ مُقتنع بذلك؟

- مقتنعٌ بماذا؟

- بمسؤولية ابن عمّي، وبأنّه لم يكن للصّيدليّ المسكين أيّ دَخْلٍ في الموضوع.

- في الحقيقة ...

- أرجوكَ، لا تُخفِ عنّي شيئاً. أنا في أمَسِّ الحاجة إليكَ - قالت

السّيّدة بوضوحٍ متعمّد وهي تُحدِّق في عينَي لاورانا مباشرةً بنظرة توسّل مُضيئة.

- إنْ أردتِ الحقيقة، لستُ مُقتنعاً بالكامل. لنقُلْ بأنّ لديّ بعض الشكوك. وهي، في الواقع، خطيرةٌ نوعاً ما ... لكنْ، أنتِ ... أأنتِ مستعدّةٌ حقّاً للتّحرّك ضدّ ابن عمّك؟

- ولِمَ لا؟ لو كان موت زوجي ... لكنّي أحتاج إلى مساعدتكَ.

- أنا في خدمتكِ - قال لاورانا متلعثماً.

- قبل كلّ شيء، ينبغي أن تَعِدَني بأنّكَ لن تُخبر أحداً بشيء ما، وبأنّكَ لن تُخبر حتّى والدتكَ، بما أفْصَحْتُ لكَ به للتّوّ ...

- أقسم لكِ على ذلك.

- ثمّ، سنجمع ما تعرفه أنتَ عن الأمر، وما آمل أن أعرفه أنا اليوم، وسنتّفق على الخطوات التالية بعد أن نتحاور ونُقرّر نوعية التّحرّك والفعل.

- ثمّة حاجة ماسّة إلى التّأنّي والحذر. لأن امتلاك الشّكّ والشبهة شيء ...

- آمل أن أصل اليوم إلى ما هو مؤكّدٌ.

- لكنْ، كيف؟

- ليس أمراً يمكن أن يُناقَش في وضعٍ مثل هذا. ثمّ إنّه ما يزال مبكّراً ... أنا سأمكث هنا حتّى مساء الغد. وإذا لم تمانع، فإنّ بإمكاننا اللقاء مساء غد ... أين بإمكاننا أن نلتقي؟

- لا أعلم ... لا أعلم ... أعني ، إذا لم تكن لديكِ مخاوف في أن يشاهدوكِ برفقتي ...

- لا مخاوف لديّ بالمطلق.

- بإمكاننا أن نلتقي في مقهى.

- في مقهى، حسنٌ جدّاً.

- في مقهى روميريس. لا يرتاده الكثيرون، وبإمكاننا الانزواء ...

- في حوالي السابعة؟ في السابعة؟

- أليس الوقت متأخّراً شيئاً ما، بالنسبة إليكِ؟

- كلاّ، لا تقلق ... ثمّ إنّني لا أعتقد بأنّني سأنتهي من مشاويري قبل السابعة. فإنّ لديّ اليوم وغداً مهمّة عسيرة للغاية ... لكنّكَ ستعرف كل شيء مساء غد ... في السابعة إذاً. في مقهى روميريس ... ثمّ بإمكاننا العودة إلى البلدة بالقطار الأخير. إذا لم يُزعجكَ ذلك.

- سأكون في غاية السعادة - قال لاورانا، وقد احمرّ وجهه من السعادة.

- وماذا عن والدتكَ؟ ما الذي ستقول لوالدتكَ؟

- سأُخبرها بأنّ عليّ أن أتأخّر في المدينة بسبب انشغالات تخصّ المدرسة، وهي، على أيّة حال، ليست المرّة الأولى.

- هل تعدني؟ - سألت السّيّدة بابتسامة واعدة.

- أُقسم لكِ على ذلك - قال لاورانا مُحلِّقاً بجناحَي فرحة وانتشاء.

- إلى اللقاء، إذاً - قالت السّيّدة وهي تمدّ إليه يدها.

محمولاً باندفاعة حبّ وندم، انحنى لاورانا على تلك اليد، وأمسك بها كما لو أنّه سيُقبّلها. ثمّ بقي واقفاً ينظر إليها وهي تبتعد عن الساحة المليئة بأشجار النخيل وبزُرقة السماء في يومٍ مشرق. مخلوقةٌ بهيّة، جميلة، بريئة وجريئة. وكاد أنْ يَشرُقُ بالدمع.

16

صُمِّم مقهى روميريس بأكمله بأسلوب الـ "فلوريالي"(*) بمراياه الضخمة المؤطّرة بأُسُود نُسخت من أعمالٍ فنِّيَّة أُخرى. وكان الكاونتر الخشبي المنحوت من شجرة يبدو وكأنّه مَدَّ جذوره إلى جميع الطاولات والكراسي في المكان، وبلغت تلك الجذور أذرعَ الثّريّات وحتّى مماسك أكواب القهوة. كان المقهى يعيش على أمجاد صفحات كاتبٍ من تاريخ تلك المدينة(**) اعتاد على ارتياده يوميّاً قبل ما يربو على ثلاثين عاماً، أكثر من عيشه على ارتياد الناس إليه الآن. وكان العدد الضئيل من روّاد المقهى هم من الغرباء العابرين. أناس جاؤوا ليستذكروا ماضي ذلك المقهى العريق، وكان هناك ثمّة روّاد، مثل لاورانا، الذي اصطفى المقهى لهدوئه وللتاريخ الأدبي الذي توارثه. ولم يكن أحدٌ يُدرك السبب الذي يدعو السّيّد روميريس، الأخير الباقي على قيد الحياة مِنْ سلالة روميريس العريقة، إلى إبقاء المقهى مفتوحاً حتّى الآن. ربّما كان ذلك لشغفٍ ثقافي، أو ربّما كان احتفاءً بالكاتب الذي واظب على ارتياده، وخلّده تاريخيّاً.

---

*) أسلوب تزييني ساد في بدايات القرن العشرين، وسُمّي أيضاً باسم "ليبرتي" على أساس اسم مخازن في لندن اختصّت بتجارة الأثاث القادم من الشرق الأقصى، وأسّسها في عام 1875 آرثر ليسينبس ليبيرتي.

**) ويعني به شاشّا مواطنه الكبير لويجي پيرانديلّو.

وصل لاورانا إلى المقهى في السابعة إلّا عشر دقائق. وكان من النادر أن يتواجد في مقهى روميريس في تلك الساعة؛ وكان في المقهى روّاده الاعتياديون الذين يقضون فيه صباحاتهم وبضع ساعاتٍ ما قبل الغروب. كان السّيّد روميريس جالساً وراء الكاونتر الطويل الفاصل ما بين البار ومكان الطاولات، وكان في المقهى البارون آلكوزير، وقد بدا غارقاً في نصف غفوةٍ، كما كان هناك سعادةُ(*) موسكا وسعادة لوميّا، وهما قاضيان بلغا أرفع الدرجات في السّلّم القضائي، وهما يستمتعان الآن براتبَيْهما التّقاعديَّيْن، يتشاركان في لُعبة الداما، ويتذوّقان كأسَيْن من نبيذ مارسالا، وبتدخين نصف سيغار توسكاني(**).

كان لاورانا يعرف الجميع، فألقى عليهم التّحيّة، وتعرّف غالبهم عليه أيضاً، بمَنْ فيهم البارون الذي كان أقلّ الحاضرين تعرّفاً على الناس. تساءل سعادة موسكا عن السبب الذي أتى بالبروفيسور إلى المقهى في هذه الساعة غير المعتادة بالنسبة إليه، فشرح لاورانا بأنّه أضاع الحافلة العائدة إلى البلدة، لذا فإنّ عليه انتظار انطلاق القطار الأخير. جلس إلى إحدى الطاولات في زاوية من الصالة، وطلب من السّيّد روميريس أن يسقيه كأساً من الكونياك. نهض السّيّد روميريس بعناء من مكانه وراء النّصب النّحاسيّ المزهو بالورود، إذْ لم تكن موارد المقهى الضئيلة تسمح له بتشغيل نادل. صبّ الكونياك في الكأس بأناة طقس دِيني، وحمل المشروب إلى طاولة لاورانا. وبما

---

*) لقبٌ شرفيّ يُطلق في العادة على القضاة الكبار والسفراء وكبار رجالات الدولة.

**) نبيذ مارسالا نبيذٌ أبيض، يقرب لونه إلى التماعة الذهب، وغالباً ما يكون حلو المذاق ... أمّا سيغار توسكاني، فهو سيغار من التبغ بمذاق قويّ وحادّ، وعادة ما يُدخّن بعد قَطْعه إلى نصفَيْن.

أنّ لاورانا كان قد فتح كتاباً ليقرأ فيه، استعلم السّيّد روميريس عن الكتاب - إنّها رسائل حبّ، كتبها فولتير - أجاب لاورانا.

- إيه، إيه، - تضاحك السّيّد روميريس - رسائل حبّ كتبها فولتير.

- هل تعرف الكتاب؟ سأل لاورانا.

- صديقي العزيز - قال البارون - أنا أعرف كلّ شيءٍ عن فولتير.

- ومَنْذا الذي يقرأ فولتير في أيّامنا هذه؟ - قال سعادة لوميّا.

أنا أقرؤه - قال سعادة موسكا.

- أيْ نعم، نقرؤه نحن؛ ولا أعلم إلى أيّ مدى يقرؤه البروفيسور الذي هنا ... ووفق ما نرى ممّا يحدث حولنا. في هذه الأوقات، فإنّني لستُ متأكّداً بأنّ يكون فولتير من بين الكتّاب المقروئين على نطاقٍ واسع، أو بالأحرى من المقروئين على الشاكلة الصحيحة - قال سعادة لوميّا.

- صدقتَ - قال البارون، وأطلق حسرة طويلة.

ترك لاورانا الحوار يأخذ مجراه دون أيّ تدخّل منه، وعلى أيّة حال، كانت الحوارات ما بين روّاد روميريس الطاعنين في السّنّ تُجرى على هذه الشاكلة. لحظات صمت طويلة، كان كلّ واحدٍ منهم يجترّ الموضوع في ذهنه؛ تتبع ذلك جملتان أو ثلاثاً بين الحين والآخر. وبالفعل، وبعد مرور ربع ساعة قال سعادةُ موسكا - هؤلاء الكلاب الذين حوالينا لا يقرؤون فولتير - وكانت كلمة كلاب مُخصّصة، في قاموس روّاد مقهى روميريس، للسّياسيّين.

- فولتير فحسب؟ هم لا يقرؤون حتّى الصحف اليوميّة - قال البارون.

- هناك ماركسيون لم يقرؤوا حتّى صفحة واحدة من مؤلّفات كارل ماركس - قال السّيّد روميريس.

- والشّعبيّون(*)- إذْ كان البارون يُصّر على تسمية الدّيموقراطيّينْ المسيحيّينْ باسم "الشّعبيّون" - هؤلاء لم يقرؤوا حتّى صفحة واحدة ممّا كتب دون ستورتسو.

- أوه، دون ستورتسو - دمدم سعادة موسكا، وأتى بإيماءة دالّة على الشَّبَع الممتلئ.

ثمّ خيّم الصمت من جديد. كانت الساعة قد تجاوزت السابعة والربع. كان لاورانا يقرأ في الكتاب دونما اهتمام بالمحتوى وباللغة الإيطالية التي كانت في إحدى رسائل فولتير سيّئة للغاية، وكان بين الفينة والأخرى يرفع رأسه، ليُلقي نظرة على باب المقهى. معروفٌ أن التأخير لربع ساعة، أو حتّى نصف ساعة، يدخل في الاعتياديّات التي تمتلكها المرأة لمفهوم الوقت. لذا لم يكن فاقداً للصبر، لكنه كان مشغول البال، على شاكلة ذلك الانشغال الذي غمره في الأيّام الأخيرة.

---

*) الحزب الشّعبيّ الإيطالي الذي أسّسه السّياسيّ ورجل الدّين دون لويجي ستورتسو في عام 1919، وعندما ساد الحكم الفاشي لبينيتو موسّوليني، أُدرج هذا الحزب في عام 1926 ضمن الأحزاب والحركات المحظورة، وإثر عودة الحياة إلى طبيعيّتها بعد انتهاء الحرب العالميّة الثانية غيّر الحزب اسمه إلى "الحزب الدّيموقراطيّ المسيحي"، وهيمن لعقودٍ طويلة على الحكم في إيطاليا سواء وحده أو عبر تحالفاته مع الحزب الاشتراكي والأحزاب الصغيرة الأخرى. وكان اتّفاق "التسوية التّاريخيّة" الموقّع ما بين زعيم هذا الحزب آلدو مورو، وزعيم الحزب الشّيوعيّ الإيطالي إنريكو بيرلنغوير، قد أنهى في عام 1977 القطيعة المطلقة بين الحزبين، لكنْ، دون أن يُفضي ذلك بهما إلى حكومة مؤتلفة منهما، ووُئدَت تجربة التسوية التّاريخيّة بعد اختطاف واغتيال آلدو مورو من قبَل منظّمة "الألوية الحمراء" الإرهابية في عام 1978. وُلد دون لويجي ستورتسو في عام 1871 وتوفيّ في عام 1959.

انشغال مُفرح بلحظة تضادٍّ مُثير للقلق بمواجهة السّيّدة العجوز لاورانا، كان ذلك يُشبه، بالنسبة إليه، كيوم الحساب، وكانت لويزا (صار يُناديها في داخله بهذا الشكل) تقف إلى جواره في تلك المواجهة.

في الثامنة إلّا رُبُعاً قال البارون آلكوزير إلى السّيّد روميريس، بِنيَّة استفزازيّة واضحة - ثمّ، يا عزيزي السّيّد روميريس، حتّى صاحبكم دون لويجي(*) لم يكن يقرأ فولتير - مُشيراً إلى الكاتب الذي منح الخلود إلى المقهى، والذي كان السّيّد روميريس يحتفي بذكراه كما لو كانت عقيدةً يغار عليها، وكان متطرّفاً للغاية، إنْ جاز القول، في عقيدته هذه، فانبرى مادّاً جبهته من وراء الآلة الحاسبة - وما دخلُ دون لويجي في هذا كلّه؟ - قال - دون لويجي كان يقرأ كلّ شيء، وكان يعرف كلّ شيء ... وإذا لمْ يدخل فولتير ضمن فضاء رؤاه عن العالم، فذلك أمرٌ آخر بالتأكيد.

- لكنْ، يا عزيزي كومّينداتور روميريس - قال سعادة موسكا - أوافقكَ بأن رؤى دون لويجي عن العالم كانت مُختلفة عن رؤى فولتير. لكنْ، ماذا نقول عن البرقية المُرسَلة إلى موسّوليني؟ وماذا عن البيرية والقبّعة الفاشية التي كان يعتمرها على رأسه ...؟

- يا صاحب السعادة، اعذرني. أوَلَم تؤدِّ أنتَ أيضاً القَسَمَ للنظام الفاشي(**)؟ - ردّ السّيّد روميريس وقد أمسك عن غضبه بالكاد، بعد أن كانت عيناه قد احتقنتا بحمرة الدم.

---

*) يعني لويجي پيراندِلّو.

**) أي صيغة قسم الولاء للملك وللدوتشي (موسّوليني) خلال الحكم الفاشي. كان القسم إجبارياً على كلّ موظّفي الدولة، بمنْ فيهم القاضيين لوميّا وموسكا، اللذَيْن يتناقشان الآن في مقهى روميريس.

- أنا لم أفعل ذلك - قال سعادة لوميّا، رافعاً يده إلى الأعلى.

- أشكّ في ذلك - قال سعادة موسكا.

- آه، أنتَ تشكّ في ذلك؟ - قال سعادة لوميّا.

- حسنٌ، نعم، لا شكّ لديّ. لقد كانت تلك مُصادفة، فقد تناسوا أن يُجبروكَ على أداء القَسَم - اعترف سعادة موسكا.

- لم يكن ذلك بالمصادفة. لقد فعلتُ ما مكّنني من مراوغة قَسَم الولاء.

- على أيّة حال، فإن قَسَم الولاء - قال سعادة موسكا - كان من بين ضرورات الحياة. إمّا أن تشرب هذا الحساء أو أن تموت جوعاً.

- أمّا، دون لويجي ... - تضاحك البارون.

- في هذا البلد - قال السّيّد روميريس - صارت الغَيْرة تلتهم قلوب الناس. لقد كتب دون لويجي أشياء نالت إعجاب العالم بأسره، لكنّه ليس هنا إلّا ذلك الرجل الذي أرسل برقية إلى موسّوليني، وليس هذا فحسب، بل اعتمر على رأسه القبّعة الفاشيّة ... يا لها من حكايات تُصيب من يسمعها بالجنون ...! - لا أحد من المتحدّثين الثلاثة تجاوب مع ما قال السّيّد روميريس، ولم يستجيبوا إلى الإهانة التي وجّهها إليهم. وذلك لأن نِيَّةَ الشيوخ الثلاثة كانت مُتّجهة فقط إلى إغضاب صديقهم.

في ظروف أخرى مختلفة عن التي كان يجد نفسه فيها، كان لارورانا سيستمتع كثيراً بتلك الحوارات. وكان ذلك السجال البليد يزيد من

حنقه إلى درجة أنّه تصوّر بأنّ ذلك الحوار هو الذي يدفع لويزا إلى التّأخّر في الوصول إلى المقهى. نهض من مكانه، وتوجّه إلى باب المقهى، ألقى نظرات على الشارع يميناً ويساراً. لا شيء. عاد إلى الجلوس في موقعه.

- هل أنتَ بانتظار أحدٍ ما؟ - سأله السّيّد روميريس.

- كلاّ. ردّ لاورانا منزعجاً - "لن تأتي - فكّر في داخله - ها قد تجاوزت الساعة الثامنة"، إلاّ أنّه بقي منتظراً في المقهى.

طلب كأس كونياك آخر من السّيّد روميريس.

وفي الثامنة وربع سأله سعادة موسكا - وكيف حال المدرسة، بروفيسور؟. كيف تسير الأمور في المدرسة؟

- حالها سيِّئ - أجابه لاورانا.

ولماذا ينبغي أن تكون حالها أفضل؟ - قال البارون.

فإذا ما كلّ كانت الأمور في طريقها إلى خراب، فإن ذلك يعني بأنّ على المدرسة أيضاً أن تؤول إلى خراب.

- تماماً - قال سعادة لوميّا.

في الساعة التاسعة إلاّ ربعاً تسلّلت صورة لويزا وهي ميتةٌ إلى دائرة القلق الذي شغل ذهن لاورانا. اجتاحتْهُ الرغبةُ في أن يروي لهؤلاء الشيوخ الأربعة ما كان يشعر به في تلك اللحظة، وقد كانوا بالتأكيد من أصحاب التجارب فيما يختصّ هموم القلب. إلاّ أن البارون آلكوزير

قال، وهو يُشير بأصبعه إلى الكتاب الذي يقرأ فيه لاورانا - لو أنّ أحداً ما قرأ رسائل فولتير هذه، فإنّه سينتبه في الحال إلى مثل معروف لدينا، يؤكّد بأنّ الناس يتجاهلون. في لحظةٍ ما أو في ظرفٍ ما. أواصر الدم العائلية، ويفعلون ذلك عبر جزءٍ واحدٍ من أجزاء الجسد. وشرح للآخرين بأنّ تلك الرسائل كتبها فولتير إلى ابنة أخته. وأورد سعادة لوميّا المثل بالكامل، فأوضح البارون بأنّ المعنى الوارد في ذلك المثل يُشير إلى الأوضاع التي تقتحم حواجز الأواصر، واستعار الكتاب من لاورانا، ليقرأ للأصدقاء الرسالة التي تؤكّد ما يذهب إليه.

غمرهم مرحٌ كبير، فأثاروا قرف لاورانا. "كيف بالإمكان الحديث مع هؤلاء الشيوخ المنحرفين والغارقين في الفظاعة والفحش، لتروي لهم عمّا يعتلج في داخلكَ من قلق وألم؟"، على أيّة حال، ربمّا كان من الأفضل التّوجّه إلى مديرية الشرطة والعثور على ضابط جدّي ومتفّهم لتروي له ... لتروي له ماذا؟ عن سيّدة كانت على موعد معه في مقهى روميريس، وتخلّفت عن الموعد؟ هذا مُضحك. أن يروي له أسباب قلقه؟ لكنّ ذلك سيعني إطلاق العنان لآليّات مُعقّدة وخطيرة. ثمّ ما الذي كان يعرف هو، ممّا جاءت لويزا للتّعرّف عليه في مركز المحافظة في اليومَيْن الماضيَيْن؟ وماذا لو أنّها عثرت على دلائل تذهب جميعها في اتّجاهٍ آخر؟ أو أنّها عجزت عن العثور حتّى على ظلال لدلائل؟ أو طُلبَ منها العودة إلى البلدة قبل الموعد، بسبب مرض مفاجِئ لطفلتها، أو لأيّ سبب عائلي آخر؟ أو أنّها، في حمّى البحث، نسيتْ موعدها معه؟.

ورغم مشروعية تساؤلاته هذه جميعاً، فقد كانت صورةٌ تُظهِر لويزا ميتةً، تتراءى له في الخلفية.

تَجَوّلَ غاضباً ما بين الباب ومنضدة المقهى.

- أيشغل بالكَ شيءٌ ما؟ - سأله البارون وقد توقّف عن القراءة.

- لا. لا شيء، إلّا أنّني هنا منذ ساعَتَيْن.

- نحن هنا منذ أعوام - قال البارون وهو يُغلق الكتاب، ويُعيده إليه.

استعاد لاورانا الكتاب، ووضعه داخل حقيبته اليدويّة. نظر إلى الساعة. كانت تُشير إلى التاسعة وعشرين دقيقة - من الأفضل أن أبدأ بالتّوجّه إلى المحطّة - قال.

- ما تزال هناك ثلاثة أرباع الساعة على موعد قطارك - قال السّيّد روميريس.

سأتمشّى قليلاً، فطقس الأُمسيّة جميل - قال لاورانا. دفع ثمن كأسَيْ الكونياك. حيّا الجميع، وخرج، وبينما كان يُغلق باب المقهى وراءه سمع البارونَ يقول - لديه موعد مع امرأة، ويتحرّق شوقاً لحلول ساعة اللقاء.

لم يكن في الشارع إلّا نفرٌ قليلٌ من المارّة. كانت الأُمسيّة جميلةً، لكنْ، ببرودة لاذعة بسبب الريح المفاجئة. هبط الشارعَ ببطء صوب محطّة القطارات بذهنٍ منشغلٍ بالأفكار حول ما يمكن قد حدث لأرملة روشو.

وحين استدار من زاوية ساحة المحطّة عبرت من جانبه سيّارة، توقّفت على بُعد أمتار منه، ثمّ رجعت إلى الوراء. فُتح باب السّيّارة الجانبي، وشاهد لاورانا سائقها منحنياً من موقع القيادة صوبه، ونادى

عليه - بروفيسور، بروفيسور لاورانا - اقترب لاورانا من السّيّارة، وتعرّف على سائق السّيّارة الذي كان واحداً من سكّان البلدة، ومع ذلك لم يتذكّر اسمه.

- هل أنتَ ذاهبٌ إلى المحطّة؟ هل تنوي العودةَ إلى البلدة بالقطار؟

- نعم - أجاب لاورانا -.

- إنْ أَرَدْتَ، استغلّ فرصة ذهابي إلى البلدة.

"إنّها فرصة جيّدة - فكّر لاورانا - سأصل إلى البلدة بوقت مبكّر، وربّما سأتمكّن من الاتّصال بمنزل لويزا، وأستعلم عن سبب غيابها". - شكراً - قال، ركب السّيّارة، وجلس إلى جوار السائق. رحلت السّيّارة على عجل.

17

- شخصٌ منغلقٌ على ذاته، وقليل الكلام، وكان لا يتسامح في كثير من الأحيان، وكان متضادّاً مع الآخرين. بتحصيل الحاصل، هو شبيهٌ بمَنْ يمكن اعتباره لطيفاً، ودوداً ومستعدّاً للعون ... لكنْ، أيضاً قادراً على أن يهبّ ضدّكَ لمجرّد الشعور بحيفٍ ما، أو لسوء تفاهم ... لا جدال حول قابليّته كبروفيسور. إنّه معلّمٌ جيّد، دقيقٌ وذو ضمير حَيّ، عميق الثقافة، وطريقته في التدريس ناجحةٌ للغاية ... وكما قلتُ لكَ، لا جدال حول هذا الجانب إطلاقاً ... لكنْ، على صعيد الحياة الشّخصيّة ... أعني، ولا أُريد أن أبدو كَمَنْ يحشر أنفه فيما لا يعنيه. لكنْ، كرجل، وفي إطار العواطف، بدا لي على الدوام، كيف لي أن أقول؟ مليئاً بالعُقَد، مَهووساً ...

- مَهووساً؟

- ربّما كان هذا التعبير حادّاً شيئاً ما، وهو بالتأكيد لا يتلاءم مع الفكرة التي تكوّنت عنه وعن حياته، رجلٌ هادئ الطبع، منظّمٌ، وباعتياديّات متكرّرة. إنّه صريح لدى إبداء الآراء والأحكام، ومتحرّر ... لكنْ، في بعض الأحيان، يراه مَنْ يعرفونه جيّداً، يتحوّل إلى شخصية شائكة وعدائية ... ويبدو أمام زميلاته وأمام بعض الطالبات وكأنّه كارهٌ للنساء؛ لكنّني أعتقد بأنّه إنسانٌ خجول ...

- كان مَهووساً فيما يتعلّق بآصرته مع النساء، والجنس إذاً - قال مفوّض الشرطة.

- شيءٌ من هذا القبيل - أكّد مدير المدرسة.

- وبالأمس. كيف كانت سلوكياته بالأمس؟

- بإمكاني القول بأنّه كان اعتيادياً. أنهى ساعاته، ومكث للحديث معي قليلاً، مع الزملاء. تحدّثنا، على ما يبدو لي، عن بورغيزي(*)...

هبط القلم الرصاص الذي كان بيد المفوّض، ليُسجّل ذلك الاسم على ورق مفكّرته الصغيرة. - لماذا؟ - سأل.

- لماذا تحاورنا عن بورغيزي؟ فقط لأنّ لاورانا كان يُردّد منذ فترة بأنه لم يجرِ الاهتمام ببورغيزي بالشكل الذي يستحقّ.

- وأنتَ، لست متّفقاً مع هذا الرأي؟ - سأل المفوّض بنبرة متشكّكة.

- إنْ أردتَ الصراحة، لا رأي لي في ذلك. ربّما وجب عليّ أن أُعيد قراءته. كتابه "روبي(**)"، خلق عندي انطباعاً جيّداً للغاية. لكنّ ذلك حدث قبل ثلاثين عاماً، عزيزي المفوّض، قبل ثلاثين عاماً.

- آه - ردّ المفوّض. وبحركة عصبيّة شطب بالقلم الرصاص نفسه اسم بورغيزي الذي كان قد خطّه على ورق المفكّرة.

---

*) الناقد والكاتب الصّقليّ جوزيبي آنتونيو بورغيزي (1882 - 1952). أسهمت كتاباته الهامّة في التعريف بكتّاب مثل غويدو غوترانو وآلبيرتو مورافيا.

**) Rubè عنوان رواية لبورغيزي، وتمثّل الشّخصيّة الأساسيّة فيها حالة الخسارة والضياع التي سادت بعد الحرب العالمية الأولى.

- لكنْ، ربّما - واصل المدير - جرى حديثنا عن بورغيزي في الأوّل من أمس. بالأمس ... أعني. بالأمس رأيتُهُ على قَدْرٍ من الغرابة، بالأمس، أعني لم يتغيّر فيه شيء.

- ما هو مؤكّد، على أيّة حال، هو لم يمكث أمس في المدينة لحضور اجتماع في المدرسة.

- في غاية التأكيد.

لكنْ، لماذا أخبر والدته بأنّه سيمكث في المدينة حتّى وقتٍ متأخّر، بسبب اجتماعٍ في المدرسة.

- ومَنْ يعلم؟ كان يرغب، بالتأكيد. في إخفاء شيءٍ ما عن والدته ... والشيء الوحيد الذي كان يمكن أن يُخفي عنها هو العلاقة مع امرأة، أو العلاقة مع ...

- موعدٌ، لقاءٌ. لقد فكّرنا بهذا الأمر ... لكنْ، حتّى هذه اللحظة، لم نتمكّن من إعادة رسم خارطة الوقت الذي قضّاه ما بعد خروجه من المطعم القريب من هنا، والذي تناول فيه غداءه. أي منذ الثانية والنصف ما بعد الظهر.

- تلميذٌ من الصّفّ الذي يُدرِّسه أبلغني - قال المدير - بأنّه شاهده بالأمس في أثناء مروره من أمام مقهى روميريس جالساً إلى إحدى طاولات المقهى.

- أبإمكاني أن أتحدّث مع هذا التلميذ؟

استدعى المدير التلميذ، والذي أكّد بأنّه ألقى نظرةٍ على داخل

مقهى روميريس في أثناء مروره في اليوم السابق. وقد رأي البروفيسور لاورانا جالساً إلى إحدى الطاولات يقرأ في كتاب، كانت الساعة تُشير إلى حوالي السابعة وثلاثة أرباع الساعة، أو ربمّا الثامنة.

أُجيز للتلميذ أن يذهب، وضع المفوّض مفكّرته الصغيرة في جيبه، أطلق حسرة طويلة، ونهض قائماً - لنذهب إذاً إلى مقهى روميريس. عليّ أن أُغلق هذا الملفّ في أسرع وقت، لأنّ والدته قد حضرت إلى مديريّة الشرطة منذ السادسة من الصباح، وهي هناك تترقّب أخباراً ...

يا للمرأة المسكينة ...! لقد كان شديد الارتباط بوالدته - قال المدير.

- مَنْ يعلم؟ - قال المفوّض، وكانت فكرة ما قد بدأت بالتبلور في ذهنه. وبالفعل عثر على التأكيد عليها في مقهى روميريس.

- باعتقادي - قال سعادة لوميّا - كان على موعد مع امرأة. كان متوتّراً، نافذ الصبر.

- كان بانتظار أن تحين الساعة، وكان منفعلاً كمراهقٍ شابّ، يستعدّ للعدو إلى موعده - قال البارون.

- أنتَ مُخطئ، عزيزي البارون. برأيي كان على موعدٍ هنا في المقهى، وغابت المرأة عن الموعد، ولم تحضر - قال السّيّد روميريس.

لا أعلم - قال سعادة موسكا - لا أعلم ... ثمّة امرأة هناك بالتأكيد، لا جدال في هذا الأمر ... عندما خرج إلى الشارع بعد حوالي ساعَتَيْن، قال أحدنا بأنه يهرع للقاء امرأة ...

- نعم، أنا مَنْ قال ذلك - قال سعادة لوميّا.

- لكنّ سلوكه، في الواقع، لم يكن بمثل مَنْ يرغب في قضاء الوقت حتّى يحين موعد اللقاء. كان يرفع رأسه عن الكتاب دائماً ليُحدِّق بباب المقهى، تجوّل ما بين الباب وكاونتر المقهى؛ وفتح الباب مرّة، وخرج إلى الشارع، ليراقب الدرب، ونظر يساراً ويميناً - قال سعادة موسكا.

- وإذاً - لاحظ المفوّض - لم يكن يعلم من أيّ طرفٍ كانت المرأة ستصل ... من اليسار أو من اليمين ... وبإمكاننا أن نستخلص أيضاً بأنّه كان يجهل المكان الذي تسكن في المرأة.

-لا نستخلص شيئاً - قال البارون - الواقع دائماً أثرى وأكثر غموضاً من استخلاصاتنا، وبالأحرى، إذا ما كان علينا أن نستخلص شيئاً ما، أقول لكم بأنّه إذا ما كان حقّاً ينتظر وصول امرأة إلى هنا، في هذا المقهى، فلا بدّ أن تكون المرأة قد جاءت من خارج المدينة ... فهل تعتقد بأنّ النساء هنا، في هذه المدينة يخرجنَ من منازلهنّ في السابعة مساءً للذهاب إلى لقاء مع شخص في المقهى؟

- هذا إذا لم تكن تلك المرأة عاهرةً! - صحّح سعادة لوميّا تساؤل رفيق جلساته.

- لم يكن شخصاً يرتاد بيوت الدعارة - قال السّيّد روميريس.

- عزيزي كومّينداتور روميريس. أنتَ لا تعرف كم عدد الناس، من ذوي الثقافة العالية والشأن الرفيع، الذين يرتادون العاهرات - قال سعادة لوميّا - ربمّا كان من الضّروريّ التأكيد بأنّ العاهرة لا تقطع وعداً بالمجيء إلى المقهى، بل تدعو زبونها إلى منزلها أو تلتقيه في فندق. أمّا هنا في المقهى، فإن الموعد لن يكون إلّا لقاء بين عاشقَيْن.

- ربمّا - قال البارون - هذا هو جوهر الموضوع. لقد كان على موعد هنا، ينتظر لساعَتَيْن، وتغيب المرأة عن الموعد، يترك المقهى، ويتوجّه إلى محطّة القطارات، يختفي. أو ربمّا. ينتظر هنا حتّى تحين ساعة اللقاء، يرحل، ومن ثمّ يختفي. إذا ما كان بانتظار المرأة هنا، وحين اكتشف بأنّه خُدع، أو أنّ المرأة لم تتمكّن من الحضور لسببٍ ما، عندها شعر إمّا بالإهانة أو بالقلق، فما الذي عليه أن يفعل؟ هناك ثلاثة احتمالات. يعود إلى منزله، ليجترّ الخيبة والقلق في سريره؛ يذهب إلى منزل المرأة مطالباً بتوضيحات، وهناك يجد مَنْ يسلخ جِلْده؛ أو أنّه يرمي نفسه من الحصن أو تحت أحد القطارات العابرة. وبما أنّه لم يعد إلى منزله، فيبقى هناك احتمالان. لكنْ، إذا ما كان جالساً هنا بانتظار مرور الوقت حتّى تحين ساعة اللقاء، فسيظلّ واحدٌ فقط من هذَيْن الاحتمالَيْن مفتوحاً. وهو أنّه التقى في موعد اللقاء بزوج أو والد أو شقيق المرأة، والذي أقدَمَ على تصفيته، والسلام.

- وعلى أيّة حال، فإنّ بالإمكان التفكير باحتمال أقلّ خياليّة من هذا كله، وقد يكون الأكثر واقعية وجلاءً. وهو أنّه ذهب إلى موعده، والتقى امرأة رغباته، ولرفقتها نسيَ والدته، والمدرسة وأيّ شيءٍ آخر ... ألا ترون ذلك ممكناً؟ - قال سعادة موسكا.

- أنا لا أعتقد. رجلٌ بهذا الهدوء وبهذه السكينة وضبط الذات - قال السّيّد روميريس.

- وهذا هو جوهر القضية، يا عزيزي - قال سعادة لوميّا.

نهض المفوّض من مكانه - هذه قضية في غاية التعقيد - كان

ما أشار إليه البارون منطقي، ولا جدال حوله، كان دقيقاً، لكنّه فتح أمام المفوّض هُوّة سحيقة. إذْ ليس هناك ما هو أعقد من التّحرّي عن النساء جميعهنّ التي يمكن أن يرتبطنَ بعلاقة طويلةٍ أو عابرة مع البروفيسور! ابتداءً من الطالبات. وجميعهنّ ما بين أعمار الخامسة عشر والثامنة عشر، وهنّ قادرات، اليوم، على الإتيان بأيّ شيء؛ ومن ثمّ زميلات البروفيسور. أضف إلى تلك النساء كلّهنّ، أمّهات بعض الطَّلَبَة، على الأقلّ مَن احتفظت من بينهنّ ببعض الجمال والإثارة. ثمّ هناك النساء اللاتي يستجبنَ إلى الغزل، والعاهرات، اللاتي يمكن أن يدّعينَ الشرف في لحظة ما، أو مَنْ لا تتجاوز قيمتها، من بينهنّ، بضع عشرات من الليرات. كان ذلك، بالنسبة إلى المفوّض، عملاً لا نهاية له. إلّا إذا عاد البروفيسور إلى الظهور اليوم أو غداً، بالضبط كقطّة صعدت إلى سطح المبنى لقضاء بضع ليالٍ هناك.

لكن البروفيسور كان يرقد في تلك اللحظة تحت كومة ثقيلة من فضلات منجم كبريت مهجور، في منتصف الطريق ما بين البلدة ومركز المحافظة.

18

في الثامن من سبتمبر، يُقام في البلدة احتفال "مريم الطفلة". ويدور في أزقّتها موكب، تُحمَل فية دمية طفلة صغيرة ملفوفة بملاءات مُطرّزة بالذهب واللآلئ، وتُقام ألعابٌ ناريّة وتدور في دروب البلدة فرقة موسيقية، تهتزّ الجدران برنّاتها كالشوكة الرّنّانة التي يستخدمها الموسيقيون معياراً للنغم، ويبدأ الحفل بذَبْح أوّل الخنازير، وبسيلٍ من البوظة الموزّعة على السكّان. استعاد الراهب الأقدم عادة استقبال الأصدقاء في منزله، بالذات تيمّناً بـ "مريم الطفلة"، التي كان يُجلُّ، بشكل خاصّ محرابها في قلب الكنيسة المركزية في البلدة. كان الراهب الأقدم معتاداً على ذلك التقليد منذ أعوام، إلّا أنّه أوقفه في العام الماضي، بسبب مقتل روشو. والآن، وبمناسبة حلول الذكرى السنوية لذلك الحدث المُفجع، عاد وفتح باب منزله للاحتفال ؛ ولأنّه كان في الأجواء أيضاً احتمال إعلان خطوبة ابن شقيقه المحامي روزيلّو مع لويزا ابنة شقيقه الآخر. وهذا الحدث، الذي قال الراهب الأقدم، أسهمت كراهية ونميمة الآخرين في قيامه، وهو ينصاع فيه إلى مشيئة الرّبّ الذي لا خيار لنا أمامه إلّا ما شاء.

- أُسلِّم أمري إليه، نعم ... - كان يشرح الوضع لدون لويجي كورڤايا - الرّبّ وحده يعلم إنْ كنتُ راغباً في هذا القران بينهما، وهما اللذان

ترعرعا في منزلي كأخٍ وأخت. لكنْ، وقد بلغت الأمور مبلغها هذا، فإنّ الأمر يتعلّق بفعل رأفةٍ خيِّرة ... الرأفة العائلية بالطبع ... أكان في الإمكان أن تُتركَ حفيدتي، الشّابّة برفقة طفلتها الصغيرة تقضي عمرها وحيدةً طيلة حياتها؟ ومن جانب آخر، وبسبب الأوضاع التي نعيشها، لم يكن سهلاً أن نعثر لها على زوجٍ غيرُ طامعٍ في ثروتها، ولا يقوم بتبذير تلك الثروة دونما رحمة أو شفقة، وأن يكون زوجاً يُعنى بطفلتها، ويعتبرها كابنته بالضبط؟ كان الوضع صعباً ... ولذا فقد قرّر حفيدي، الذي لم يكن يُفكّر بالزواج، مواجهة هذه التضحية بهدف المحبّة والرفق! وأن يُقدِمَ على هذه الخطوة الرؤوف ...

- اللعنة - دمدم الكولونيل سالفاجو كما لو أنّه يخور كثور بعد أن سمع الجملة الأخيرة من الراهب الأقدم الذي كان يقف وراء ظهره.

وما بين استياءٍ وحذر، استدار الراهب الأقدم. وانفتح على الكولونيل مؤنِّباً إيّاه بابتسامة عذبة - آهِ، كولونيل، يا كولونيل. لن تتغيّر أبداً ...

- فلتغفر لي، يا أبانا - قال الكولونيل - لكنّي كنتُ أعني، بأنّكَ، بسبب الزّيّ الذي ترتديه، ترى هذا القران بين أبناء العمّ، كفعلٍ من الأفعال الخيِّرة ؛ أمّا أنا الخاطئ العجوز، فأراه بشكلٍ مُغاير. أي بمعنى أنّ السّيّدة لويزا امرأةٌ رائعة الجمال؛ والمحامي، حفيدكَ، ليتمجّد اسم الرّبّ، رجلٌ. والآن، أتساءلُ عمّا يمكن أن يفعله رجلٌ عندما يجد نفسه أمام هذا الجمال وأمام الوسامة ...

ابتعد الراهب الأقدم من الكولونيل بعد أن توعّده بحركة من يده ممازحاً، فواصل الكولونيل حديثه مع دون لويجي كورڤايا بحرّيّة مطلقة ... - إنّه يتحدّث عن الرأفة وعن فعل الخير، هذا الراهب الغريب! امرأةٌ، أشعر بأنّني على استعدادٍ للإتيان بكلّ ما هو جنوني، فقط للوقوف إلى جوارها ... - وأشار إليها بإيماءة بينما كانت تقف منتصبة القوام أنيقةً بثوبها الأسود إلى جوار ابن عمّها وخطيبها. لاحظت لويزا حركة الكولونيل، وردّت عليه بابتسامة وبإيماءة وئيدة من رأسها. وأسْرَتْ تلك الحركة داخل الكولونيل رعشةً مفاجئةً، وانحنى ليهمس في أُذُن دون لويجي بتنهيدة شبِقة - أوَتَرى ابتسامتها؟ عندما تبتسم تبدو وكأنّها تتعرّى من ثيابها. إنّها تُثير عندي ... - ورفع فجأة ذراعه كما لو أنّه يقبض على سيفه، وهتف - هجوم، اللعنة، هجوم! - وعندما رآه يهب متقدّماً، اعتقد دون لويجي بأنّه سيذهب ليرتمي بجسده الهرم على السّيّدة. لكنّ الكولونيل توجّه صوب البوفيه، وحيث ابتدأ النُّدُل بتوزيع أقماع البوظة.

توجّه دون لويجي أيضاً صوب البوفيه. كان هناك راهب كنيسة سانت آنّا، كاتب العدل زيريلو برفقة زوجته السّيّدة زيريلّو. كان الجميع، بالطبع، يثرثرون بالنميمة حول الضيوف بكلمات مبهمة وبالهمسات. لكنّ دون لويجي لم يكن يشعر بالرغبة في النميمة في تلك اللحظة، فابتعد عنهم.

ازدرد كاتب العدل بوظته بسرعة، وتبعه. أطلّا من الشرفة. كان الاحتفال تحت الشرفة حامي الوطيس. صبّ دون لويجي جام غضبه

واستيائه على الاحتفال؛ وانتقل من الاحتفال إلى "صندوق إعمار الجنوب"(*)، وعن مصانع الـ فيات والحكومة والفاتيكان وصولًا إلى الأمم المتّحدة.

- يا لنا من قوّادين سَفَلَة! - قال دون لويجي.

- أهناك ما يُثير انزعاجكَ أو يُقلقكَ؟ سأله كاتب العدل.

- كلّ شيء هنا يُثير انزعاجي - ردّ دون لويجي.

- علينا، نحن، الاثنان، أن نتحدّث فيما بيننا - قال كاتب العدل.

- وبماذا سينفع كلامنا؟ - ردّ دون لويجي مُبدياً الإنهاك - فما أعرفه أنا، تعرفه أنتَ أيضاً، ويعرفه الجميع. فلماذا الكلام فيه إذاً؟

- أنا شديد الفضول. ثمّ إنّني أشعر بالحاجة إلى التنفيس عمّا في داخلي. وإذا لم أُنفّس عن ذلك معكَ، ونحن نعرف بعضنا منذ ستّين عاماً، فمع مَنْ بإمكاني التنفيس؟ أنا لا أتكلّم في هذه الأمور حتّى مع زوجتي.

- لنخرج من هنا - قال دون لويجي.

- لنذهب إلى مكتبي - اقترح كاتب العدل.

كان مكتب كاتب العدل يقع على بُعد خطوات قليلة. في الطابق الأرضي. دخلا، أضاء كاتب العدل النور، وأغلق الباب؛ جلسا

---

*) مؤسّسة برأسمال حكومي، أُسّست في عام 1950 بهدف التنمية الاقتصاديّة للولايات الجنوبية، وصارت مشاريعها، في الكثير من الأحيان، هدفاً للفساد المالي والسّياسيّ.

متقابلَيْن، ودون أن يتكلّم أيٌّ منهما، حدَّقا ببعضهما. ثمّ قال دون لويجي - لقد جئتَ بي إلى هنا للحديث. تكلّم إذاً.

- تردّد كاتب العدل قليلاً. ثمّ، وبعُجالة مَنْ يَسْلخُ جزءاً من جِلْده، وقال بإصرار وألم - لم يكن للصّيدليّ المسكين أيّ دخل فيما حدث.

- يا له من اكتشاف! - قال دون لويجي متهكّماً - أنا أدركتُ كيف سارت الأمور قبل انقضاء أيّام الحداد الثلاثة الأولى.

- هل أدركَت ذلك؟ أم أنّكَ عرفتَ بشيءٍ ما؟

- عرفتُ بشيء جعلني أفهم ما كان خفياً وراء ظاهر الأشياء.

- وما الذي عرفتَ؟

- بأنّ روشو كشف الخيانة ما بين زوجته وابن عمّها. كان قد فاجأهما وهما يقترفان الخطيئة.

- صحيح. وهو ما عرفتُ به أنا أيضاً ربمّا بعد ما عرفتَ به أنتَ، لكنّي عرفتُ به.

- أنا عرفتُ بالأمر، لأنّ الخادمة في منزل روشو، هي أُمّ الخادمة التي تعمل في منزل خالتي كلوتيلد.

- آه، نعم ... لكنّي أتساءل، ما الذي فعله روشو، عندما وجد زوجته غارقةً، لنقل، في خضمّ حوار حميم مع الآخر؟

- لم يفعل شيئاً. استدار، وتركهما.

- يإلهي! وكيف كان بمقدوره إبقاؤهما على قيد الحياة؟ أنا كنتُ سأُقيم مجزرةً.

- هذه كلّها مجرّد حكايات ... بإمكاننا العثور هنا، في أرض الغَيْرة والشرف هذه، على أفضل القوّادين، ثمّ لا تنسَ بأن المسكين روشو كان يعشق زوجته إلى حدّ الجنون.

- وأنا بإمكاني أن أروي لكَ تكملةً للحكاية، لأنّني أعرفها من المصدر. لقد رواها لي خادم الكنيسة الأُمّ. لكنّي آمل في كتمانكَ ...

- أنتَ تعرفني جيّداً. لن أفوه بكلمة حتّى لو أدخلوني زنزانة التعذيب.

- وإذاً ... لما يربو على شهرٍ كامل لم يَفُهْ روشو بشيء؛ ثمّ توجّه، في يومٍ من الأيّام، إلى الكنيسة للقاء الراهب الأقدم، وأخبره بالخيانة الزّوجيّة التي كان اكتشفها قبل حين، أنْذَرَ الراهب الأقدم. إمّا أن يجعل ابن اخيه يغادر البلدة دون عودة، أو أنّه سيُسلّم إلى صديقه البرلماني الشّيوعيّ وثائقَ ستودي بعشيق زوجته إلى السجن.

وكيف كان قد حصل على هذه الوثائق؟

- كما يبدو، كان قد ذهب قبل فترة إلى مكتب روزيلّو في يومٍ لم يكن فيه المحامي متواجداً في المكتب ... المحامي الشّابّ المتدرّب في المكتب أدخله وتركه وحيداً. كان يعرف بأنّ المحامي خارج البلدة لمهمّةٍ ما، وبأنّه لن يعود قريباً، لكنّ روشو أبلغه بأنّ المحامي حدّد له موعداً. كان الوقت قد جاوز منتصف النهار، وكان على الشّابّ

أن يذهب لتناول غدائه، ولم يكن يعرف بأن هناك ثمّة ما تغيّر في العلاقة ما بين الطبيب والمحامي، فقد كان يعرف بآصرتهما القويّة ... تركه وحده في المكتب، فقام الطبيب بتصوير كلّ شيء ممّا يعلم الله وحده بوجوده في ذلك المكتب. ... أقول بأنّه التقط صوراً لما كان موجوداً، لأنّ روزيلّو لم ينتبه إلى شيء، حتّى اللحظة التي توجّه فيها روشو بإنذاره إلى الراهب الأقدم. وعندما أخبر العمّ ابن شقيقه عن الوثائق التي بحوزة الطبيب، اندفع روزيلّو إلى مكتبه لاستجواب المتدرّب الشّابّ. وتذكّر الشّابّ تلك الزيارة، وقال بأنّه ترك الطبيب وحده في المكتب. اهتاجت أعصاب روزيلّو، فانهال على المتدرّب بالصفعات، وطرده من العمل؛ ثمّ تراجع عن غضبه، وذهب لزيارته شارحاً له اشتعال أعصابه، لأن الطبيب روشو أنّبَهُ لجعله ينتظر في المكتب دون طائل، وبأن موعدهما كان هامّاً للغاية؛ أهدى المتدرّب عشرة آلاف ليرة، وأعاده إلى العمل.

- وهل روى لكَ خادم الكنيسة هذه الأحداث كلّها؟

- كلّا، رواها لي والده الذي عرف بالأمور من ابنه.

- لكنْ، هل يُعقَل، بأنّ روزيلّو كان يحتفظ بوثائق بهذه الأهمّيّة في متناول اليد؟

- هذا ما لا أعلمه. ربمّا حصل روشو على نسخة ثانية من مفتاح دُرجٍ أو خزانة؛ ثمّ أن روزيلّو يتصرّف منذ أعوام كما لو أنّه الآمر الناهي الذي لا يُسأل، وربمّا شعر، بمقدار الحظّ الذي حالفه، بأنّه صار

معصوماً، وفي مَنأى عن المساءلة ... لكنْ، عندما أبلغه عمّه بإنذار روشو شعر، إذّاك، بأنّ الأرض انخسفت تحت قَدَمَيْه.

- بالضبط - وافق دون لويجي - إلّا أنّ خالتي كلوتيلد تعتقد بأن روشو صُفِّيَ لأنّه لم يعد بمقدور العاشِقَيْن إخفاء علاقتهما، وكانا عاجزَيْن عن مواصلة التلفيق ... أي أنّ الأمور سارت مدفوعة من العشق، بتحصيل الحاصل.

- حماقةٌ هي هذه الكلمة، العشق - قال كاتب العدل. لقد كان هذان الاثنان تعوّدا على الوضع، وكانت الخيانة بينهما مستمرّة مُذْ كانا تلميذَيْن في المدرسة الدّاخليّة، ومثلما فعلا ذلك خلال العطلة السّنويّة من خلف ظهر عمّهما الراهب الأقدم وفي منزله، فقد كرّرا الأمر خلف ظهر الزوج؛ وربمّا كانا يستمتعان بسبب ذلك الفعل الخفي، واستعذبا المغامرة ...

انقطع الحوار بينهما عندما سمعا طَرْقاً خفيفاً على الباب. - مَنْ يكون؟ - تساءل كاتب العدل بقلق.

- افتح الباب، وستعلم - قال دون لويجي.

توجّه كاتب العدل إلى الباب، وفتحه. كان الطارق هو الكومّينداتور زيريلّو - ما الذي جرى - قال - لقد تركتُما الاحتفال وجئتُما للانزواء هنا في الظّلمة؟

- بالفعل - قال كاتب العدل ببرود.

- وبماذا كنتُما تتحدّثان؟

- عن الطقس - أجاب دون لويجي.

- لنترك الطقس وشأنه، فهو يواصل كونه لطيفاً، وليست هناك أيّة ضرورة للكلام فيه ... أريد أن أكون واضحاً وصريحاً معكما. فإذا لم أتكلّم عمّا في داخلي مع أحدٍ ما، فسأنفجر؛ وأنتُما كنتُما تتحاوران بالذات عمّا يعتلج هنا - جال بكفّه على فمه، وهبط بيده صوب المعدة ضاغطاً على أسنانه، كما لو أنّه في مخاضٍ عسير.

- إذا كان أمراً خارجاً عن التّحمّل، فهيّا، إذاً، فَضْفِضْ عمّا يعتلج في داخلكَ؛ ونحن ها هنا آذانٌ صاغية لكَ - قال دون لويجي.

- وأنتُما ستكتمان السّرّ؟

- وما الذي يمكن أن نُفصِحَ عنه؟ سأله كاتب العدل بروحيّة ساذجة.

- لنكشف الأوراق. كنتُما تتحاوران في الخطوبة التي أُعلن عنها اليوم، عن روشو وعن الصّيدليّ ...

- على الإطلاق، لم يخطر ببالنا أيّ شيءٍ من هذا القبيل - قال كاتب العدل.

- ... وعن المسكين البروفيسور لاورانا - واصل الكومّينداتور - الذي اختفت آثاره بالضبط كما حدث لآنتونيو پاتو في "المأتم"(*).

كان آنتونيو پاتو يؤدّي قبل خمسين سنةً من ذلك اليوم دور يهوذا

*) يُطلق اسم "المأتم" على الدراما التّمثيليّة التي تُقدّم كل عام في الأسبوع المقدّس في صقليّة، وتعرض مأساة يسوع المسيح وعذاباته.

الأسخريوطي خلال تمثيل آلام السّيّد المسيح في مسرحية للفارس دوريوليس(*)، وحسبما كانت الرواية تقتضي، فقد هبط پاتو في القبو المحفور في الأرض، وحين أُزيح غطاء القبو في نهاية العرض، لم يظهر پاتو إلى السطح، وكان غطاء القبو قد رُفع لما يربو على مائة مرّة ما بين تدريبات وعروض مُكرّرة؛ اختفت آثاره، ولم يعلم أحد بما حلّ به، وذهبت حكايته مثلاً للدلالة على حوادث الاختفاء الغريبة. أثارت الإشارة إلى پاتو شيئاً من المرح لدى دون لويجي وكاتب العدل، إلّا أنّهما استعادا جدّيّتهما في الحال، وقد تظاهرا بالجهل حيال الموضوع، وحاولا تجنّب نظرات الكومّينداتور، ومن ثمّ تساءلا - وما دخل لاورانا في هذا الموضوع؟.

- يا لكما من مسكينَيْن بريئَيْن! - دلَّعَهُما الكوميندانور بسخرية - مسكينان بريئان يجهلان كلّ شيء ... هاكما أصبعي، وعضّاه - وقرّب خنصره من فم كاتب العدل، ومن ثمّ من فم دون لويجي، بالطريقة ذاتها التي كانت تفعلها الأمّهات مع الأطفال الرُّضَّع الذين بدأت تنبتُ لهم أولى الأسنان. كانت الأُمّهات يفعلنَ ذلك في الزمن الذي لم يكنَّ فيه بعدُ مَهووسات بتعقيم أشياء الأطفال.

انفجر الثلاثة بالضحك. ومن ثمّ قال زيريلّو - لقد علمتُ بشيء ... شيء ينبغي أن يظلّ سرّاً بيننا نحن الثلاثة، أنتُما وأنا. أوصيكم بذلك ... وذلك الشيء يخصّ المسكين لاورانا ...

- لقد كان بليداً - قال دون لويجي.

---

*) فيليپّو أوريوليس، كاتب صقليّ ألّف تراجيديات ذات طابع ديني. عاش في القرن الثامن عشر.

مَنْ هو ليوناردو شاشّا؟

مكتبة
t.me/t_pdf

وُلد ليوناردو شاشّا (Leonardo Sciascia) في بلدة راكالمُوتو بمحافظة آغريجينتو الصقلّيّة في الثامن من كانون الثاني/ يناير 1921، وعاش حتّى وفاته في العشرين من تشرين الثاني/ نوفمبر عام 1989 في عاصمة الجزيرة باليرمو.

واشتُهر مسقط رأسه كموقع غني بمناجم الكبريت. كان والده محاسباً في أحد هذه المناجم، وليوناردو هو الأكبر بين ثلاثة أبناء؛ وقضّى جُلّ وقته في كنف عمّاته اللاتي أشرفنَ على تربيته، وزرعنَ فيه بذور الثقافة العلمانية.

في ثلاثينيات القرن الماضي، بدأ شاشّا الشابّ يَضيقُ ذرعاً بالنظام الفاشي، وقرأ عدداً من الكُتُب التي ستظلّ منارة هامّة بالنسبة إليه، من بينها أعمال لآليسّاندرو مانزوني(*)، فيكتور هوغو، جاكومو كازانوفا(**)،

(*) Alessandro Manzoni ألساندرو فرانشيسكو مانزوني - أبو اليقظة الإيطالية، وأحد أكبر روائيّي إيطاليا عبر العصور، وتظلّ روايته الشهيرة "المخطوبان" علامة فارقة في الأدب الإيطالي. وُلد في ميلانو في السابع من مارس/ آذار 1785 وتوفيّ فيها في الثاني والعشرين من مايو/ أيّار 1873.

(**) Giacomo Girolamo Casanova جاكومو جيرولامو كازانوفا - مُغامرٌ، كاتبٌ شاعرٌ، دبلوماسي، فيلسوف وعميل سرّيّ إيطالي، من مواطني جمهورية فينيسيا (البندقية)، التي وُلد فيها في 2 أبريل/ نيسان 1725 وتوفيّ في دوتشكوف بجمهورية التشيك في 4 يونيو/ حزيران 1798. طغت شهرته كعاشق للنساء على إنجازه الإبداعي والفلسفي، واقتبس المسرح والسينما من ذلك الجانب في شخصيته العديد من الأدوار التي ستبقى حيّة، ومن بين تلك الأعمال شريط المعلّم الإيطالي الكبير فيديريكو فيلّيني "كازانوفا فيديريكو فيلّيني"، والذي أناط فيه شخصية كازانوفا إلى النجم الكندي الكبير دونالد ساذرلاند.

ودينيس ديدرو. وارتاد بشكلٍ مكثّف صالة السينما في مدينة كالتانيسيتّا(*). درس المرحلة الثانويّة في المدينة ذاتها، وتأسّست حينها صِلاتُه مع الأوساط المناهضة للفاشية، واتّسع طيف قراءاته صوب الكتّاب الأمريكان، كدوس پاسوس، إرنست همنغواي، ووليم فوكنر، وانتقل إلى الشِّعْر ابتداءً من الشاعر الكبير جوزيپّه أونغاريتّي(**)، وصولاً إلى الشعراء الفرنسيّيْن الرمزيّيْن، وإلى فلاسفة كبار مثل سپينوزا.

في عام 1936، اندلعت الحرب الإسبانية، وشكّلت تجربة مُضافةً في تكوين الشابّ ليوناردو، خصّص لها إحدى أجمل قصصه، والتي حملت عنوان "ساعات إسبانيا"، وتتناول حالة العاطلين عن العمل من الصقلّيّيْن الذين أرسلهم الديكتاتور بينيتو موسوليني ليموتوا في الحرب إلى جوار صنوه الديكتاتور فرانسيسكو فرانكو.

في عام 1941 اشتغل ليوناردو شاشّا في كونسورسيوم زراعي كمختصّ في تِقْنيّات تخزين القمح، ومنحه هذا العمل الفرصة ليتعرّف عن كثب على مقدار البؤس الذي يقاسيه عمّال المناجم والفلاحون والعاملون في أحواض الملح، وستظهر ملامح تلك الصلة جليّةً في كتابه "أبرشيات ريغالپيترا"، الذي أصدره بعد بضع سنين.

في عام 1944، وبعد أن هجر الدراسة في كُلّية التربية بمدينة ميسّينا، تزوّج من زميلته، المعلّمة ماريّا آندرونيكو، وأنجب منها ابنَتَيْه لاورا وآنّا ماريّا. وابتدأ بعد ذلك بنشر أولى قصائده ويومياته ومقالاته السياسيّة - الأدبية في عدد من الصحف الصادرة في المحافظة.

---

*) Caltanisetta "قلعة النساء" بتسميتها العربية القديمة.

**) Giuseppe Ungaretti جوزيپّه أونغاريتّي - شاعر، كاتب ومترجم إيطالي كبير. وُلد في حيّ محرّم بيك بالإسكندرية في مصر في 8 فبراير/ شباط 1888، إلّا أن ميلاده سُجّل رسمياً في العاشر من الشهر ذاته. كان والداه من أصول إيطالية من مدينة لوكّا التّوسكانيّة. توفيّ في ميلانو في الثاني من يونيو/ حزيران 1970.

وشهد عام 1948 انتحار شقيقه الأصغر جوزيپّه وهو ما يزال في الخامسة والعشرين من عمره، وكان يعمل مديراً لأحد مناجم مدينة آسّورو، فتسبّب هذا الحادث لليوناردو بألم متواصل طيلة حياته، وسيرفض الحديث عنه وعن ملابسات الانتحار، إذْ لم يتمكّن أبداً من إيجاد تفسير مُقنِع لذلك الفعل.

بدأ في عام 1949 بالعمل معلّماً في المدرسة الابتدائية في مسقط رأسه، وواصل ذلك حتّى عام 1957 دون أن يُشغف أبداً بمهنة التعليم، لكن غياب الشغف تجاه التعليم لم يُفقِده البوصلة لمراقبة حالة مجتمع التلاميذ المنزعجين من سياسة محو الأُمية الإجبارية والقَصيّة عن احتياجاتهم الأساسيّة. وشارك ليوناردو شاشّا في العام ذاته في محافظة ميسّينا بتأسيس مجلّة حملت عنوان "غالّيريّا"(*) والتي سيرأس تحريرها منذ عام 1950 حتّى وفاته ضامناً لها إسهامات عدد كبير من الأقلام الهامّة في عالم النقد والإبداع الشِّعْريّ والروائيّ، إذ ابتدأت المجلّة نشرتها الأولى بافتتاحية، سطّرها پيير پاولو پازوليني(**).

بدأ الكتابة في عام 1956 عندما نشر عمله الأوّل، وكان بعنوان "أبرشيات ريغالپيترا"، وهي قصص من الحياة اليومية في جزيرة صقليّة.

في عام 1958 أصدرت له دار نشر "لاتيرتسا" كتابه الذي حمل عنوان

---

*) Galleria - غالّيريّا - مجلّة أدبية كانت تصدر كلّ شهرين في صقليّة، وصفها الكاتب إيليو فيتّوريني بأنّها "أفضل مجلّة أدبية صدرت في صقليّة على الإطلاق". من بين كتّابها، بالإضافة إلى شاشّا وفيتّوريني وبيير باولو بازوليني، كلّ من آلبيرتو مورافيا، ماريو پاز، إيميليو تشيكيّ، والناقد التّشكيليّ الكبير جوليو كارلو آرغان، والمعماري فيديريكو زيري.

**) PierPaolo Pasolini پيير پاولو پازوليني - الكاتب والشاعر والمخرج السينمائيّ والمسرحي الذي أحدث ثورة حقيقيّة في عالم الشِّعْر والسينما والرواية الإيطالية. قُتل في ظروف غامضة، وعُدّ موته اغتيالاً سياسيّاً، ووُجّهتْ أصابع الاتّهام إلى أوساط سياسيّة وعصابات يمينيّة مُتغلغلة في مؤسّسات أمنية إيطالية، كونها دبّرت حادث قتله على ساحل بلدة أوستيا، إحدى ضواحي روما البحرية في 2 نوفمبر 1974. وأشارت تحقيقات صحفية كثيرة بأن الجريمة نُفّذت لِوأد صوت پازوليني للإقلال من تأثير مواقفه وآرائه الجريئة على أجيال الشباب والمثقّفين.

"أعمام صقليّة"، وحين أعادت دار "إيناودي" نشر الكتاب بعد عامَيْن أضافَ إليه قصّة رابعة. يعرض شاشّا في هذا الكتاب واقع صقليّة منذ ثورة 1848 وحتّى خمسينيات القرن الماضي، وهي قصص تتراوح ما بين الغروتّيسك والمأساة والآمال المُخيّبة على الدوام.

في عام 1961 أصدر كتاباً نقدياً بعنوان "پيراندیلّو وصقليّة"، وصدرت له في السنة ذاتها قصّة "نهار البومة"، وحظي الكتاب بترحاب كبير من النقّاد والقرّاء معاً.

ذات الترحاب والقبول ناله كتابه اللاحق "كتاب مصر"، والذي صدر في عام 1963. وهو عبارة عن رواية تاريخية، تدور أحداثها في پاليرمو في القرن السابع عشر.

ومن بين مؤلّفات ليوناردو شاشّا، تجدر الإشارة إلى كتاب البحث التّاريخيّ الذي حمل عنوان "موت محقّق التفتيش"، وصدر في عام 1964 عن دار نشر لاتيرتسا، ومسرحية "البرلماني" التي صدرت عن دار نشر "إيناودي" في عام 1965، إضافة إلى المقدّمة الذي وضعها للكتاب المصوَّر "الاحتفالات الدّينيّة في صقليّة"، وصدر عن دار نشر "دانّا" في عام 1965.

وصدرت له في عام 1966رواية "لِكُلٍّ ما لَهُ"، وهو كتاب ثري آخر عن المافيا. وتبع ذلك في عام 1969 بعمل مسرحي عن فكرة التكفير المسيحيّة بعنوان "تمثيل التناقضات الليپاريتانيّة مهداة إلى أيْ دِي".

وأصدر في عام 1971 كتاباً بعنوان "فصول حول موت رايموند راسّيل"، وصدرت له في السنة ذاتها رواية "Il Contesto" وفي عام 1973 أصدر مجموعة قصصيّة بعنوان "للبحر لون النبيذ" وفي عام 1974 رواية "تودو مودو".

في عام 1975، وعلى الرغم من سجالاته مع النقّاد المقرّبين

إلى الحزب الشيوعيّ الإيطالي، وافق شاشّا على الترشّح للانتخابات البرلمانية كمستقلٍّ ضمن قائمة هذا الحزب، وبعد انتخابه بفترة، استقال من البرلمان لرفضه القاطع لفكرة "التسوية التاريخيّة(*)" التي قاربت ما بين الحزب الشيوعيّ الإيطالي بزعامة إنريكو بيرلنغوير(**) والحزب الديموقراطيّ المسيحي بزعامة آلدو مورو(***)، وهو التقارب الذي أفضى إلى ميلاد حكومة جوليو آندريوتيّ(****) المدعومة من الحزب

---

*) Compromesso Storico "التسوية التاريخيّة" - هو الاتّفاق الذي توصّل إليه زعيما الحزب الديموقراطيّ المسيحي آلدو مورو وزعيم الحزب الشيوعيّ الإيطالي إنريكو بيرلنغوير، وضع نهاية للتضادّ حامي الوطيس بين قُطبي المجتمع الإيطالي الرئيسيْن، وفتح مرحلة جديدة في السياسة الإيطالية الأوروبية، أفضت إلى فتح آفاق التعاون في بناء الديموقراطيّات الغربية بعيداً عن المنظور الآيديولوجي الضيّق. وبرغم أفقها الإيجابي، فقد فتحت هذه "التسوية" الباب أمام تضادّات أخرى داخلياً وخارجياً، إذْ لم يَنَلْ ذلك الاتّفاق مباركات من قبل الولايات المتّحدة وأوساط من الفاتيكان ومن اليسار المتطرّف، وأُطلق العنان لمرحلة توتّر عميقة، بلغت قمّتها باختطاف آلدو مورو من قبل "الألوية الحمراء" في مارس/ آذار 1978واغتياله بعد 55 يوماً من الخطف.

**) Enrico Berlinguer إنريكو بيرلنغوير - زعيم الحزب الشيوعيّ الإيطالي الأسبق، تولّى زعامة الحزب بعد وفاة قائده التاريخيّ باليميرو تولياتيّ، وقاده صوب استقلالية إيجابيّة من التبعيّة إلى الحزب الشيوعيّ في الاتّحاد السوفياتيّ، وشكّل، مع زعيمَي الحزبَيْن الشيوعيَّيْن الفرنسي والإسباني، جورج مارشيه وسانتياغو كاريّو، رأس الحربة فيما عُرف بالشيوعيّة الأوروبية، وأنجز "التسوية التاريخيّة" مع زعيم الحزب الديموقراطيّ المسيحي آلدو مور. تُوفيّ في عام 1984 بعد إصابته بالجلطة الدماغيّة خلال تظاهرة حاشدة في مدينة پادوڤا القريبة من فينيسيا، وشهدت روما، لتوديعه، جنازة لم يسبقْ لها مثيل في تاريخها.

***) Aldo Moro آلدو مورو - رئيس الحزب الديموقراطيّ المسيحي الإيطالي ورئيس الحكومة لعدّة مرّات، اختطفتْهُ منظّمة "الألوية الحمراء" في شهر مارس/آذار 1978، واغتالتْهُ بعد 55 يوماً من الخطف، وعُثر على جُثّته في سيّارة رينو حمراء، أوقفها الخاطفون في شارع في روما، ينتصف المقرّيْن الرئيسيْن للحزبيْن الشيوعيّ والديموقراطيّ المسيحي.

****) Giulio Andereotti جوليو آندريوتيّ - أحد أهمّ قادة الحزب الديموقراطيّ المسيحي ما بعد الحرب العالمية الثانية، وقد ترأس الحكومة الإيطالية سبع مرّات، واستوزر لمرّات عديدة، وشغل حقيبة الخارجية لعدّة مرّات. وفيما كان مُرشّحاً قوياً لرئاسة الجمهورية، اتُّهمَ بأواصر مع مافيا "كوزا نوسترا" الصقليّة وعرّابها الأكبر توتو رينا. وعلى رغم عدم ثبوت الاتّهامات ضدّ آندريوتيّ في هذا الصدد، إلّا أن ذلك الملفّ شكّل بداية النهاية لحياته السياسيّة التي بدأت منذ عام 1948، ونهاية تأثيره على المشهد السياسيّ الإيطالي بشكل عامّ. عُرف بسياساته الهادئة، وسعيه المتواصل بجعل المتوسّط بُحيرة ونام، وكان على علاقات جيّدة مع الزعامات

الشيوعيّ دون أن يكون ضمنها، وأسقطَ تشكيل تلك الحكومة الحظر الغربي على إسهام الشيوعيّيْن في الحكومات الإيطالية، وهو الحظر الذي كانت قد سنّتْهُ مآلات الحرب الباردة، وسياسة التّضادّ ما بين القطبَيْن، الغربي والسوفياتيّ.

وفي العام ذاته صدر له كتاب بعنوان "اختفاء مايورانا"(*)، وهو كتاب تحقيقي حول الظروف الغامضة لاختفاء العالِم الفيزيائي الإيطالي إيتّوري مايورانا، وسيكون ذلك الكتاب بالنسبة إلى شاشّا فرصة للتأمّل حول المسؤوليّة التاريخيّة للعلم والعلماء إزاء ما يحدث في الكون، وسيتحوّل الكتاب إلى مادّة لسجال حامي الوطيس مع العالم إدواردو آمالدي(**).

وأعاد في عام 1976 إصدار مسرحية "تمثيل التناقضات الليپاريتانيّة مهداة إلى أيْ دِي"، وقد استخدم في هذا النصّ زمن الماضي للحديث عن الحاضر عبر استعارة لفكرة صراع كان قائماً داخل السلطة السياسيّة في صقليّة في القرن السابع عشر.

وفي العام ذاته أصدر مسرحية "المافيويّون". كما صدرت له في عام 1979 رواية "أسود على أسود". ومسرحيّة "الطاعنون بالخناجر"،

العربية منذ خمسينيات القرن الماضي.

(*) Ettore Majorana إيتّوري مايورانا - عالم فيزيائي إيطالي وُلد في 5 أغسطس/آب 1906، واختفى من إيطاليا في ظروف غامضة في 27 مارس/ آذار1938وهو التاريخ الافتراضي لوفاته، فيما تُشير بعض المصادر إلى وفاته في مكان مجهول ما بعد عام 1956وقد عمل كنظري ضمن الفريق الفيزيائي الإيطالي الشهير "شباب شارع پانيسپيرنا" بروما، والذي ضمّ من بين أفراده الفيزيائي الإيطالي الشهير إنريكو فيرمي. وبقيت ظروف اختفاء مايورانا غامضة حتّى اليوم، وحيكتْ حولها الكثير من التكهّنات والتأويلات.

(**) Edoardo Amaldi إدواردو آمالدي - عالم فيزيائي إيطالي وُلد في روما في 5 سبتمبر/ أيلول 1908تخرّج في جامعة روما في عام 1931 برفقة زميله إنريكو فيرمي، وشكّلا معاً، برفقة عدد آخر من زملائهما، جماعة "شباب شارع پانيسپيرنا". وانتقل إلى لايبزيغ بألمانيا لإكمال دراسته العلمية. أسهم بشكل فعّال بتأسيس المعهد القومي الإيطالي للفيزياء النووية، وتأسيس المجلس الأوروبي للبحوث النووية. وترأس في عام 1966 المدرسة العالمية لنزع السلاح وبحوث الصراعات. توفيّ في روما في 5 ديسمبر/ كانون الأوّل 1989.

وكان ذلك تحقيقاً آخر في الأرشيف التاريخيّ لمؤامرة وقعت في پاليرمو في عام 1862، تناولها شاشّا بقراءة مُعاصرة آخذاً في الاعتبار الفترة التي ساد فيه ما سُمّيَ بـ "استراتيجية التوتّر" في إيطاليا في ستّينيات وسبعينيات القرن الماضي.

وابتداءً من عام 1977 بدأ شاشّا بقضاء شهور من السنة في باريس، وهي المدينة التي تنتهي فيها الرحلة المفترَضة لبطل روايته "كانديد، أو بالأحرى حلمٌ في صقليّة"، والتي يعدّها بمثابة "عملية تحرّرٍ" من أساطير مُعيقة مثل المسيحية والشيوعيّة، وحتّى التنويريّة. إنها رواية وُلدت من إعادة كتابة لعمل كبير لفولتير، وتنتهي بِعَدِّها شهادة فعّالة عن حالة التوتّر السائدة في إيطاليا آنذاك.

وفي عام 1978، ومن رَحِمِ "سنوات الرصاص" وُلد كتاب "قضية مورو"، وهو كتاب تحقيقي، حلّل فيه شاشّا الرسائل التي كان آلدو مورو، المختَطف من قبل إرهابيّي منظّمة الألوية الحمراء، يبعثها إلى عائلته وأصدقائه، والتي استُخلِصَ منها الموقف الحاسم الذي اتّخذتْهُ الحكومة برئاسة جوليو آندريوتّي إزاء هذه المأساة، بدعم هامّ من قبَل الحزب الشيوعيّ الإيطالي، أي رفض التفاوض مع "الألوية الحمراء" بشأن مقايضة تحرير الرهينة بإطلاق سراح عدد من زعامات اليسار المتطرّف المعتقلين في إيطاليا.

في عام 1979 أصدر ليوناردو شاشّا ثلاثة كُتُب أخرى، بَدَتْ متباينة فيما بينها، لكنّها كانت، في حقيقة الأمر، متشابهة في النَّفَس الانتقادي الذي احتوتْهُ، "أسود على أسود"، وكان بمثابة يوميات عامّة، وتفاصيل حملت، في الغالب، نبرة ساخرة لاذعة؛ وصدر له أيضاً كتاب "صقليّة كميثافور"، وهو حوار طويل، أجرتْهُ وإيّاه الصحفيّة الفرنسيّة مارسيل

بادوڤاني(*)؛ وحمل الكتاب الثالث عنوان "في صفّ الملحدين" وهو تحقيق تاريخي مختزل للملاحقة التي مارستْها سلطة الكنيسة ضدّ الأسقف الصقليّ المونسنيور آنجيلو فيكارا(**) الذي رفض الانصياع إلى منهج الكنيسة الإيطالية في الاستخدام السياسيّ لمهمّة رجل الدِّيْن.

وتزامن عام 1979 مع موافقة ليوناردو شاشّا بالترشّح البرلماني لمجلس النوّاب الإيطالي في دورة الانتخابات التي جرت في تلك السنة، ضمن قائمة الحزب الراديكاليّ الإيطالي المعروف بمواقفه الجَذْرية في الدفاع عن الحقوق والمطالب المدنيّة. وتحوّلت هذه المهمّة البرلمانية بالنسبة إلى ليوناردو شاشّا إلى فرصة للاطّلاع على خبايا قضيّة اختطاف آلدو مورو ومقتله، وذلك لكونه عضواً في اللجنة البرلمانية للتحقيق في الملفّ. وفي نهاية عام 1982 رفض شاشّا الموافقة على النتائج الواردة في خُلاصة مُقرّر اللجنة، الْمُمثّل للأغلبية داخل اللجنة، وأعلن على الملأ عن معارضة الأقلّية، ونَشَرَ تلك الوثيقة في مُلحق للطبعة الجديدة من كتاب "قضيّة مورو".

لم يكتب شاشّا أيّة رواية خلال الخمسيّة التي شغل فيها عضوية مجلس النوّاب (1981 - 1986)، إلّا أنّه أنجز - تحقيقات مثل "حوارات في غرفة مُغلقة" مع الكاتب دافيد لايولو؛ وجمع مختارات من المقالات

---

*) Marcelle Padovani مارسيل بادوڤاني. صحفيّة فرنسية وُلدت في عام 1947. تعيش في إيطاليا منذ سنوات طويلة. وتناولت ظاهرة المافيا الإيطالية في أكثر من كتاب، ويُعدّ كتابها - حوار مع ليوناردو شاشّا "La Sicila come Metafora صقليّة كميثافور" واحداً من أهمّ القراءات للمافيا الصقليّة "كوزا نوسترا". (تحت الترجمة).

**) Monsignor Angelo Ficara المونسينيور آنجيلو فيكارا - أسقف إيطالي شهير، تولّى رئاسة الكنيسة في مدينة كانيكاتيّ الصقليّة، وقاد أبرشيّة مدينة پاتيّ في صقليّة من عام 1937 حتّى عام 1957، حيث أُبعد بسبب مواقفه من استخدام الكنيسة كأداة في الصراع السياسيّ الإيطالي لصالح هيمنة الحزب الديموقراطيّ المسيحي، ولعرقلة تصاعد تأثيرات الحزب الشيوعيّ الإيطالي في صقليّة. تناول شاشّا عشرينيّة صراع الأسقف مع زعامة الكنيسة والحزب الديموقراطيّ المسيحي في روما في كُتيّب ثري بالمراسلات، بعنوان "في صفّ المُلحدين". (تحت الترجمة).

المنشورة سابقاً في كتاب بعنوان "كلمات مُتقاطعة"، ومجموعة من المذكّرات بعنوان "عين العنزة"، وهو عبارة عن ذكريات وتأمّلات نابعة من مسقط رأسه "راكالموتو"، ونال عنه جائزة "نونّينو" الشهيرة للآداب. بعد ذلك أصدر كتابه الجميل "ستاندال وصقليّة - محاولة لرَسمِ صورة شخصيّة للكاتب في شبابه"، وكان الكتاب تحيّة إلى الكاتب الأرجنتيني الراحل خورخي لويس بورخيس؛ وأتْبَعَ ذلك بكتابه "مسرح الذكرى" الذي تناول فيه ما كان كتبه لويجي پيرانديلّو عن مواطن كولّينيو، فاقد الذاكرة؛ وأصدر بعد ذلك كتاب "قرارات حكم غير قابلة للنسيان"، حول قضيّة الفرنسي مارتين غيرّي(*)، وفاز به بجائزة باغوتا(**)، ومن ثمّ أصدر كتاب "الساحرة والقبطان"، وتدور أحداثه حول جماعة تدّعي السِّحْر في ميلانو بالقرن السابع عشر، واكتشف شاشّا ذلك على هامش قراءاته لنصوص آليسّاندرو مانزوني، ويظهر جليّاً في هذا الكتاب شكّ آيديولوجي واضح ومطلق في قدرة الرواية على تفسير وتأويل واقع إيطالي مُعقّد على تلك الشاكلة، ويؤكّد بأنّ امتلاك قدرة التفسير والتأويل يتطلّب انغماساً شاملاً في صُلب ذلك الواقع.

(*) Martin Guerre مارتين غيرّ - كان مارتين غيرّ مُزارعاً فرنسياً عاش في القرن السادس عشر، وصار "ضحيّة لقضيّة انتحال هوية إنسان آخر". فبعد فترةٍ من اختفائه وابتعاده من زوجته وابنه، ظهر رجلٌ ادّعى بكونه مارتين غيرّ، وعاش لثلاث سنين مع الزوجة. وبعد فترة من هذا التعايش برزت شكوك حول الهوية الحقيقية لهذا الشخص، وخضع إلى المحاكمة، واكتشف القضاة بأنّ اسمه الحقيقي هو آرنو دي تيله، وأنّه انتحل شخصية غيرّ. وترامنت المحاكمة مع عودة مارتين غيرّ الحقيقي إلى بلدته، واختتمت المحاكمة بإصدار قرار الإعدام بحقّ المُنتحل. وما تزال هذه القضية تُضرب مَثَلاً في القضاء كنموذج لانتحال الشخصيّة.

(**) Premio Baguta جائزة باغوتا. تأسّست جائزة باغوتّا الأدبيّة في الحادي عشر من نوفمبر/ تشرين الثاني 1926، واستنبطتْها مجموعة مكوّنة من11كاتباً إيطاليّاً شاباً، كانوا اعتادوا على اللقاء الدوريّ في مطعم "باغوتّا" بمدينة ميلانو. وقرّر المجتمعون أنفسهم أعضاء في لجنة التحكيم التي اختارت الكتاب الفائز. وبتتالي الأعوام مُنحت الجائزة إلى عدد كبير من الكتّاب، من بينهم فيتاليانو برانكاتي وإيتالو كالفينو وليونيدا ريپاتشي وكارلو إيميلو غادّا وبريمو ليفي وبييرو تشيتاتي، وغيرهم الكثير.

في عام 1982، وبعد اغتيال والي پاليرمو الجنرال كارلو آلبيرتو ديلاّ كييزا(*) من قِبَل المافيا، رفض ليوناردو شاشّا الامتداح غير المشروط لأداء الجنرال القتيل، ما دفع نجل الراحل، الكاتب السوسيولوجيّ، ناندو ديلاّ كييزا، إلى اتّهام شاشّا بكونه يرغب في "ممارسة لعبة المافيا نفسها"، وتكرّرت الحالة بعد ذلك بوقت قصير عندما عُيِّن وكيل نيابة مارسالا، القاضي باولو بورسيلّينو(**) عضواً في قطب قضاة مكافحة المافيا بدلاً من قاضٍ آخر بأقدمية أكثر منه في السلك القضائي، وطالب شاشّا الدولة بالنأي بنفسها عن الاستخدام السياسيّ لمبدأ مكافحة المافيا، والإحجام عمّا حدث في زمن الفاشيّة، وتعرّض شاشّا حينها إلى هجوم إعلامي واسع، بلغ مستوى اتّهامه بالقرابة "الموضوعية" مع المافيا، في حين ذاد الكاتب عن نفسه مؤكّداً بأن اعتراضاته لم تكن موجَّهة ضدّ القاضي بورسيلّينو وشكوكاً حول مقدِرته وإسهاماته، بقَدْر ما كان اعتراضاً على المنهج الذي اتُّبع في هذا الصدد عبر تفضيل الجانب السياسيّ على الاستحقاقات المهنيّة، (وحسب مُطّلعين، فإنّ القاضي بورسلّينو أبدى تفهّمه للموقف الذي اتّخذه شاشّا).

وقام ليوناردو شاشّا في عام 1983 بجولة في إسبانيا مُحقّقاً خلالها عدداً من المقالات لجريدة "كورّييري ديلاّ سيرا"، وجمع عدداً من بين الأفضل من تلك المقالات في عام 1988 في كتاب بعنوان "ساعات

(*) Generale Carlo Alberto Chiesa الجنرال كارلو آلبيرتو ديلا كييزا - أحد كبار قيادات الشرطة العسكرية الإيطالية (كارابينييري)، اشتُهر بمواجهته مع الإرهاب اليساري، وعُيّن والياً لپاليرمو إثر اغتيالات مافيوية لسياسيّين كبار في جزيرة صقليّة، وتمكّنت منه المافيا، واغتالتْهُ برفقة زوجته الشابّة في كمين مرعب.

(**) Paolo Borsellino پاولو بورسيلّينو - قاض ورئيس نيابة صقليٌّ، أسهم برفقة زميله ورفيق عمره جوفانيّ فالكوني في إماطة اللثام عن الكثير من أسرار ومخطّطات ومؤمرات مافيا "كوزا نوسترا" الصقليّة. اغتالتْهُ المافيا برفقة خمسة من حمايته بتفجير مُخيف يوم 19 يوليو/ تمّوز 1992 في پاليرمو، بعد أقلّ من شهرَيْن من اغتيال فالكوني بتفجير مرعب في الطريق السريع ما بين مطار پاليرمو ومركز المدينة.

إسبانيا(*)"، وصدر الكتاب بالتعاون مع المصوِّر الصقليّ المعروف فيرديناندو شانّا، حيث ضمّ عدداً من صوره.

وفي العام ذاته اعتُقل مقدّم البرامج التلفزيونيّة الشهير إينزو تورتورا، واتُّهم بالقرابة مع المافيا، وذلك استناداً إلى اتّهامات واهية، أطلقها أحد عرّابي مافيا "لا كامورّا" النابوليتانيّة، أظهر التحقيق القضائي بُطلانها فيما بعد. فما كان من ليوناردو شاشّا إلّا ووقف إلى جانب تورتورا، وترأس جمعية داعمة لترشيحه لعضوية البرلمان، وبالفعل انتُخب تورتورا عضواً في مجلس النوّاب في دورة الانتخابات البرلمانية في عام 1984 ضمن قائمة الحزب الراديكاليّ.

وأصدر شاشّا في عام 1983 روايته المعنونة "الأبواب المفتوحة"، والتي جاءت نتيجة لالتزامه ومتابعته لنشاط "منظّمة العفو الدولية" ضدّ الحكم بالإعدام، واحتلّت مسألة العدالة صُلب اهتماماته المركزيّة، واستوحى القصّة من حكاية قاضٍ من مسقط رأسه راكالموتو، اسمه سلفاتوري بيتروني.

وفي السنة ذاتها أصدرت دار نشر بومپياني ضمن كلاسيكيّاتها الجزء الأوّل من الأعمال الكاملة لشاشّا، أشرف عليها بنفسه، وكتب مقدّمتها صديقه المقرّب الناقد الفرنسي كلود آمبروزي. في حين صدر الجزءان الآخران بعد وفاته.

تَرَدّتْ أوضاع شاشّا الصحّيّة بشكل كبير في عام 1988 واكتشف الأطبّاء لديه ورماً سرطانيّاً نادراً في نقي العظام، وهو ما كان يُجبره على علاجات طويلة ومؤلمة، وتثير روايته ما قبل الأخيرة "الفارس والموت"، والتي سجّل فيها شهادة عن المشاعر الرهيبة التي يتلمّسها مَنْ يرى

---

*) Ore di Spagna ساعات في إسبانيا.

الموت على مقربة منه، وجاءت النتيجة عملاً رائعاً مفعماً بالتأمّلات حول حاضر إيطاليا والبشريّة ومستقبلهما.

وفي العشرين من نوفمبر من عام 1989 انطفأ ليوناردو شاشّا، لكنّه نشر قبل ذلك مجموعة من الأعمال، من بينها "حكاية بسيطة"، وهي قصّة ذات طابع بوليسي، بمغزى أخلاقي وسياسي، ونشر أيضاً كتاب "الألفباء البيراندیلّية"، وهو مهدى إلى الكاتب الصقليّ الشهير لويجي بيراندیلّو، الذي عدّه شاشّا الكاتب الأهمّ في حياته؛ إضافة إلى "قضايا مختلفة عن التاريخ الأدبي والمدني"؛ و"زادٌ لذاكرة المستقبل (فيما لو كان للذاكرة أيّ مستقبل)"، وهو الكتاب الذي ضمّ مداخلاته السياسيّة والمدنيّة الأساسيّة في أعوام الثمانينيات حول المافيا ومكافحتها.

وفي الثالث والعشرين من أكتوبر 2010 احتفت مؤسّسة البريد الإيطالي بذكرى ليوناردو شاشّا، وأصدرت طابعاً بريدياً استذكارياً له.

ويحمل الطابع سعر 0.6 يورو، وقد صُمّم بصورة شخصية للكاتب الراحل في المقدّمة وإلى يمينه عدد من الكُتُب مفتوحة الصفحات، وفي الخلفية ثمّة صورة تمُثّل خارطة جزيرة صقليّة، فيما وُضع اسم الكاتب وتاريخَي ميلاده ووفاته في أعلى الطابع، ووُضع اسم إيطاليا إلى الأسفل يمين الطابع. وأُنتج من هذا الطابع، الذي صمّمته الفنّانة ريتا موربنا، أربعة ملايين وحدة.

وأُرفق الطابع بمظروف مراسلات، حمل صورة الطابع مع الخَتْم البريدي لدائرة "راكالموتو" بصقليّة - مسقط رأس الكاتب -، في تاريخ يوم الإصدار، أي 23 أكتوبر 2010.

المترجم عرفان رشيد

ولد في مدينة خانقين (العراق) في 26 آب/أغسطس 1952، يُقيم في إيطاليا منذ عام 1978. تخرج من أكاديمية الفنون الجميلة في بغداد - قسم الفنون المسرحيّة عام 1977. عمل محرّراً في القناة العربيّة الإيطالية "راي ميد"؛ أنجز العديد من البرامج والتقارير التلفزينية لتلفزيون دبي، إل بي سي، دويتشة فيله، وغيرها من القنوات التلفزيونيّة العربية؛ وهو مُعلّق ومحلّل لأوضاع الشرق الأوسط في العديد من القنوات التلفزيونيّة الإيطالية، وبالذات القناتين الرسميتين الأولى: "راي 1" و "راي 3".

عمل أيضاً مراسلاً صحفياً من إيطاليا و وموفداً إلى عدة بلدان أوروبية للعديد من الصحف العربية من بينها "الحياة" اللندنية، "راديو مونتي كارلو"، "دويتشيه فيله" الألمانية. "المدى" العراقيّة. أسّس ونسّق وأدار تحرير العديد من المواقع الاعلامية الالكترونية، من بينها:

الموقع العربي لوكالة "آكي" الإيطالية للأنباء؛ والموقع العربي لوكالة "أي جي آي " الإيطالية للصحافة؛ الموقع العربي الإيطالي "إيطاليا الثقافية" (www.Thaqafiya.con)، ويدير قناته الخاصة على اليوتيوب.

عرفان عضو في جمعيّة الصحافة الأجنبيّة في إيطاليا منذ عام

1982، وعضو نقابة الصحفيين الإيطاليين منذ 5 حزيران 2002، وعضو في جمعية الصحافة في إقليم توسكاني منذ عام 2002.

ألف كتاب "سينما البلدان العربية" صادر باللغة الإيطالية عن دار نشر مارسيليو الإيطالية - مؤلّف مشارك -؛

ترجم رواية "الرفيق" للكاتب الإيطالي تشيزيره پافيزه، المنشورة من قبل "منشورات المتوسّط" في ميلانو؛ وترجم ثلاثية الكاتب الصقلّي ليوناردو شاشّا. ورواية "زمن القتل" للكاتب الإيطالي إينيو فلايانو.

خلال سني خبرته الإعلامية التي قاربت أربعة عقود حصل على العديد من الجوائز والشهادات التقديرية من بينها:

- جائزة "إسكيا - صحفي العام" عام 2006

- جائزة نقّاد السينما في مهرجان فينيسيا السينمائي الدولي 2018

- شهادة تقديرية تثميناً للجهد الإعلامي والصحافي من قبل نقابة الصحفيين في إقليم توسكانا.

سلسلة حكايات المافيا

تأتي هذه السلسة في سياق عمل منشورات المتوسط على تعريف القارئ العربي بالثقافة والتقاليد والظواهر التي أثّرت في بناء وتطور المجتمع الإيطالي. حيث تقوم هذه السلسلة على إصدار وترجمة أعمال روائية وسيرية تناولت ظاهرة المافيا وحاولت فهمها عن قرب، لما لها من أثر كبير في الحياة الاجتماعية، ليس في إيطاليا وحسب، بل في دول كثيرة من العالم مثل الولايات المتحدة والصين واليابان وتركيا وغيرها من الأمم التي تأسّست فيها مافيات على النمط الإيطالي، لكن بأسماء وبُنيات مختلفة.

وعلى ما في سلسلة "حكايات المافيا" من وعودٍ بنصوص رفيعة المستوى من حيث منظورها الاجتماعي والأخلاقي، ومن حيث حبكاتها الحافلة بالتشويق والترقب والغموض؛ فإنها تتطلع إلى أن تساهم في تشكيل أرضية فكرية لمعرفة آليات تفكير المافيا، وبالتالي المساهمة في تفكيك العقلية الإجرامية التي تقوم عليها، الأمر الذي يدفع إلى تمكين القارئ من الإحاطة بكل مافيا تنشط في محيطه المحلي، سياسية أو دينية أو اقتصادية، مهدّدةً حياته ومغلقةً دروب مستقبله.

لوغو السلسلة ومقاصد المتوسط

القارئات والقرّاء الأعزاء.. عُرف عن بعض عصابات المافيا أنها إذا قرّرت تصفية أحد ما تُرسل إليه رسالة تحتوي على صورة كفٍّ أسود. ومن يتلقى ذلك البريد يدرك على الفور أن أيامه أوشكت على نهايتها. اعتمدنا الكف السوداء كشعار لهذه السلسلة، فإذا استلم أحدكم أيّ كتاب من كتب هذه السلسة فلا داعي للقلق أبداً، فيكفي أن يقرأ الكتاب كاملاً ثم يسارع إلى اقتناء كتاب آخر من كتب السلسة أو غيرها، فالقراءة وحدها القادرة على أن تبطل مفعول الكف الأسود للمافيا.

مكتبة
t.me/t_pdf

صدرت هذه الرواية عام 1966، ويمكن عَدُّها النتاج الأكثر اكتمالاً وروعة للدَّمْج البديع بين الرواية البوليسية ورواية الاحتجاج المَدَنيِّ، والذي يميِّز، بشكل أخَّاذ، المراحل الأولى لرواية ليوناردو شاشا. بأسلوب صريح خالٍ من المبالغات الأدبية، يحكي شاشا قصَّة الدم والفساد في بلدة في جزيرة صقلِّيَّة الإيطالية. يُسلِّط الضوء ببطء، ولكنْ، بلا تردُّد، بل بالكثير من الشجاعة، على شبكة من التواطؤ والجُبن والانتهازية تريد الحفاظ على الوضع القائم في صقلِّيَّة، ومن خلال تأمُّل شاشا المؤلم لشرٍّ لا علاج له، تُفاجِئُنا الرواية بالأدلَّة الحاسمة على أن صقلِّيَّة تُرِكَت تماماً لمصيرها مثل فريسة عزلاء إزاء سطوةِ منظَّمةٍ إجراميةٍ، تسعى فقط لإدامة نفسها. لا قانون هناك إلَّا قانون المافيا.

يُقتَل صيدلاني القرية في رحلة صيد، حيث دُبِّرَتْ الجريمة لتظهر كأنها جريمة عاطفية. لكن حقائق يعلمها صديق الصيدلاني الأقرب تدفعه للشكِّ بأمر آخر، فيتولىَّ بنفسه مهمَّة التحقيق.

هذه الرواية باختصار مَرويَّة صِقلِّيَّة الغامضة والقاسية. مأساة محقِّق يَقِظ، كلَّما حقَّق في الأمر، شعر بنفسه غارقاً أخلاقياً وحسِّيَّاً في الالتباس والغموض.

الناشر

telegram
@t_pdf

ISBN 979-12-80738-05-9
9 791280 738059
المتوسط